الأنوار في مولد النبي محمد (ص)

تأليف

العالم الكبير أبو الحسن بن عبد الله البكري

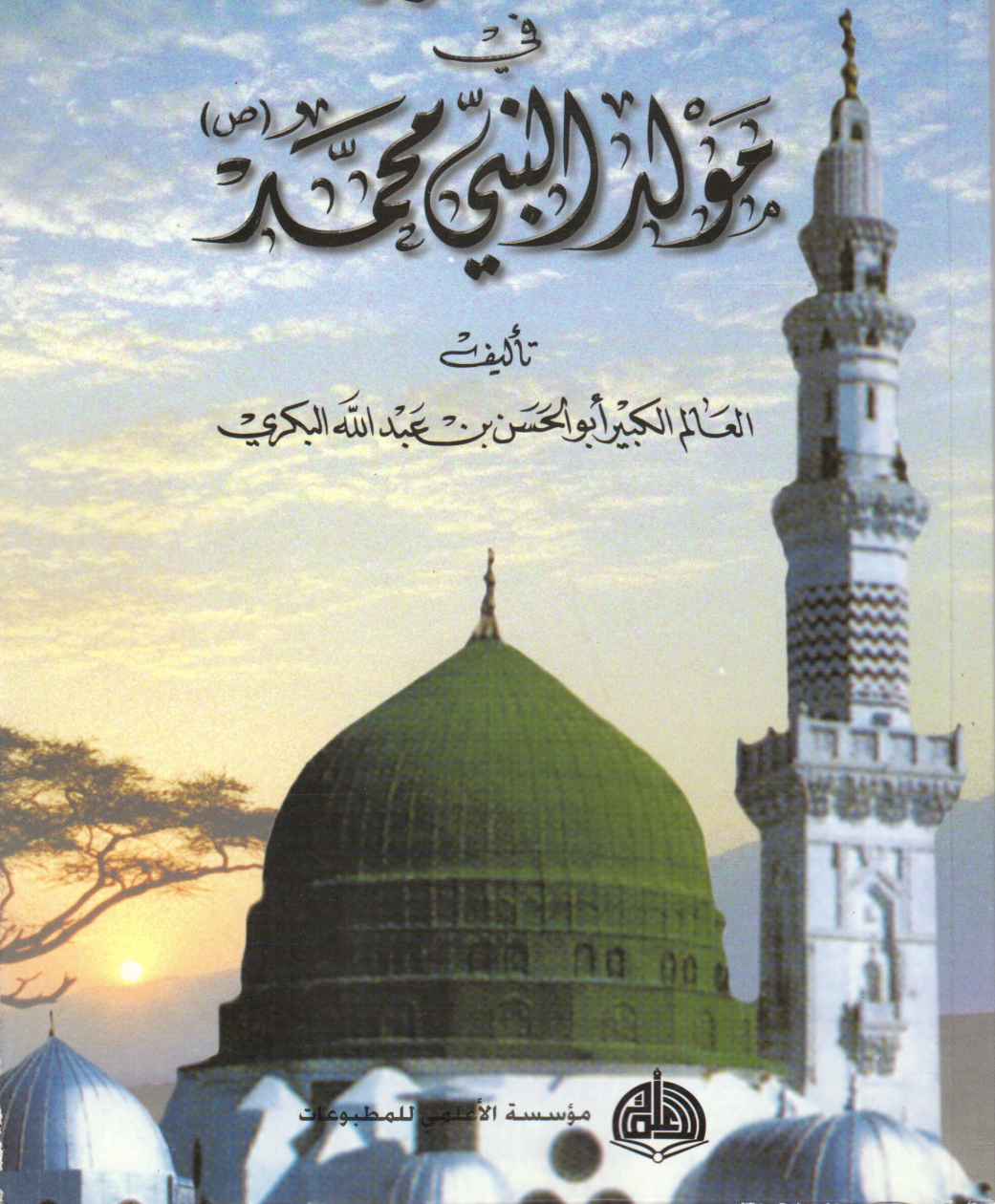

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الأنوار
في
مولد النبي محمد (ص)

الأنوار
في
مولد النبي محمد (ص)

تأليف

العالم الكبير أبو الحسن بن عبد الله البكري

ضبطه وحققه

نضال محمد علي

شبكة الفجر
alteker.net

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
ملك الاعلمي - ص.ب: ٧١٢٠
الهاتف: ٨٣٣٤٤٧ - ٨٣٣٤٥٣

PUBLISHED BY
Al Alami Library
BEIRUT - LEBANON
P.O. BOX 7120

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب والمؤلف

نقلاً عن كتاب الذريعة للعلاّمة المغفور له الشيخ آغا برزگ الطهراني قدس سره ج ٢ ص ٤٠٩.

الأنوار ومفتاح السرور والأفكار في مولد النبي المختار: لأبي الحسن أحمد بن عبد الله البكري. أوله (الحمد لله الذي خلق روح حبيبه). وهو في سبعة أجزاء كما ذكره في كشف الظنون، وجعله العلامة المجلسي مع كتابيه الآخرين: مقتل أمير المؤمنين عليه السلام ووفاة فاطمة الزهراء من مآخذ البحار عند ذكر كتب الخاصّة، ونسب الثلاثة إلى أبي الحسن البكري المصري الذي قرأ عليه الشهيد الثاني بمصر، وتوفّي بها سنة ٩٥٣ كما ذكره ابن العودي في بغية المريد.

أقول: الظاهر أن أبا الحسن البكري المصري أستاذ الشهيد هو الذي ترجمه في شذرات الذهب بعنوان علاء الدين أبي الحسن علي بن جلال الدين محمد البكري الصديقي الشافعي المحدث الصوفي المتبحّر في الفقه والتفسير والحديث، وله شرح المنهاج وشرح الروض وشرح العباب أنه بعينه هو الذي نقل الزركلي في الأعلام ترجمته عن الكتابين المخطوطين «السنا الباهر. والنور السافر» بهذا العنوان محمد بن محمد بن عبد الرحمن أبو الحسن البكري الصديقي المفسّر الفقيه المصري، المولود سنة ٨٩٩ والمتوفى سنة ٩٥٢.

وعد من تصانيفه التفسير وشرح العباب وشرح المنهاج. وظاهر التكنية

بأبي الحسن، أن الصحيح من اسمه ما في الشذرات، وعلى أيّ فلم يذكر في الكتابين من تصانيف أبي الحسن البكري الذي كان في ذلك العصر هذه الكتب الثلاثة المذكورة في أول البحار منسوبة إلى أبي الحسن البكري أستاذ الشهيد، مع أن ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ ذكر في كتابه منهاج السنّة أن أبا الحسن البكري مؤلف الأنوار هذا كان أشعري المذهب، فيظهر تقدمه عليه فكيف بعصر الشهيد الثاني.

والسمهودي في كتابه تأريخ المدينة المؤلف سنة ٨٨٨ قال: الغالب على سيرة أبي الحسن البكري البطلان والكذب. فالمظنون أن أبا الحسن البكري مؤلف الكتب الثلاثة في المتقدمين، وأن اسمه أحمد بن عبد الله ـ كما ذكره في كشف الظنون وظاهر تأليفه في وفاة الزهراء عليها السلام واتهامه بالكذب والمذاهب الفاسدة ممن ذكرناه أنه كان من أصحابنا، وتعد كتبه الثلاثة من كتب الأصحاب، ولا سيما بعدما صرح العلامة المجلسي في الفصل الثاني في أول البحار بأن «أخبار كتاب الأنوار موافقة للأخبار المعتبرة المنقول بالأسانيد الصحيحة وكان مشهوراً بين علمائنا يتلونه ـ إلى قوله ـ وكذا الكتابان الآخران معتبران» واستكتبه الشيخ الحر وألحقه بعيون المعجزات بعنوان (الأنوار المحمدية) كما يأتي، ولذا ذكره السيد اعجاز حسين في كشف الحجب بعين ما ذكره صاحب كشف الظنون.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول:

زواج هاشم بن عبد مناف بسلمى بنت عمرو النجار

الحمد لله الذي خلق نور محمد ﷺ قبل خلق الأرواح، وجعل جسمه الشريف أحسن الصور والأشباح، وأخرج درة نوره الأنور من صدف جواهر التكوين، واستخرج جوهره الأقدس وجعله معدن الصدق واليقين، ولبس لها من شاهر ستره لباس الصيانة والهداية، وقدس صائب فكره عن الزيغ والشك والغواية، وتوّجه بتاج النبوّة والإمامة وشرّفه بشرف الرسالة والكرامة، وشرح صدره بأنوار المحبة واللطف والكرامة، وأودع قلبه دقائق الفهم واحتياط العلم لقوله تعالى: وعلمه ما لم يعلم وجعل نفسه الكريمة الشريفة وسط عقد الوجود لكل حسن موجود، وطلع شمس الشموس قبل طلوع أقمار النبيين من فوق أسماء العز والتمكين، لقول النبي: كنت نبياً وآدم بين الماء والطين. أجلس روحه المقدسة ونوره الأقدس على القرب والسعادة والمجد والسيادة، ثم بعثه بعد حين في الشهر المبارك الشريف المنيف[1]، إلى عالم الغيب والشهادة، ونوّر بظهوره وظهور نوره أقطار السماوات والأرضين وأكنافهما، ثم طهّرهما بقدرته عن دنس الكفر، وزين ربوع العالم بظهور نوره في شهر ربيع، وعرّف بمحبته. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله العالمين وباعث الرسل أجمعين، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، كاشف الغمة وشفيع الأمة وشمس الخلق ﷺ.

---

(١) المنيف: العالي.

فاعلم أيها الراغب لاستماع الأخبار الواردة بفضائل النبي الأمي القرشي المكي الأبطحي الهاشمي، فإن مناقب ذاته أكثر من أن تعدّ وتحصى، ومناقب جوده أوفر من أن تعد وتستقصى لأن بحر جوده لا يدرك نهاية صفاته المنيفة العالم الغاية، لأنه بكل مدحه به المادحون درة من علم كمالات نفسه الأنفس. وكل وصف وصفه به الواصفون قطرة من بحار صفات ذاته المقدسة. لكن ما جرت به عادة العلماء بأنهم يعقدون بهذا الشهر الرفيع، المسمى بربيع المجالس الشريفة المباركة المنيفة، لإظهار الفرح والسرور بذكر بعض الأخبار التي وردت بظهور النبي المكرّم، ونشر طرف من الآثار التي ثبتت في شمائله، تحرك الخاطر العاطر أن يتشرف بذكر شيء من شمائله ونبذة من فضائله، لتقرأ في بعض المجالس التي تعد في الليالي والأيام، ليطيب قلب من حضر في الاستماع من الخاص والعام، لتصل ببركة هذه الأخبار إلى سائر المؤمنين والمؤمنات، وتدوم صحة العافية بين المسلمين والمسلمات، وإن الله تعالى وليّ الخيرات، ومنه التوفيق والإجابات، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال أبو الحسن بن عبد الله: هذا الكتاب أنوار محمد ﷺ وانتقاله من الأصلاب الكريمة إلى البطون الطاهرة الرحيمة وقد رتبته سبعة أجزاء.

روى أبو الحسن عن كعب الأحبار ووهب بن منبه عن عبد الله بن العباس قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق سيد المرسلين، وأشرف الأوّلين والآخرين وخاتم النبيين، قال الله تعالى للملائكة: إني أريد أن أخلق خلقاً أُفضّله على الخلق أجمعين، وأجعله أشرف الأوّلين والآخرين، والمشفع فيهم يوم الدين فلولاه ما زخرفت الجنان ولا أُسعرت النيران، فاعرفوا منزلته ومحلّه، وأكرموه لكرامتي وعظّموه لعظمتي. فقالت الملائكة: ما اعتراض العبد على مولاه نعوذ بالله وبجلالك أن نعصيك. وقيل إن المسؤول عن ذلك زوج البتول وابن عم الرسول عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو مشهور بين أهل العلم المقطوع بخبرهم، بحذف الأسانيد قال علي عليه السلام: كان الله تعالى ولا شيء معه فأول ما خلق نور حبيبه، قبل أن يخلق الماء والعرش والكرسي واللوح والقلم والجنة

والنار والحجاب والسحاب وآدم وحوى بأربعة آلاف عام، فأمر الله تعالى طاووس الملائكة وهو جبرئيل، لما خلق نور محمد ﷺ بقي ألف عام واقفاً بين يدي الله عز وجل، يسبحه ويحمده فقال الله: يا عبدي أنت المراد وأنا المريد، وأنت خيرتي من خلقي فوعزتي وجلالي، لولاك ما خلقت الأفلاك ولا الدنيا ولا الأرض؛ فمن أحبك أحببته ومن أبغضك أبغضته! فتلألأ نور رسول الله ﷺ وارتفع شأنه وشعاعه، فخلق الله تعالى من نوره اثني عشر حجاباً أوّلها حجاب القدرة، ثم حجاب العظمة ثم حجاب العزة ثم حجاب الهيبة، ثم حجاب الجبروت ثم حجاب الرحمة ثم حجاب النبوة، ثم حجاب الكبرياء ثم حجاب المنزلة ثم حجاب الرفعة، ثم حجاب السعادة ثم حجاب الشفاعة. ثم أمر الله تعالى نور محمد ﷺ أن يدخل في حجاب القدرة، فدخل وهو يقول: سبحان عالم السر والخفى عشرة آلاف عام، وثم أمره أن يدخل في حجاب العزة فدخل وهو يقول: سبحان الملك المنان تسعة آلاف عام، ثم دخل في حجاب الجبروت وهو يقول: سبحان الكريم الأكرم ثمانية آلاف عام، ثم دخل في حجاب الرحمة وهو يقول: سبحان رب العرش سبعة آلاف عام، ثم دخل في حجاب المنزلة وهو يقول: سبحان ربي العظيم الأعظم ستة آلاف عام، ثم دخل في حجاب الكرامة وهو يقول: سبحان ربي الحميد المجيد خمسة آلاف عام، ثم دخل في حجاب الرفعة وهو يقول: سبحان الملك والملكوت أربعة آلاف عام، ثم دخل في حجاب السعادة وهو يقول: سبحان من يزل الأشياء ولم يزل ثلاثة آلاف عام، ثم دخل في حجاب الشفاعة وهو يقول: سبحان الله ربي العظيم وبحمده ألفي عام، ثم دخل في حجاب الكبرياء وهو يقول: سبحان ذي العزة والسلطان ألف عام.

وقال علي عليه السلام: إن الله تعالى خلق من نور محمد ﷺ عشرين بحراً وبكل بحر علوم لا يعلمها إلا الله تعالى، ثم قال لنور محمد ﷺ إنزل في بحر العزة ثم في بحر الصبر ثم في بحر الخشوع ثم في بحر التواضع ثم في بحر الرضا ثم في بحر الوقار ثم في بحر الحلم[1] ثم في بحر التقى ثم في بحر

(١) الحلم: الصبر والأناة والسكون مع القدرة والقوة. وهو أيضاً العقل.

الخشية ثم في بحر الإنابة ثم في بحر العلم ثم في بحر العمل ثم في بحر المزيد ثم في بحر الهناء ثم في بحر الصيانة ثم في بحر الحياء ثم في بحر التقوى إلى أن تقلب في ثمانية وعشرين بحراً. فلما خرج من آخرها ناداه الله تعالى: يا حبيبي وسيّد رسلي ويا أول مخلوقاتي وآخر رسلي، أنت الشفيع يوم المحشر. قال: فخرّ النور ساجداً ثم قام وهو عرقان فقطرت منه قطرات كان عددها مائة وأربعة وعشرون ألفاً، فخلق الله من كل قطرة نبياً من أنبيائه، قال: فلما كملت صارت تطوف حول نوره كما يطوف الحاج ببيت الله الحرام، وهم يسبحون الله ويقدسونه ويقولون سبحان من هو غني لا يفتقر. قال: فناداهم الله تعالى: أتعرفون من أنا؟ فسبقهم نور محمد ﷺ قبل تلك الأنوار وقال: أنت الله الذي لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، رب الأرباب ومالك الملوك. وإذا بالنداء من قبل الله تعالى: أنت صفوتي وأنت حبيبي وخيرة خلقي وأمّتك خير أُمّة أُخرجت للناس.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: ثم خلق من نور محمد ﷺ جوهرة وقسمها نصفين، فنظر إلى القسم الأول بعين الهيبة فصار ماءً عذباً، ونظر إلى القسم الثاني بعين الشفقة فخلق منه العرش، وخلق من نوره الكرسي واللوح، ثم خلق من نور اللوح القلم ثم قال له: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: اكتب توحيدي وعظمتي. قال: فبقي القلم سكران ألف عام من كلام الله تعالى فلما أفاق قال: اكتب لا إله إلا الله محمد رسول الله علي وليّ الله. قال: فلما سمع القلم حلاوة ذكر محمد ﷺ خر ساجداً وهو يقول: سبحان الواحد القهار سبحان العظيم الأعظم الجبار، ثم رفع رأسه فكتب ثم قال: يا رب ومن محمد الذي قرنت اسمه.

وذكره باسمك، بذكرك؟ فقال الله تعالى: ما خلقت الخلق إلا لأجله فهو البشير النذير والسراج المنير وحبيب وشفيع. فعند ذلك نطق القلم من حلاوة ذكر محمد ﷺ وقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال الله تعالى: وعليك مني السلام. ولأجل ذلك صار السلام سنّة والرد فريضة. فقال الله تعالى: تأدب يا قلم واكتب قضائي وقدري وما أنا خالقه إلى يوم القيامة.

ثم خلق الله تعالى من نور محمد ﷺ الجنة وزيّنها بأربعة أشياء منها التعظيم والإجلال والسخاء والأمانة، وقد أعدها لأوليائه وأهل طاعته، ثم نظر إلى باقي الجوهرة بعين الهيبة فذابت، فخلق من دخانها السماوات ومن زبدها الأرض فصارت تموج بأهلها كالسفينة، فخلق الجبال وأرساها. ثم خلق ملكاً من عظمته أعظم ما يكون في القوة، فدخل تحت الأرض وأخرج يداً له بالمشرق ويداً له بالمغرب، ثم أمسك أطراف الأرضين، ثم لم يكن لقدمي الملك قرار فخلق صخرة عظيمة وجعلها تحت قدمي ذلك الملك، ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق ثوراً عظيماً لم يقدر أحد يعاين إليه من أجل خلقته وبريق عينيه، حتى لو وضعت البحار كلها في إحدى منخريه ما كانت إلا خردلة ملقاة في فلاة. فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره، واسم الثور لهوتا. ثم لم يكن لقدمي الثور قرار فخلق الله تعالى حوتاً عظيماً واسم الحوت بهموت، فدخل تحت قدمي الثور فاستقر عليها؛ فالحوت على الماء والماء على الهواء والهواء على الظلمة، ثم انقطع علم الخلائق عن الذي تحت الظلمة. ثم خلق الله تعالى العرش من ضياءين: أحدهما العدل والثاني الفضل، ثم أمر الله تعالى ذينك الضياءين فانقسما قسمين، فخلق الله منها أربعة أشياء: العقل والعلم والحلم والسخاء. ثم خلق الله تعالى من العقل الخوف ومن العلم الرضا ومن الحلم المودة ومن السخاء المحبة، ثم عجنها كلها بطينة محمد ﷺ وأهل بيته والمؤمنين. ثم خلق الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والضياء والظلام والملائكة، كل ذلك من نور محمد ﷺ. قال: فلما تكاملت الأنوار سكن نور محمد سبعين ألف عام، ثم انتقل إلى الجنة وبقي فيها سبعين ألف عام، ثم انتقل إلى السماء السابعة ثم انتقل إلى السماء السادسة ثم انتقل إلى الخامسة، ثم إلى الرابعة ثم إلى الثالثة ثم إلى الثانية ثم إلى سماء الدنيا.

قال: وبقي نوره إلى أن أراد الله تعالى أن يخلق آدم، فأمر جبرئيل أن يهبط إلى الأرض ويقبض منها قبضة، فنزل فسبقه إبليس لعنه الله إلى الأرض وقال: إن الله تعالى يريد أن يخلق منك خلقاً ويعذبه بالنار، فإذا أتاك الملك فقولي: أعوذ بالله منك إن أخذت مني شيئاً يكون للنار فيه نصيب. قال: فلما

أتاها الملك جبرئيل قالت: إني أعوذ بالله الذي أرسلك بأن لا تأخذ مني شيئاً يكون فيه نصيب للنار. قال: فرجع ولم يقبض منها شيئاً وقال: يا رب استعاذت بك فرحمتها، فبعث ميكائيل فأقسمت عليه، فرجع ولم يأخذ شيئاً وقال كذلك. ثم بعث إسرافيل فرجع ولم يأخذ شيئاً، ثم بعث عزرائيل فقالت: أعوذ بالله منك أن تأخذ مني شيئاً. فلم يلتفت إليها فقبض منها قبضة ورجع بها إلى الله، فقال الله جل اسمه: خذ من أعلاها وأدناها وأبيضها وأسودها وأحمرها وأصفرها وأخشنها وأنعمها. فلذلك اختلفت ألوانهم وأخلاقهم؛ فمنهم الأبيض والأسود والأصفر والأحمر. ثم قال الله تعالى لعزرائيل: ألم تتعوذ الأرض منك بي؟ قال: بلى. ولكني لم ألتفت إليها لأن طاعتك أولى لها من رحمتي لها. فقال الله تعالى: اعلم أنّي سأخلق منها أنبياء وصالحين وغيرهم وأجعلك تقبض أرواحهم. قال: فبكى عزرائيل لما سمع ذلك وقال: إذا كنت كذلك كرهتني الخلائق. فقال الله تعالى: لا تخف فإني أخلق لهم عللاً ينسبون الموت إليها. قال: ثم إن الله أمر جبرئيل عليه السلام ومعه الكروبيون من الملائكة والصافون والمسبحون، ثم قبضها من موضع ضريح النبي صلى الله عليه وآله وسلم من البقعة المضيئة المختارة من بقاع الأرض، فعرج بماء التسنيم وماء التعظيم وماء التكريم وماء الكوثر وماء الرحمة وماء الرضا وماء العفو، ثم خلق الله سبحانه وتعالى من الهيبة رأسه ومن الشفقة قلبه، ومن السخاء كفيه ومن الصبر فؤاده ومن العفة فرجه، ومن الشرف قدميه ومن اليقين قلبه ومن الطيب نفسه، ثم خلط ذلك كله بطينة آدم. قال: فلما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وحواء أوحى إلى الملائكة **﴿إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾**[1] قال: ثم إن الملائكة حملوا جسد آدم عليه السلام ووضعوه على باب الجنة، وهو جسد بلا روح والملائكة ينتظرون متى يؤمرون بالسجود. قال: فلما كان يوم الجمعة بعد الظهر، أمر الله تعالى الملائكة بالسجود، فسجدوا إلا إبليس. ثم خلق بعد ذلك الروح وقال: ادخلي في هذا الجسد فرأت الروح مدخلاً ضيقاً فوقفت، فقال لها: ادخلي كرهاً واخرجي كرهاً. وقد نظم في ذلك

---

(١) سورة صّ، الآية ٧١.

الشيخ الرئيس العالم الحكيم علي بن سينا يصف الروح حيث دخلت كرهاً وخرجت كرهاً، ينشد ويقول (**أفلح من يصلي على الرسول وآله**):

هبطَتْ إليكَ من المحلِّ الأرفعِ ... وَرْقاءُ ذاتُ تعزز وَتَمنُّعِ
محجوبةٌ عن كلِ مُقلَةِ ناظرٍ ... وهي التي سَفَرتْ ولم تتبرْقَعِ
وصَلتْ على كرهٍ إليكَ فربما ... كرِهَتْ فِراقَكَ وهي ذاتُ تمنُّعِ
ألفت وما سكرت فلما واصلت ... كرهت مفارقة الخرابِ البلْقعِ[1]
وأظنُّها نسيَتْ عهوداً بالحِمى ... ومنازل بفراقِها لم تقنعِ
علِقتْ بِهاماتِ الثقيلِ فأصبحَتْ ... بين المعالِم والرسومِ الخُضَّعِ
تبكي إذا ذكَرتْ عهوداً بالحِمى ... بمدامعٍ تَهْمي ولم تقطعِ
وتضل ساجمةً على المدن التي ... اندرسَتْ بتكرارِ الرياحِ الأربعي
قدْ عاقَها الشّرْكُ الكثيفُ وصدَّها ... نقصاً عن الريحِ النسيجِ المربعِ
حتى إذا قرُبَ المسيرُ إلى الحِمى ... ودنى الرحيلُ إلى الفضاءِ الأوسعِ
وغدَتْ مفارِقةً لكلِّ مُخالِفٍ ... عنْها حليفِ التُربِ غيرِ متبعِ
هجعتْ وقد كُشِفَ الغطاءُ فأبصرَتْ ... ما ليس يُدرَكُ بالعيونِ الهُجَّعِ
وغدَتْ تغرِّدُ فوقَ دوحِ شاهقٍ ... والعِلمُ يرفعُ كلَّ من لم يرفعِ
إنْ كانَ أرسَلها الإلَهُ لحكمةٍ ... طُوِيَتْ عن الفَطِنِ اللبيبِ الأروَعِ
فهبوطُها من أن ضربة لازمٍ ... لتكونَ سامعةً لمنْ لم يسمَعِ
فتكون عالمةً بكلِ حقيقةٍ ... في العالَمين وخرقها لم ترقَعِ
فهي التي قطعَ الزمانُ طريقَها ... حتى إذا غربَتْ بغيرِ المَطلَعِ
فكأنّها برقٌ تألّق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلْمعِ
أنعم برد جواب ما أنا فاحص ... عنها فنارُ العلمِ غيرُ تشعشعِ

قال: ثم دخلت الروح في الخيشوم والعين، فجعل آدم ينظر إلى نفسه ويسمع تسبيح الملائكة. قال: فلما وصلت إلى الخياشيم عطس آدم عليه السلام قال: فأنطقه الله تعالى بالحمد وقال: الحمد لله. فقال له: يرحمك الله يا آدم فلهذا خلقتك وهذا لولدك من بعدك إن قالوا مثلما قلت. ولم يكن على إبليس

---

(١) البلقع: الأرض القفر.

أشد من تسميت العاطس. قال: فلما فتح آدم عليه السلام عينيه رأى مكتوباً على العرش: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّ وليّ الله. قال: فلما وصلت الروح إلى ساقيه أراد أن يقوم قبل أن تصل إلى قدميه، فلم يطق النهوض فلذلك قال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان عجولاً﴾.

وروي عن الصادق عليه السلام قال: كانت الروح في رأس آدم مائة عام وفي صدره مائة عام وفي ظهره مائة عام وفي قدميه مائة عام، فلما استوى أمر الله الملائكة بالسجود وكان بعد صلاة الظهر من الجمعة، فلا زالوا ساجدين قال: وسمع آدم في ظهره نشيشاً كنشيش الطير وتسبيحاً وتقديساً فقال آدم عليه السلام: يا رب ما هذا؟ قال: هذا تسبيح محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد الأولين والآخرين، فخذ بعهده ولا تودعه إلا في الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية من الرجال والنساء. فقال: يا رب زدتني في هذا المولود شرفاً ووقاراً. قال: وكان وقار محمد صلى الله عليه وآله وسلم كالشمس المضيئة في غرة آدم وقد أنارت السماوات والأرضين والعرش والكرسي، وكان إذا أراد أن يأتي حوى يأمرها أن تتطهر وتتطيب وهو يقول: عسى أن يرزقك الله تعالى هذا النور فهو وديعته. قال: ولم يزل النور في غرة آدم عليه السلام إلى أن حملت حوى بشيث، وكانت الملائكة يأتونها ويهنّئونها، قال: فلما وضعته كان بين عينيه نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم يشتعل، فعندها فرحت به. وضرب جبرئيل بينها وبين إبليس حجاباً من نور عمقه خمسمائة عام، ولم يزل محجوباً إلى أن بلغ شيث مبالغ الرجال. فلما بلغ قال له: يا بني إني مفارقك عن قريب فادنُ مني لآخذ عليك العهد والميثاق كما أخذه الله علي من قبل. ثم رفع رأسه إلى السماء وكان قد علم الله ما يريد آدم، فأمر الله الملائكة بالإمساك عن التسبيح فقلبت أجنحتها، وأشرفت سكان الجنان من غرفاتها، وسكن صرير القلم وصرير أنهارها وجريانها وتصفيق أوراقها، قال: وتطاولت لاستماع ما يقول آدم عليه السلام. ثم نودي: قل يا آدم ما أنت قائل. فقال: اللهمَّ رب القدرة ومنير الشمس خلقتني كيف شئت وقد أودعتني منه التشريف والكرامة وقد صار لولدي شيث، فأُريد أن آخذ عليه العهد والميثاق كما أخذته عليّ فكن شاهداً عليه. قال: وإذا بالنداء من قبل الله تعالى: خذ عليه

العهد والميثاق. فأشهد عليه جبرئيل وميكائيل والملائكة أجمعين. فأقبل جبرئيل على آدم وقال: يا آدم ربك يقرئك السلام، ويقول لك: اكتب على ولدك شيث كتاباً بالعهد والميثاق، وأشهد عليه الله وجبرئيل وميكائيل وإسرافيل والملائكة أجمعين. قال: فكتب الكتاب وختمه جبرائيل بخاتمه ودفعه إلى شيث، وكساه قبل انصرافه حلّتين حمراوين أضوأ من الشمس وأرقّ من الماء، لم تقطع ولم توصل بل قال لها الجليل كوني فكانت.

ثم تفرقا بعد ذلك قال: فقبل شيث العهد وألزمه نفسه، ولم يزل ذلك النور بين عينيه حتى تزوج المجلولة البيضاء، وكانت بطول حوى، وانتقل إليها ذلك النور بخطبة جبرئيل، فلما وطئت حملت بأنوش، فلما حملت به سمعت منادياً ينادي: هنيئاً لك يا بيضاء فقد استودعك الله سيد الأولين والآخرين. قال: فلما ولدت أنوش أخذ شيث عليه العهد والميثاق، كما أخذه عليه آدم قال: وانتقل ذلك النور إلى ولده قينان ومن قينان إلى مهلائيل، ومنه إلى أدد ومن أدد إلى أخنوخ وهو إدريس، وأودعه إدريس إلى ولده متوشلخ وأخذ عليه العهد، ثم انتقل إلى لمك ومن لمك إلى نوح ومن نوح إلى ولده سام ومنه إلى ولده ارفخشذ، ثم إلى ولده عابر ومن عابر إلى ناخور ومنه إلى تارح ومن تارح إلى إبراهيم، ومن إبراهيم إلى إسماعيل ثم انتقل إلى قيدار ثم إلى نبت ثم إلى الهميسع، ثم انتقل إلى يعهد ثم يشجب ومنه إلى أدد، ومن أدد إلى عدنان ثم إلى معد ومنه إلى نزار ومن نزار إلى مضر، ومنه إلى الياس ومن الياس إلى مدركة ومنه إلى خزيمة ومنه إلى كنانة، ومنه إلى قصي ومن قصي إلى لؤي ومن لؤي إلى غالب، ومنه إلى فهر ومنه إلى عبد مناف ومنه إلى هاشم وسمي هاشم لأنه هشم الثريد لقومه وكان اسمه عمرو العلا. وكان نور محمد في وجهه، وكان إذا أقبل تضيء منه الكعبة وتكتسي من نوره نوراً شعشعانياً ويرتفع من نور وجهه نور للسماء. وخرج من بطن أمه عاتكة بنت مرة بن فلح بن دوكان، وله ضفيرتان كضفيرتي إسماعيل تتقدان نوراً، فتعجب الناس من ذلك وسارت إليه الركبان من قبائل العرب من كل جانب ومكان، فأخبروا بذلك الكهان فأُنطقت الأصنام بفضل النبي المختار.

وكان هاشم لا يمر بحجر ولا مدر[1] إلا وينادونه: أبشر يا هاشم فإنه سيظهر من ذريتك أكرم الخلق على الله وأشرف العالمين! قال: كان هاشم إذا مشى في الظلام أنارت منه الحنادس ويرى ما حوله كما يرى من ضوء المصباح، فلما حضرت عبد مناف الوفاة أخذ عليه العهد والميثاق على أنه لا يودع نور رسول الله ﷺ إلا في الأرحام الزكية من أكرم الناس. فقبل هاشم هذا العهد والميثاق وألزمه على نفسه. قال: وجعلت ملوك الأرض تتطاول إلى هاشم يريدونه أن يتزوج منهم، ويبذلون له الجزيل من المال وهو يأبى عليهم. وكان كل يوم يمضي إلى الكعبة ويطوف بها سبعاً ويتعلق بأستارها. وكان هاشم إذا قصده قاصد أكرمه، وكان يكسو الكعبة ويكسو العريان ويطعم الجوعان ويفرج عن المعسر، ويوفي عن المديون ومن أُصيب بدمه يرفعه عنه. وكان بابه لا ينغلق عن صادر ولا وارد وإذا أولم وليمة أو أطعم طعاماً وفضل منه شيء، أمر أن يرمى إلى الوحش والطير، حتى تحدثوا بجوده في الآفاق وسيّده أهل مكة بأجمعهم، وشرّفوه وعظّموه وسلموا إليه مفاتيح الكعبة والسقاية والحجابة والرفادة، وأمور الناس ولواء نزار وقوس إسماعيل وقميص إبراهيم ونعل شيث وخاتم نوح. فلما احتوى على ذلك كله ظهر فخره ومجده، وكان يقوم بالحاج ويدعوهم ويتولى أمورهم ويكرمهم، ولا ينصرفون إلا شاكرين. وكان إذا استهل هلال ذي القعدة الحرام وذي الحجة يأمر الناس بالاجتماع إلى مكة، فإذا تكاملوا قام فيهم خطيباً وقال: «يا معشر الناس إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه سيأتيكم في هذا الزمان زوار بيت الله الحرام وهم ضيفان الله وضيفانكم، والأضياف أولى بالكرامة. وقد خصكم الله تعالى بهم وأكرمكم واعلموا أنهم سيأتونكم شعثاً غبراً من كل فج عميق ووادٍ سحيق، فأكرموهم يكرمكم الله تعالى» قال: وكانت قريش تخرج المال الكثير من أموالهم. قال: وكان هاشم يصفّ أحواض الأديم ويجعل فيها ماء زمزم، وباقي الحيضان من سائر المياه حتى يشرب الحاج. وكانت عادته أن يطعمهم قبل التروية بيوم، وكان يحمل الطعام إلى منى وعرفة. وكان هاشم يقوت لهم اللحم والسمن والتمر ويسقيهم

(١) المدر: الطين العلِك الذي لا يخالطه رمل.

اللبن إلى أن يصدر الناس من مكة، ثم يقطع هاشم الضيافة.

قال صاحب الحديث: وقد بلغ أنه قد وقع بمكة ضيق وجدب وغلاء ولم يكن عندهم شيء يزوّدون به الحاج، قال: فبعث هاشم أباعراً فباعها واشترى بثمنها عسلاً وزبيباً، ولم يترك عنده قوت يوم واحد بل بذل ذلك للحاج، فكفى ذلك الطعام جميعاً وصدر الناس يشكرونه في الآفاق وفي جميع الأمصار. وفيه يقول الشاعر (**صلِّ على خير الورى**):

يـا أيُّهـا الـرجـلُ المجـدُ رحيلَـهُ ... هـلاّ مـررْتَ بـدارِ عبـدِ منـافِ
ثكِلتْـكَ أُمّـك لـو مـررْتَ بـدارِه ... لعجِبْـتَ مـن كـرمٍ ومـنْ أوصـافِ
عمـرو العُـلا هشـمَ الثـريـدَ لقـومِـه ... والقـومُ فيهـا مُسْنِتـونَ عِجـافِ
بَسَطـوا إليـكَ الـراحتَيْـنِ كِـلاهمـا ... عنـدَ الشِتـاءِ ورحلـةِ الإيـلافِ

قال: فبلغ خبره إلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى قيصر ملك الروم، فكاتبوه وأرسلوا إليه أنهم يهدون له بناتهم رغبة في النور الذي في وجهه، وهو نور رسول الله ﷺ، لأن كهّانهم ورهبانهم أعلموهم بأن ذلك النور الذي في وجهه نور رسول الله. فأبى هاشم عن ذلك وتزوج من نساء قومه ورزق منهم أولاداً وكان أولاده: أسد ونضر وعروة، وأما البنات: فصفية ورقية وخالدة والشعثاء، فهذه جملة الإناث والذكور، ونور رسول الله لم يزل في وجهه فعظم ذلك عليه وكبر لديه فلما كان في بعض الليالي وقد طاف بالبيت

وسأل الله تعالى أن يرزقه ولداً فيه نور رسول الله ﷺ فأخذه النعاس فاضطجع فأتاه هاتف يقول له: عليك بسلمى بنت عمرو النجار، فإنها طاهرة مطهرة الأذيال، فخذها وادفع لها المال الجزيل، فلن تجد لها شبهاً في الناس فإنك ترزق سيداً يكون منه النبي ﷺ قال: فانتبه هاشم فأحضر بني عمه وأخاه المطلب، وأخبرهم بما رأى في منامه وبما قال الهاتف فقال أخوه المطلب: يابن أُمي إن هذه المرأة معروفة في قومها كبيرة في نفسها طاهرة مطهرة، وقد كملت قداً واعتدالاً وهي سلمى بنت عمرو النجار، وهم أهل الإنصاف والعفاف، وإنك أشرف منهم حسباً ونسباً وقد تطاولت إليك الملوك والأكاسرة

والجبابرة. فإن شئت نحن لك. فقال هاشم: الحاجة ما تقضى إلا بصاحبها، وقد جمعت فضلات وتجارات وأُريد أن أخرج بنفسي إلى غرة الشام، لأُخرج هذه التجارة بوصل هذه المرأة.

فقال له أصحابه وبنو عمه: نحن معك ونعينك ونفرح لفرحك ونسرّ لسرورك وننظر ما يكون من أمرك. قال: ثم إن هاشم أمرهم أن يتأهبوا للسفر. قال فخرج وخرجوا معه في سلاحهم وتيجانهم وملبوسهم، وخرج معه العبيد يقودون خيولهم والأحمال الأديم، ومعهم الدروع البيض والجواشن[1] وأخذوا معهم لواء نزار، وهم يومئذٍ أربعون سيداً من بني عبد مناف وعامر ومخزوم، وسار القوم حولهم. وكان خروجهم عن مكة كرهاً قال: فخرج وخرج معهم السادات والأكابر وفتيان الصفا، وخرج العبيد والنساء لتوديع هاشم بن عبد مناف وودعوه ورجعوا عنه. وسار هو وبنو عمه طالبين يثرب.

قال صاحب الحديث: ثم ساروا وسهل الله عليهم سفرهم حتى أشرفوا على يثرب، فلما أشرفوا عليها تهلل نور رسول الله ﷺ في غرة هاشم، حتى دخل المراقد والبيوت. قال: فلما رآهم أهل يثرب بادروا إليهم مسرعين وقالوا لهم من أنتم أيها الناس؟ فما رأينا أحسن منكم جمالاً، ولا سيما صاحب هذا النور الساطع والضياء اللامع! فقال لهم المطلب: نحن وفد بيت الله الحرام وسكان حرم الله ونحن بنو كعب بن لؤي بن غالب، وهذا أخي هاشم وقد خطبت إليه الملوك والأكابر فما رغبنا فيهم ورغبنا فيكم وفي نسائكم، ونريد أن ترشدونا إلى بيت عمرو بن أسد فأرشدوهم إليه فقال لهم: مرحباً بكم يا أرباب العلا والمآثر والشرف والمفاخر، سادات الكرام ومطعمي الطعام ونهاية الجود والإكرام، فلكم عندنا ما تحبون وأفضل ما تطلبون واعلموا أن المرأة التي خرجتم لأجلها وجئتم طالبين لها، هي ابنتي وقرّة عيني غير أنها مالكة نفسها، ومع ذلك خرجت بالأمس إلى سوق من أسواقنا مع نساء من قومنا، إلى سوق يقال له سوق بني قينقاع، فإن أقمتم عندنا فأنتم في الغاية والكفاية فمن الخاطب منكم والراغب فيها؟ فقالوا جميعاً: هو صاحب هذا النور الساطع والضياء

---

(١) الجواشن: الدروع.

اللامع، سراج بيت الله الحرام ومصباح الظلام، هو الموصوف بالجود والإكرام هاشم بن عبد مناف صاحب رحلة الإيلاف والراقي ذروة الأحقاف. ثم إن عمرو بن أسد قال: بخٍ بخٍ لقد علونا وعلا فخرنا بخطبتكم لنا! ثم قال: اعلموا يا من حضر أني رغبتُ فيِ هذا الرجل أكثر من رغبتكم، غير أن أمري غير أمرها وها أنا أسير معكم، فانزلوا يا خير زوار وأكرم بني نزار. وقد سبق عمرو إلى قومه ونحر لهم الإبل وصنع لهم الطعام، وأخرجت لهم العبيد الطعام بالأجفان، فأكل القوم بحسب الكفاية. ولم يبق أحد منهم من أهل يثرب إلا وخرج ينظر إلى هاشم وإلى نور وجهه، وخرج الأوس والخزرج والناس متعجبون من ذلك النور، وخرج اليهود فلما نظروه عرفوه بالصفات التي في التوراة والعلامات، قال: فعظم ذلك عليهم وكبر لديهم وبكوا بكاءً شديداً، فقال بعض اليهود وكان من أحبارهم: ما بكاؤكم؟ قالوا: من هذا الرجل، فإنه سيظهر من صلبه غلام يكون فيه سفك دمائكم، وقد جاءكم السفّاك الهتّاك الذي تقاتل معه الأملاك المعروف في كتبكم، أنواره قد ابتدرت وعلاماته قد ظهرت. قال: فبكى اليهود من هذا القول، ثم التفتوا إلى القائل لهذا الكلام فقالوا له: يا أبانا إن هذا الذي ذكرته فهل نصل إلى قتله ونكفى شره؟ فقال لهم: هيهات حيل بينكم وبين ما تشتهون وعجزتم عما تأملون، واعلموا أن هذا المولود الذي ذكرته لكم تقاتل معه الأملاك من الهوا ويخاطب من السما ويقول له جبرئيل عن رب العالمين أمره ونهيه، فقالوا: هذا يكون بمنزلة الولد! فقال: إنه أعز من الولد وأكرم أهل السماوات والأرض عند الله تعالى، وأشرف خلق الله. فقالوا له: أيها السيد الكريم نحن نسعى في إطفاء هذا المصباح من قبل أن يتمكن من كل مكروه قال: وأظهر القوم العداوة والبغضاء، وكان سبب عداوة اليهود لرسول الله من ذلك اليوم.

قال: فلما أصبح هاشم أمر أصحابه أن يلبسوا أفخر أثوابهم، وأن يظهروا زينتهم فلبسوا ما كان عندهم من الزينة وأظهروا التيجان والجواشن والدروع والبيض، وأقبلوا يريدون سوق قينقاع وقد شدوا لواء نزار، وأحاطوا بهاشم عن يمينه وشماله فتقدمت العبيد وأبو سلمى معهم، ومعهم رجال من كبار قومه وهم جماعة من اليهود، قال: فلما أشرفوا على سوق بني قينقاع ـ وكان يجتمع

إلبه الناس من أقصى البلاد وأقطارها وسكانها ـ فلما أشرف هاشم على السوق هو وأصحابه، وهو بينهم كالبدر المنير بين الكواكب، وعليه السكينة والوقار قال: فاندهش أهل السوق وجعلوا ينظرون إلى النور الذي بين عينيه قال: وكانت سلمى واقفة بين الناس تنظر إلى هاشم وإلى حسنه وجماله وما عليه من الهيبة والوقار، إذ أقبل إليها أبوها وقال لها يا سلمى أُبشّرك بما يسرّك! وكانت سلمى متعجبة من نفسها ثم قالت: فيم تبشّرني؟ قال أُبشّرك أن هذا الرجل لك خاطب وفيك راغب. هذا يا سلمى من أهل العفاف والمعروف بالجود والإنصاف هاشم بن عبد مناف، وإنه لم يخرج من الحرم لغيرك. قال: فلما سمعت كلام أبيها أعرضت بوجهها عنه، وأدركها الحياء من أبيها وقد أمسكت عن الكلام، ثم التفتت إليه وقالت: يا أبي إن النساء يفتخرن بالحسن والجمال والقد والاعتدال، وإذا كان زوج المرأة سيد من سادات العرب وكان مليح المنظر والمخبر، فما تقول المرأة، وقد علمت ما جرى بيني وبين أُحيحة بن الجلاح الأوسي وحيلتي عليه، وأنه قد خلعت منه نفسي، ثم إنه لم يتمكن من الكلام. وإن هذا الرجل قد كبرت عظمته ونور وجهه وعلت مروّته، وإن إحسانه يدل على فخره، إلا أنه لا بد لي أن أطلب عليه المهر وما أستحقه، ولا أُصغر حالي وسيكون لنا ولهم خطاب وجواب. وكان ذلك القول تجللاً وتجملاً لأبيها لأنها لم تصدق بذلك حتى سمعت من أبيها ذلك الكلام، ثم نزل هاشم قريباً من السوق واعتزل ناحية وأقبل أهل السوق مسرعين ينظرون إليه.

قال صاحب الحديث: قد بلغنا أنه قد ضاع من معاشهم شيء كثير، حتى اشتغلوا بالنظر إلى وجهه، قال فضرب له خيمة بالخز الأحمر، ونصب له سرادقان[1] فلمّا دخل هاشم وأصحابه الخيمة تفرق أهل السوق عنه، وجعل أهل السوق يسألون عن هاشم وأمره وما قدومه عليهم من مكة؟ فقيل لهم جاءوا خطاباً لسلمى بنت عمرو! قال: فحسدوها عليه، وكانت أجمل أهل زمانها وأحسنهم وأكملهم، وكانت سلمى جارية تامة معتدلة، وكان لها منظر ومخبر،

---

(١) السرادق: الفسطاط الذي يمدّ فوق صحن البيت.

كاملة الأوصاف ناعمة الأطراف، سريعة الجواب حسنة الأواب، عاقلة عفيفة تقية طاهرة مطهرة من الدنس. قال: فحسدوها على هاشم، حتى إبليس اللعين قد تصور لها في صورة شيخ كبير فقال لها: يا سلمى أنا من أصحاب هاشم وقد جئتك أُخبرك، وهي نصيحة مني إليك! اعلمي أن لصاحبنا من الحسن والجمال كما رأيت، غير أنه ملول للنساء، ولا تقيم المرأة عنده أكثر من شهرين إذا كثر، وإلا عشرة أيام. وقد تزوج بنساء كثيرة. وبعد ذلك جبان في الحروب! فقالت سلمى: إليك عني فوالله لو ملأ لي حوضاً من المال ما قبلته، وقد كنت أحببته ورغبت فيه، ولقد زالت رغبتي فيه لما ذكرت من هذه الخصال، فاذهب عني وانصرف. قال: فانصرف عنها وتركها في همّها وغمّها، ثم إن إبليس اللعين تصور في صورة رجل آخر، وزعم أنه من أصحاب هاشم، وقال لها مثلما قال أولاً فقالت: أوليس أرسلت إليه أنه لا يرسل لي بعد ذلك؟ والله إن بعث أبي رسولاً أمرت بضرب عنقه. قال فخرج إبليس لعنه الله من عندها فرحاً مسروراً، وقد صح عنده البغضاء لهاشم، وظن أن هاشم يرجع خائباً. قال: فدخل عليها أبوها فوجدها في حيرتها وسكرتها، فقال لها: يا سلمى ما الذي حلّ بك واليوم يوم سرورك وفرحك؟ قالت: يا أبت لا تزدني همّاً فقد فضحتني وشهرت أمري، وأردت تزويجي برجل ملول للنساء كثير الطلاق جبان في الحروب! قال: فضحك أبوها وقال: يا سلمى والله ما لهذا الرجل من هذه الخصال شيء، وإنه إلى كرمه الغاية وإلى جوده النهاية، وإنما سمي هاشم لأنه هشم الثريد لقومه. وأما قولك: مطلاق، فإنه ما طلق امرأة بعينها. وأما قولك: جبان في الحروب، فإنه أجود أهل زمانه في الشجاعة وإنه معروف عند الناس بالجواب والخطاب والصواب! فقالت: يا أبت فلو كانت هذه خصاله فلم جاءني منه رسولان، وأخبراني كل واحد منهما بهذا الكلام؟ فقال أبوها: ما جاءنا رسول ولا خبر فاصرفي عنك الوسواس. ثم خرج من عندها وتركها في همّها، وقد صح عندها قول الشيطان وأخذ بعقلها، ،الشيطان بذلك الزمان يحضر ويأخذ عقول الناس، ويأمرهم وينهاهم وكانوا يطيعونه، وهاشم لا يعلم بذلك، وكان قد عوّل على خطبتها غداة غد في جمع من قومه. وإنها سارت في حوائجها وهي تريد أن تنظر إلى هاشم، قال: فجمع الله بينها وبينه في طريق واحد، وكانت في ذلك

الزمان النساء لا يستحين من الرجال، ولا كان يضرب حجاب إلى أن بعث رسول الله ﷺ.

قال: وكانت طائفة من اليهود بناحية من الخيمة ـ خيمة هاشم ـ فلما اجتمعت سلمى بهاشم، عرفته بالنور الساطع والضياء اللامع وعرفها كذلك ثم قالت: يا هاشم قد أحببتك وأردتك فإذا كان في غداة غد فاخطبني من أبي، ولا يعزّ عليك المال فإن طلبوا منك مالاً ساعدتك عليه. فلما أصبح الصباح تأهب هاشم للقاء القوم فتزينوا بزينتهم، وأومى إلى أخيه المطلب أن اخطبها، فإذا تكامل أهل سلمى انبأ عليهم بالكلام. قال: فعند ذلك تكامل أهل سلمى ودخل هاشم وأصحابه، فعند ذلك قام من في المجلس وجلس هاشم وأصحابه في صدرالمجلس، وتطاول القوم إلى هاشم بالأعناق فابتدأ هاشم بالكلام، وساعده أخوه المطلب وقال: يا أهل الشرف والإكرام والإنعام نحن أهل البيت الحرام والمشاعر العظام وزمزم والمقام، وإلينا سعت الأقدام وإلينا يورد الواردون، وأنتم تعلمون شرفنا وما خصّنا الله به من النور الساطع والضياء اللامع، ونحن من لؤي ابن غالب بن كعب، وقد انتقل النور من عبد مناف إلى أخينا هاشم، يجري من ظهور طاهرات إلى بطون مطهرات، وقد ساقه الله إليكم وأقدمه عليكم فنحن لكريمتكم خاطبون وفيكم راغبون. فقال عمرو أبو سلمى: لكم التحية والإكرام والإجابة والإنعام، وقد أُعطيتم وأجبنا دعوتكم وأطعنا وسيلتكم، وأنتم تعلمون علمنا ولا تخفى عليكم أحوالنا، ولا بد من تقديم المهر كما سلف لآبائنا الماضين وأجدادنا الأقدمين، وكذلك آبائكم، ولولا ذلك ما واجهناكم بشيء ولا قابلناكم به أبداً. قال: فعند ذلك تقدم وتكلم المطلب وقال: لكم عندي مائتا ناقة حمر الوبر سود الحدق لم يعلها فحل ولا جمل!.

قال: فبكى إبليس لأنه من جملة من حضر، وجلس مقابل أبي سلمى فأشار إليه أن اطلب الزيادة. فقال عمرو النجار: يا معاشر السادات! ما هذا قدر ابنتنا عندكم! فقال المطلب: ولكم ألف مثقال من الذهب الأحمر! قال: فغمز إبليس بحاجبيه لعمرو أبي سلمى، وأشار إليه أن اطلب الزيادة. فقال: يا فتى

قصَّرت في حقّنا، وأقللت فيما بذلت! فقال: ولكم عندي حمل بعير وعشرة أثواب من قباطيّ مصر وعشرة من العراق فقد أنصفتكم! قال: فغمز إبليس لعمرو أبي سلمى وأشار إليه أن اطلب الزيادة! فقال أبوها: يا فتى أقربت وأجملت. فقال المطلب: نعمة وكرامة. قال المطلب: ولكم خمس وصائف برسم الخدمة، فهل تريد أكثر من ذلك؟ قال: فأشار إليه إبليس أن اطلب الزيادة، فقال عمرو: إن الذي بذلتموه هو إليكم راجع. فقال المطلب: ولكم عشر أوراق من المسك الأذفر وخمس أوراق من الكافور، فهل رضيتم أم لا؟ فهمَّ إبليس أن يغمز لأبي سلمى، فصاح عليه صيحة عظيمة وقال: قم واخرج يا قبيح المنظر وشيخ السوء! فعند ذلك قام إبليس خارجاً واليهود معه، فقال إبليس: يا عمرو إن المهر الذي اشترطته في مهر ابنتك قليل، وإنما أردت أن أطلب لابنتك من القوم ما تفتخر به على أهل زمانها، ولقد هممت أن أشترط عليهم أن يبني لها قصراً، طوله خمسة فراسخ وعرضه مثل ذلك، ويكون شاهقاً في الهواء باسقاً في السماء، ويكون في أعلاه مجلس تنظر منه إلى إيوان كسرى، وتنظر إلى المراكب منحدرات في البحر، ثم يجلب إليه نهر من الدجلة ومن الفرات، عرضه مائة ذراع تجري فيه المراكب منحدرات ومصعدات، ثم يغرس على باب القصر نخلات معتدلات مسطرات[1]، لا ينقطع ثمرها في قيظ ولا شتاء! فقال المطلب حين سمع كلامه: لقد أسرفت يا شيخ في مقالك! فمن يقدر أن يصل إلى ذلك؟ ثم صاح عليه عمرو والمطلب وأخذته الصيحة من كل جانب ومكان، وكان مراد إبليس اللعين انفساخ المجلس. ثم قال ارمون بن يقطون: إن هذا الشيخ أحكم الحكماء وواحد البلغاء وهو معروف عندنا في بلاد العراق والشام، وبعد ذلك ما نزوج ابنتنا بغريب في غير بلادنا! ثم قامت اليهود بأجمعهم وكانوا أربعمائة يهودي، وكان أهل الحرم سبعين سيداً فجردوا سيوفهم، ثم قال لأصحابه دونكم القوم فهذا تأويل رؤياي. قال فوقعت فيهم الصيحة فوثب المطلب على ارمون بن يقطون، ووثب هاشم على إبليس فعطف يريد الهرب، فأدركه هاشم وقبض على جميع أطرافه وجلد به الأرض جلدة،

---

(١) مسطرات: مصفوفات.

فصاح صيحة عظيمة لما غشيه نور رسول الله ﷺ فصار ريحاً. قال فالتفت هاشم إلى أخيه المطلب وإذا هو قد قتل يرمون بن يقطون، وقد قسمه نصفين، وهاشم وأصحابه قد قتلوا من اليهود خلقاً كثيراً، ووقعت الرجفة في المدينة وخرجت الرجال والنساء، فانهزمت اليهود على وجوههم ورجع أبو سلمى وقال: مزجتم الفرح بالترح وما كان سبب الفتنة إلا إبليس اللعين. قال: فرفعوا السيف عن اليهود، وذلك بعد أن قتلوا منهم اثنين وسبعين رجلاً. وكانت عداوة اليهود لرسول الله من ذلك اليوم. ثم إن هاشماً قال لأصحابه: هذا تأويل رؤياي.

ثم إن اليهود افتقدوا حبرهم فلم يجدوه فقال لهم هاشم: يا معشر اليهود إنما أغواكم الشيطان الرجيم، فانظروا إلى صاحبكم فإن وجدتموه فهو كما زعمتم أنه من حكمائكم، وإن لم تجدوه فهو ليس كما زعمتم، وقد ظننتم أنه من أحباركم فقد أغواكم. قال: ثم إن أبا سلمى مضى لابنته لإصلاح شأنها، فلم يبق أحد من أصحابه إلا وقد حضروا ورجعوا إلى أماكنهم، وحطّوا أسلحتهم وقد امتلأوا غيظاً على اليهود، قال فجلس هاشم ومن حوله أصحابه، ومضى عمرو إلى منزله وأصلح الوليمة والكرامة، وأمر العبيد يحملون الأجفان المترعة باللبن ولحم الضأن والإبل والسمن، ثم إن عمراً مضى إلى ابنته سلمى وقال لها: إن الرجل الذي بلّغك أن هاشماً جبان قد نطق بالمحال، وأيم الله لولا أمسكني وأعطفني عليه وعلى أصحابه ما ترك من القوم أحداً. قالت سلمى: يا أبت افصل المهر على كل حال يكون، ولا تطل الملامة. قال: فلما أكل هاشم الطعام ومعه أصحابه وفرغوا من الأكل أقبل عليهم عمرو أبو سلمى وقال: يا معاشر السادات الكرام اصرفوا عن قلوبكم الهمّ والغمّ والحزن، ونحن لكم وابنتنا هدية منّا إليكم! فقال له المطلب: أيّها السيد الكريم لك بها ما ذكرناه وزيادة! ثم قال لأخيه هاشم: رضيت بما تكلمت به عليك؟ فقال هاشم: رضيت بذلك وهو عندي يسير! قال فعند ذلك تصافحوا ومضى أبو سلمى إلى منزله وأقبل وفي يده دراهم ودنانير، فنثر الدراهم والدنانير على رأس هاشم، ونثر الدراهم على رؤوس أصحابه ثم نثر عليهم سحيق المسك الأذفر والكافور والعنبر، فعمم أطمارهم. ثم قال أبو سلمى: يا هاشم أتحب الدخول على

زوجتك هذه الليلة، أو تصبر عنها هذه الليلة حتى يصلح شأنها؟ فقال هاشم: بل أصبر لا بأس بالصبر. فعند ذلك هيأوا مطاياهم وأمر بتقديمها فركبوها وتهيأوا للخروج.

ثم إن هاشماً دفع إلى أخيه المطلب ما حضره من الدراهم، وأمره أن يدفعها إلى سلمى فلما أوصلها إليها المطلب فرحت بذلك الأمر، قال: فدفع إليها المال فقبلته منه، وقالت: يا سيد الحرم وخير من سعى على قدم أقرىء أخاك السلام وقل له: ما الرغبة إلا فيك، فاحفظ منا ما حفظناه منك، وقل له مثلما أقول لك. فقال لها: قولي ما بدا لك. فقالت: إني امرأة كان لي زوج اسمه أُحيحة بن الجلاح الأوسي وكان كثير المال، فلما تزوج بي شرطت عليه أنه متى أساء فارقته. كان من قصتي أني رزقت منه ولداً فأردت أن أُفارقه، فأخذت خيطاً وربطت فيه رجل الطفل، فجعل يبكي تلك الليلة وجعلنا نساهره، حتى مضى من الليل ثلثه أو نصفه فقطعت الخيط من رجل الطفل فنام عند ذلك هو وأبوه، فخرجت إلى أهلي. فلما انتبه الرجل لم يجدني فعلم أنها مني حيلة. وأنا قد عرّفتك بهذا الحديث لتوصي بذلك أخاك، لكي لا يخفى عليه شيء من أمري، ولا يشتغل عني ببعض نسائه.

فعند ذلك قال المطلب: اعلمي أن أخي تطاولت إليه الملوك في خطبته ورغبوا في تزويجه، فأبى حتى أتاه هاتف في منامه فأخبره بخبرك، فرغب فيك وأراد أن يستودعك الذي استُودِعه من الأنبياء. فأسأل الله أن يتم لك السرور ويقيك شرّ كل محذور.

ثم إنه خرج من عندها وهي تشتغل بشأنها ومعها نساء من قومها فمضى، المطلب إلى أخيه وأخبره بما قالت سلمى، فضحك هاشم من ذلك الكلام ثم قال له: قد بلغت الرسالة.

ثم إن هاشماً أقام أياماً ودخل على زوجته سلمى في مدينة يثرب، وحضر عرسها الحاضر والبادي[1] من جميع الجهات، ودخل هاشم فرأى ما يسره من

---

(١) الحاضر: ساكن الحضر (المدن). والبادي: ساكن البادية.

الحسن والجمال والهيبة والوقار. ثم إن سلمى دفعت إليه جميع مالها الذي عندها، وزادته أضعاف ما دفع إليها، فلما واقعها حملت منه في ليلتها بعبد المطلب جد رسول الله ﷺ.

فهذا حديث تزويج سلمى بنت عمرو النجار وما جرى في تزويجها من الأحاديث والعجائب والغرائب.

قال الراوي: وتم معها أيام عرسها في خير وافر وعز شامل، وأهل يثرب كل يوم يعملون الولائم ويطعمون الناس إكراماً لهاشم وأصحابه، وسلمى قد زادها النور حسناً وجمالاً على حسنها، وهم يهنّئونها على ذلك الشرف العالي الذي خصها الله به وخص قومها.

وفيها تحدثت الكهان والأحبار عن صفة رسول الله ﷺ وأن سيكون الخير الكامل والعز الشامل، بفضل رسول الله، وما يكون من ولد هاشم وما يتم له من القتال مع اليهود، وسلمى وقومها يقتلون اليهود ويرجعون اليهود بالذلة والانكسار. وقال ولم يقم عندها هاشم إلا أياماً قلائل وسافر إلى غرة الشام ومات بها رحمة الله عليه. والحمد لله رب العالمين.

الجزء الثاني:

ولادة جدّ الرسول
وخروجه مع عمه المطلب إلى مكة

قال: حدثنا أشياخنا وأسلافنا الرواة لهذا الحديث: لما تزوج هاشم بن عبد مناف بسلمى بنت عمرو النجار، وانتقل النور الذي كان معه في وجه سلمى، وزادها حسناً وجمالاً وبهاءً وكمالاً وقداً واعتدالاً، حتى كان الناس يتعجبون من حسنها وجمالها وشاع في جميع الآفاق، وكانت إذا مشت يهنئها الشجر والمدر والحجر بالتحية والإكرام، وتسمع قائلاً يقول: السلام عليك يا سلمى السلام عليك يا خيرة النسوان. ولم تزل تحدث الناس حتى حضر هاشم، وكانت تكتم أمرها عن قومها، حتى إذا كانت ليلة من الليالي سمعت قائلاً يقول:

لكِ البُشرى يا سلمى بأكرمِ مَنْ مشى وخيرِ النـاسِ مِـنْ حضـرٍ وبـادي

قال: فلما سمعت بذلك قالت: لن أدع هاشماً يلامسني ولا يقاربني بعد هذا اليوم. ثم إن هاشماً أقام في المدينة أياماً حتى اشتد حمل سلمى، وخرج إلى غرة الشام وقام يوصي أزواجه وقال: يا سلمى إني أُودعك الوديعة التي أودعها الله تعالى آدم، ثم أودعها آدم شيث ثم أودعها شيث ولده من بعده، ولم يزالوا يتوارثونها من واحد بعد واحد، إلى أن وصلت إلينا، وقد شرفنا الله بهذا النور وقد أودعه لك، وأنا آخذ عليك العهد والميثاق بأن توقيه وتحفظيه، وإن أنت أتيت به وأنا غائب، فليكن عندي بمنزلة الحدقة من العين والروح بين الجنبين، وإن قدرت على أن لا تراه العيون فافعلي، فإن له حسّاد ورصّاد،

وأشد الناس عليه عداوة اليهود، وقد رأيت ما جرى بيننا وبينهم بالأمس يوم خطبتك، وإن لم أرجع من سفري هذا فليكن عندك مكرماً محفوظاً إلى أن يترعرع، واحمليه إلى الحرم دار عزّه ونصره. ثم قال: سمعتِ وحفظتِ ما قلت لك؟ قالت: نعم سمعت وحفظت غير أنك أوجعت قلبي بكلامك، وأسأل الله العظيم أن يردّك سالماً. ثم خرج إلى أصحابه وأخيه المطلب، وأقبل إليه وقال: يابن أبي وعشيرتي من بني لؤي اعلموا أن الموت سبيل لا بدّ منه، وأنا راحل عنكم ولا أدري أرجع أم لا، وأنا أوصيكم بالاجتماع وإياكم والتفرق والشتات فتذهب حميَّتكم[1]، وتهان مقدرتكم عند الملوك ويطمع فيكم الطامع، وهذا أخي المطلب أعز إخوتي من أمي وأبي، وأعز الخلق عليّ فإن سمعتم نصيحتي فقدِّموه، وسلموا إليه مفاتيح الكعبة وسقاية الحاج ولواء نزار ونعل شيث وقميص إبراهيم وقوس إسماعيل وخاتم نوح والوفادة والرفادة، وكل ما كان من مكارم الأنبياء وكل ما كان لعبد مناف. فإذا فعلتم ذلك سعدتم وإني موصيكم بولدي الذي اشتملت عليه سلمى بنت عمرو، إنه يكون له شأن عظيم فلا تخالفوا قولي. قالوا: سمعنا وأطعنا غير أنك كسرت قلوبنا بوصيتك وأزعجت فؤادنا بقولك هذا.

ثم إن هاشماً سافر إلى غرة الشام بالتجارة، وحضر موسمها فباعها جميعاً ولم يبق من بضاعته شيء، واشترى ما يصلح له واشترى لسلمى طرفاً وتحفاً.

ثم إنه تجهز للسفر فلما كان في الليلة، التي عزم فيها على السفر والرجوع إلى وطنه، طرقته العلة والفجعة وجاءته السرعة وحوادث الزمان، فأصبح مثقلاً فارتحلت القافلة، وبقي هاشم وحده مع عبيده وغلمانه وأصحابه، فقال لهم: الحقوا برفقتكم فإني هالك لا محالة، ارجعوا إلى مكة وإن مررتم بيثرب فأقرئوا زوجتي مني السلام، وأخبروها بخبري وعزّوها بشخصي، ووصّوها بولدي فهو أكبر همّي، ولولاه ما نلت أمري. قال فبكى القوم بكاءً شديداً وقالوا: ما نبرح من عندك حتى ننظر ما يكون من أمرك! ثم أقاموا تلك الليلة فلما أصبح الصباح

---

(١) السميدع: السيّد الكريم والشريف الشجاع. ثوى: مات. الصحاصح: مفردها الصحصح: ما استوى من الأرض وكان أجرد. الجنادل: الصخور العظيمة.

على هاشم، ترادف عليه الأمر واشتد عليه القلق فقالوا له: كيف تجد نفسك؟ فقال: لا مقام لكم عندي أكثر من يومي هذا، وغداً توسدوني التراب. قال: فبكى القوم وعلموا أنه مفارق الدنيا ولم يزالوا يساهرونه إلى الفجر، ثم قال لهم: أقعدوني وائتوني بدواة وقرطاس. ثم إنهم أتوه بما طلب وجعل يكتب وأصابعه ترتعد وهو يقول: باسمك اللهمّ هذا كتاب كتبه عبد ذليل، وقد جاءه أمر مولاه بالرحيل، أما بعد: فإني قد كتبت لكم هذا الكتاب وروحي من الموت تجذب وما أجد من الموت مهرباً. وإني نفذت إليكم جميع أموالي وضيعتي، يا إخواني تقاسموها بينكم بالسوية ولا تنسوا البعيدة الغائبة التي أخذت جمالكم واحتوت على عزكم وجمالكم، سلمى بنت عمرو فلا تنسوها، وأوصيكم بولدي الذي منها وقولوا لخالدة وصفية ورقية وباقي النساء يبكين بالفجيعة ويندبنني ندب الثكلى، وبلّغوا سلمى عني أفضل السلام، وقولوا لها آه ثم آه، إني لم أشبع من قربها ولا من النظر إليها ولا إلى ولدي، والسلام عليكم إلى يوم النشور. ثم طوى الكتاب وختمه بخاتمه ودفعه إلى بعض أصحابه، ثم قال: أضجعوني فأضجعوه فشخص ببصره نحو السماء، ثم قال: رفقاً بي أيها الرسول بما حملت من نور المصطفى، فكأنما كان مصباحاً فانطفى. ثم مات رحمه الله فعند ذلك جهزوه ودفنوه وقبره معروف. قال: ثم عطف عبيده وغلمانه على رحله ومتاعه وأمواله:

اليومَ هاشمٌ قدْ مضى لسبيلهِ ... يا عينُ فابكي الجودَ بالعَبَراتِ
إنّ ابنَ كعبٍ قد مضى لسبيلهِ ... يا عينُ فإبكي الجودَ بالعَبَراتِ
وابْكي على البدرِ المنيرِ بحُرْقةٍ ... وابكي على الضِرْغامِ طولَ حياتي
صعبُ الكريهةِ لا بهِ ألمٌ ولا ... فَشَلٌ غداةَ الروْعِ والكُرُباتِ
يا عينُ ابكي غَيْثَ جودٍ هاطلٍ ... أعني به ابن عبدِ مَنافٍ والخيراتِ
وابكي لأكرمِ مَنْ مشى فوقَ الثَّرى ... فلأجلِه قد أذرفت زفراتِ

قال: وسار القوم حتى قاموا إلى يثرب، فلما قربوا منها بكوا ونادوا: واهاشماه واعزاه فخرجت النساء إليهم مع سلمى وأبيها وقومها، ونظروا إلى مطايا هاشم وقد جزوا نواصيها، وكل مطية من مطايا هاشم عليها شيء من ثياب

هاشم. قال: فلما سمعت سلمى بموت هاشم، شقت جيبها ولطمت خدها ونادت: واهاشماه مات والله من بعدك الكرم والعز! من لولدك الذي لم تره عيناك؟. قال: فضجّت النساء بالبكاء والنحيب، ثم إن سلمى أخذت سيفاً من سيوف هاشم، وعطفت على ركائب هاشم فعقرتها وحسبت ثمنها على نفسها وقالت: أقرئوا المطلب مني السلام وقولوا له: إني على عهد أخيه وإن الرجال حرام عليّ بعده، قال: ثم سار عبيده وغلمانه إلى مكة، وكان قد سبقهم الناعي إلى المطلب وأولاده، فأقبل أهل مكة بالبكاء والنحيب والضجيج والنوح والعويل، وخرجت سادات بني المطلب لابسين السواد ونساؤهم كذلك، فأقبلت خالدة تلومهم حيث لم يحملوه إلى الحرم وجعلت تقول:

يا أيّها الناعون أكرمَ من نشا ... الفاضلَ ابنَ الفاضلِ ابنِ الفاضلِ
أسد الشّرى لا زالَ يحمي أهلَه ... من ظالمٍ أو معتدٍ بالباطلِ
ماضي العزيمةِ أروعُ ذو هِمّةٍ ... عُلْيا وجودٍ كالسحابِ الهاطلِ
زينُ العشيرةِ كلِّها وعمادُها ... عندَ الهزاهِزِ طاعِناً بالذابلِ
إنّ السميدَعَ قد ثَوى في بلدةٍ ... بالشامِ بينَ صحاصِحٍ وجنادِلِ[1]

فلما فرغت من شعرها أقبلت إليهم ابنته الشعثاء وقالت: بئس العشيرة ضيّعوا سيدهم وسلّموا عمادهم! أما كان هاشم عليكم شفيقاً؟ إذا نزل به الموت فلِمَ لم تحملوه إلى بلده وعشيرته لنشاهده؟ وبكت وقالت:

يا عينُ جودي وسِحّي دمعك الهطِلا ... على الكريمِ ثوى بالشامِ ثم خَلا
زينُ الورى ابنُ مَنْ ألقى به كرماً ... ولم يرى في يديْه مذْ نشا بُخْلا

فلما فرغت من شعرها تقدمت ابنته طليقة وجعلت تقول:

يا أيُها الركبُ الذي تركتموا ... كريمَكُم بالشامِ رهنَ مقامِ
ألم تعْلموا ما قَدْرُه ومقامُهُ ... ألا إنكم أولى الورى بملامِ
فيا عَبْرتي لا تملّي فقد مضى ... أخو الجودِ والانصافِ تحتَ رخامِ

فلما فرغت من شعرها تقدمت ابنته رقية وكانت آخر من بكى قالت:

---

(١) الحميّة: الأنفة والإباء والمروءة والنخوة.

يـا عيـنُ جـودي بـالبُكـا والعـويـلِ لأخـي الفضـلِ والسّخـاءِ الجليـلِ
طيـبِ الأصـل فـي العـزيمـةِ مـاضٍ سمهـريٍّ فـي النـائبـاتِ أصيـلِ

قال: فبكى القوم لذلك وفكوا كتابه وقرأُوه، فلما رأوا ما فيه جددوا أحزانهم وبكاءهم، ثم قدموا أخاه المطلب وسيَّدوه وقال: إن أخي عبد شمس أكبر مني سناً، وأحق مني بهذا المكان! فقال عبد شمس: وأيم الله إنك لخليفة أخي هاشم! قال فرضي أهل مكة بذلك، وسلموا إليه مفاتيح الكعبة والسقاية والوفادة والرفادة، ولواء نزار وقوس إسماعيل وقميص إبراهيم وخاتم نوح ونعل شيث، وكان في أيديهم من مكارم الأنبياء. قال صاحب الحديث ثم إن سلمى اشتد بها أيام حملها وجاءها المخاض وهي لا تجد وجعاً ولا ألماً إذ سمعت هاتفاً وهو يقول:

يـا زينـةَ النِسـا مـن بنـي النجـارِ بـالله اسْـدُلـي عليـهِ بـالأستـارِ
واحجُبيـه عـن أعيـنِ النُظّـار لتسعـدي مـن جُملـةِ الأقطـارِ

قال: فلما سمعت بذلك أغلقت الباب عليها وكتمت أمرها، فبينما هي تعالج ما هي فيه، إذ نظرت حجاباً من نور قد ضرب من حولها من الأرض إلى عنان السماء، وحبس الله عنها الشيطان الرجيم، فولدت يومئذٍ شيبة، فقامت من وقتها وساعتها وتولت نفسها، فلما ولد سطع من غرته نور شعشعاني، وكان ذلك النور نور رسول الله والطفل قد ضحك وتبسم، قال: فتعجبت منه أُمه ثم نظرت إليه، وإذ في رأسه شعرة بيضاء فقالت: نعم أنت شيبة كما سميت صغيراً. ثم إن سلمى أدرجته في ثوب من صوف، ولم يعلم به أحد من قومها حتى مضت له أيام، وصارت تلاعبه ويضحك لها. قال: فلما كمل له شهر علم الناس فأقبلت إليها القوابل فوجدنه يلاعب إبهامه. قال: فلما صار له شهران مشى. ولم يكن على اليهود أشد منه عداوة، وكانوا إذا نظروا إليه امتلأوا غيظاً وحنقاً وكمداً، كما يعلمون ما يظهر من خراب ديارهم وقلع آثارهم. وكانت سلمى إذا ركبت ركب معها أبطال الأوس والخزرج، وكانت مطاعة فيهم. وكان إذا طلع يلعب مع الأولاد تحبه الناس دون أولادهم، وكانت أمه لا تأمن عليه أحداً. فلما تم له سبع سنين اشتد حيله وقوي بأسه وتبين للناس فضله، وكان

يحمل الشيء الثقيل ويصرع به الصبي فشكى الناس إلى أمه ما يفعل بأولادهم.

قال الراوي: وبلغنا أن رجلاً من بني الحارث دخل إلى يثرب وهو في حاجة، فإذا بابن هاشم يلعب مع الصبيان وقد عم نوره البلاد، فوقف الرجل وهو ينتدب بين الأولاد ويقول: أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن هاشم وكفى! قال: فناداه الرجل وقال: يا فتى! فقال: ما تريد يا عمّ؟ فقال: ما اسمك؟ فقال: شيبة بن هاشم بن عبد مناف، وقد مات أبي وجفاني عمومتي ونسيني أهلي، وبقيت عند أُمي وأخوالي، فمن أين أقبلت يا عمّ؟ قال: من مكة. فقال: وهل أنت ستحمل لي برسالة ومتقلد إلي أمانة؟ فقال الحارث: وحقّ أبيك وأبي أفعل ما أمرتني به! ثم قال: يا عمّ إذا رجعت إلى بلدك سالماً ورأيت بني عبد مناف، فأقرئهم عني السلام وقل لهم: إن معي رسالة من يتيم قد مات أبوه وجفاه أعمامه، ثم قل: يا بني عبد مناف ما أسرع ما نسيتم وصية هاشم وضيّعتم نسله، وإذا هبت الريح تحمل ريحكم إليه. قال فبكى الرجل واستوى على ظهر راحلته وأرسل زمامها حتى قدم مكة، فلم يكن له همة إلا رسالة الغلام. ثم أتى إلى مجلس بني عبد مناف، فوجدهم جلوساً فأنعمهم صباحاً، وقال: يا بني عبد مناف أراكم قد غفلتم عن عزّكم وتركتم مصباحكم يستضيء به غيركم! فقالوا: ما سبب ذلك؟ فأخبرهم بوصية الغلام ابن أخيهم، فقالوا: ما شاهدناه أنه صار إلى هذا الأمر! فقال لهم الحارث: والله إنه ليعجز عنه الفصحاء لفصاحته، ويعجز عنه اللبيب لكلامه وعن خطابه، وإنه لفصيح قوي الجنان فائق على الغلمان أديب إلى عقله الكفاية وإلى جوده النهاية. قال: فلما سمع المطلب ذلك جعل يقول شعراً (صلوا علي النبي وآله):

أقسمْتُ بالسّلَفِ الماضينَ من مُضَرٍ ... وهاشِمِ المعروفِ في الأُممِ
لأمضِيَنَّ إليه الآن مجتهِداً ... وأقطعَنَّ إليه البيدَ في الظُّلَمِ
السيدِ الماجدِ المشهورِ من مُضَرٍ ... نورِ الأنامِ وأهلِ البيْتِ والحَرَمِ

قال: وكان المطلب أشد أهل زمانه بأساً وأعظمهم مراساً، فقال له إخوته: نخشى عليك أن تعلم به أُمه سلمى، ولا تدعه يخرج معك لأنها شرطت على أخيك بذلك فقال: يا قوم إن لي في ذلك أمراً دبّره العزيز الحكيم، ثم إنه

تأهب للخروج وأفرغ عليه لأمة حربه، وركب مطيّته وأرخى زمامها إلى أن وصل يثرب، وأخفى نفسه أن لا يشعر به أحد فتخبر سلمى عنه، قال: ولم يزل يترصد فوجد شيبة يلعب مع الصبيان، فعرفه بالنور الساطع والضياء اللامع الذي أودعه الله فيه، وقد رفع صخرة عظيمة وقال: أنا ابن هاشم المعروف بالعطايا! قال: فلما سمع كلامه أناخ مطيته ونادى: أُدن مني يابن أخي. فأسرع إليه شيبة وقال له: من أنت يا هذا، فقد مال قلبي إليك وأظنك من بعض عمومتي؟ فقال له: أنا عمّك المطلب فأسبل عبرته وجعل يقبله وقال: يابن أخي أتحب أن تمضي معي إلى بلاد أبيك وأعمامك، وتكون في دار عزّك؟ فقال: نعم ولكن أسرع بنا بالمسير، فإنّا نخشى أن يعلموا بنا أُمي وعشيرتها فيلحقوا بنا ويأخذوني منك. ألم تعلم أنه يركب لركوبها أبطال الأوس والخزرج؟ فقال: يابن أخي في الله الكفاية من كل رزية[1]. ثم ساروا وركبوا الجادة الكبرى، فأدركهم المساء بذي الحليفة فنزلوا، وأوردوا مطاياهم. ثم إن المطلب استوى على ظهر ناقته وأردف ابن أخيه قدامه، وجرد سيفه. قال: فبينما هم كذلك إذ سمعوا صهيل الخيل، وزعقات الرجال وقعقعة اللجم، وهمهمة الأبطال في جوف الليل فقال المطلب: يابن أخي دهمنا ورب الكعبة فما نصنع؟ فقال شيبة: فما قلت لك يا عم إن القوم يلحقون بنا؟ فاخرج بنا غير الجادة إلى الطريق السفلى. فقال المطلب: فكيف يخفى أمرنا ونورك يدل علينا؟ فقال: يا عم استر وجهي. قال: فأخذ المطلب ثوباً فطواه ثلاث طويات، وستر به وجهه، وإذا بالنور يسطع كما كان أول فقال المطلب: يابن أخي إن لك شأناً عظيماً، وإن الذي أعطاك هذا النور يقدر أن يصرف عنا كل محذور. قال: فبينما هم يتخاطبون في الكلام، إذ أدركتهما الخيل وإذا هي خيل اليهود فلما رأوا شيبة علموا أنه سيخرج من صلبه من يسومهم سوء العذاب، ويكون هلاكهم على يده. وكان قد بلغهم أن شيبة خرج مع عمه، فأدركهم الطمع في قتله.

قال: فخرجوا في طلبه يقدمهم سيد من ساداتهم يقال له دحية اليهودي، وسبب ذلك أنه كان له ولد يلعب مع الصبيان، فأخذ شيبة عظم بعير وضربه به

---

(١) الرزيّة: المصيبة.

فوق رأسه، وشجه شجة عظيمة وقال: يابن اليهود قد قربت آجالكم ودنا قلع آثاركم يابن دحية! قال: فامتلأ غيظاً وحنقاً. فلما علم بأن شيبة خرج مع عمه ولا لهما ثالث، صاح على اليهود ونادى: يا معاشر اليهود هذا الذي تخشونه قد خرج مع عمه، فأسرعوا إليه نقتله ونصرف عنا شره. قال: فخرجوا إليه مسرعين وكانوا سبعين فارساً، فقوّموا له الأسنّة وأطلقوا الأعنّة، ولحقوا بشيبة وعمه. ثم إن شيبة قال لعمه: يا عم إن اليهود لحقوا بنا وهم أشد عداوة لنا وما جاءوا إلا في طلبي! فقال له: يا بن أخي لا تخف فوحق الكعبة الكبرى لا يصلون إليك بمكروه أبداً. فقال: يا عم أنزلني حتى أُريك قدرة الله تعالى! قال: فنزّله عمه ولمّا وصل إلى الأرض قصده القوم فجثا على الأرض، وجعل يمرغ خده في الأرض ويقول: اللهمَّ رب الظلام العابر والفلك الدائر والبحر الزاخر، يا رب السبع الطباق ويا مسخر الرياح ويا مقسم الأرزاق، بحق الشفيع المشفع والنور المستودع أن ترد عنا كيد أعدائنا يا رب الأرض والسماء. قال فما استتم كلامه حتى هجمت عليه الخيل، فما وصلت إليه وبقيت الخيل في وجل لا تقدر على المسير إليهما، فاستجاب الله دعاءه قال: فناداه لاطية بن داحود اليهودي وقال: يابن هاشم اصرف الخطاب لقد أكثرت العتاب، فنحن ما نشكّ فيك يابن عبد مناف، وأنتم سادات كرام أهل الشرف والأشراف، من ولد عبد مناف، ونحن ما خرجنا نريد به كيدكم، وإنما نريد أن نردك إلى أُمك، فلقد كنت مصباح بلدنا! فقال لهم شيبة: يابن دحية اليهودي ووجوه القردة إني أراكم بعين البغضاء ولكن ما رأيتم قدرة الله تعالى بأنكم لم تقدروا على الوصول إلينا، فإن الله حال بيننا وبينكم، وقد نطقتم بالمكر والوسواس ثم تركهم ومضى إلى عمه فقال المطلب: يا خير من مشى إن لك عند الله شرفاً عظيماً!.

فلما رجع اليهود خائبين قال لهم لاطية بن دحية اليهودي: يا قوم ألم تعلموا أنهم معدن السحر يتوارثونه جيلاً بعد جيل؟ قالوا: بلى. ثم قال: يا بني إسرائيل إن المصيبة الكبرى أن يرجع هذا الجمع خائباً، وهم اثنان ونحن سبعون فارساً. فلما علموا أن الخيل لا تصل إليهم، نزلوا عن خيولهم وجردوا سيوفهم، ومشوا إليهم على الأقدام، فلما قربوا من شيبة وعمه وحقت الحقائق وزالت العوائق، أخذ المطلب قوسه وكان قوس إسماعيل، وأخذ نبلة وجعلها

في كبد قوسه ورمى بها اليهود، فقتل بها رجلاً وكان عبداً لابن دحية، فأتى إليه سيده وأخذ النبلة منه فمات لا رحمه الله تعالى. قال: فبينما هم متحيرون لأمرهم وإذا هم بنبلة أُخرى فأصابت رجلاً آخر فقتلته، فصاحوا بأجمعهم وهموا بالرجوع ، فقال لهم دحية: هيهات فإن رجعتم وقد قتلوا منكم رجلين، فعار عليكم الرجوع! فقالوا: أيها السيد الكريم فما ترى من الحيلة؟ فقال: يا قوم وكم عندهم من النبال؟ عسى أن يكون عشرة فيصيبوا بها عشرة، فإذا ظفرتم به قتلناه هو وعمه. قال: فحرضهم على القتال، ولم يكن في القوم أشجع منه، وكان يهزم الجمع وحده، وكان من يهود خيبر. فعند ذلك حملوا بأجمعهم يريدون شيبة وعمه المطلب، وتقدمهم لاطية بن دحية ونادى: يابن هاشم اسمع ما أقول لك وما فيه من الصلاح لنا ولكم! فلم يتكلم المطلب دون أن حمل على القوم، وقال لهم: إذا لم تقنعوا بما أتاكم مني، دونكم مني النبال! وكان رامياً بالنبال فقال لاطية: يابن عبد مناف إنما جئناكم شفقة منا على شيبة نرده إلى أُمه، وهو في بلدنا مع أولادنا. فقال لهم: يا قوم ليس فيكم شفقة عليه والمقام عند أعمامه أحب إليه فانصرفوا راجعين. قال: كيف يرجع هذا الجمع خائبين؟ فقال المطلب: يابن أخي إن ظننت أن في كلامهم صدقاً، فارجع إلى أُمك حتى تبلغ مبالغ الرجال، وتعود إلى بلدك وبلد أبيك وجدك! فقال شيبة: يا عم لا يغرنّك كلامهم فإن القوم أعداؤنا وأعداء آبائنا، فإن الله يحول بيننا وبينهم! فقال المطلب: صدقت يابن أخي.

قال: ثم إن المطلب اهتز في موضعه وكان من الأسود المعدودين بين الأبطال المعروفين، فجاء نحو القوم وقال لهم: يا حزب الشيطان بنا تمكرون وتخدعون! فما ساقكم إلينا هذه الليلة إلا لقطع أعماركم! واعلموا أن الأسد لا يقبض بالخدع، والبحر لا يقاس بالدرع، فمن شاء منكم فليبادر إلى القتال. قال: فلما سمع اليهود مقال المطلب قال لهم لاطية بن دحية اليهودي: أما تعلمون أنه من فرسان بني عبد مناف الذي تعرفه الأبطال؟ فمن يبرز إليه فله عندي مائة راحلة حاملة ليس فيها ذكر ولا حشف! فقال له رجل من بني قريظة يقال له جمع بن براك، وكان للاطية اليهودي عليه دين فقال له: ابرز إليه واترك المال الذي لي عليك، ولك مثله! قال: فبرز اليهودي إلى المطلب وهو لا

يلتفت إليه، حتى قرب منه فالتفت إليه المطلب وقال له: لا شك أن الله تعالى ساقك إلي! قال: فعاجله بضربة فلق بها هامته، وأقبلت اليهود وأحاطوا به فرأوه قد قتل، فلما رأى لاطية ما حلّ بصاحبه، غضب غضباً شديداً ثم قال: من يبرز إليه وله عندي ما يريد؟! فقال رجل من اليهود: ما لهذا البطل إلا بطل مثله، فابرز إليه أنت يا بن العم! فقال لاطية: حباً وكرامة! وقد أخذته الحميّة وغضب، ثم تجرد من أطماره وركب جواده، وأخذ سيفه وجحفته، وعزم على القتال. قال: فلما رآه المطلب أقبل مسرعاً إلى سيفه، وأخذه بيده ورجع إلى عدو الله قاصداً، فتقابل الكبشان وتناطحا بالرمحين، حتى مضى أكثر الليل، واليهود فرحون لما برز لاطية إلى المطلب، وشيبة واقف يدعو لعمه بالنصر، وعيناه تذرفان دموعاً على عمه حين عاين ذلك.

فلما طال ذلك عليهما، وقد مل كل واحد من صاحبه، وإذا هم بغبرة قد ثارت كأنها قطع ليل مظلم، وقد سد الآفاق وامتلأت منه الفلوات، وقد ارتفع صهيل الخيل وزعقات الرجال، وهم قاصدون نحوهم وقد لاح بريق الأسنة ولمعان السيوف، فتأملوا تلك الغبرة فانكشفت عن أربعمائة فارس، قال: فخرج اليهود ينظرون إلى الخيل، وإذا هم بفرسان الأوس والخزرج وأبطال يثرب، قد أقبلوا مع سلمى وأبيها عمرو وجماعة من قومها. فلما رأى اليهود ذلك اجتمعوا على شيبة وعمه، فلما رأت سلمى ذلك صاحت على اليهود ثم قال المطلب: يا عدو الله إلى أين الفرار من الموت؟ ثم لحقه وضربه بالسيف على عاتقه[1] فقسمه نصفين، وعجّل الله بروحه إلى النار. وجالوا بعضهم بعضاً فما كان إلا ساعة حتى قتل اليهود عن آخرهم، فعند ذلك عطفوا على المطلب وسيفه مشهور بكفه، ودفع القوس إلى ابن أخيه فلما مالت عليهم الكتائب، خشيت سلمى أن يصيبوا ولدها بحوافر الخيل، فأومت إلى الخيل وكانت مطاعة فيهم أن أمسكوا فأمسكوا، ووقفوا، وتقدمت سلمى إلى المطلب ونادته: من الهاجم علينا وعلى مرابط الأسد والخاطف من اللبوة شبلها، والخارج به من البلد؟ فقال المطلب: هو يزيده شرفاً إلى شرفه وعزاً إلى عزه والشفيق عليه أكثر منكم، ويرجو أن

(١) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

يكون صاحب الحرم والمتولى الأصم، ما أنا بعدو ولا معاند وأنا عمه وجماله.

فلما سمعت كلامه قالت: من أنت من أعمامه؟ قال: أنا المطلب الذي زوجتك من أبيه. فقالت له عند ذلك: حباً بك وأهلاً وسهلاً. ولكن كان الواجب عليك أن تستأذنني في ولدي قبل خروجك به من البلد. أما علمت بأني قد شرطت على أبيه إن رزقني الله ولداً لا يفارقني؟ فقال المطلب: إني أعلم بذلك. ثم أقبلت سلمى على ولدها وقالت: يا ولدي عصيتني وخرجت مع عمك هارباً! وأيم الله ما حملني على الخروج إلا هؤلاء المجوس والأرجاس، وطلبهم لكم. والآن يا ولدي وقطعة كبدي إن أحببت أن ترجع معي، وإن أحببت أن تمضي مع عمك فأنت في حلّ. فلما سمع شيبة كلام أمه طأطأ رأسه وأمسك عن الكلام. فقالت: يا ولدي وما الذي أسكتك عن الكلام وأنا أعلم أنك طلق اللسان قوي الجنان، جسور في الخطاب! فبحق أبيكَ إنني لا أمنعك عن شهوتك. فرفع رأسه وخنقته العبرة وجعل ينظر عمه تارة وأُمه أخرى، فلما علمت أُمه أنه يريد عمه قالت: ما لك لا تكلمني؟ قال: أخشى مُخالفتك لأن الله سبحانه وتعالى فرض علي طاعتك، وأنت أحق بي من البعيد والقريب بحملك بي وتربيتك ورأفتك عليّ. ولكن أُريد النظر إلى أعمامي وأهلي فإن أمرتني بالرجوع رجعت.

قال: فلما سمعت كلامه وعلمت إرادته قالت له: يا بني لا أراك حائداً عما أردت وقد سمحت لك بالرضا مني، وإنه ليعز علي مفارقتك ووحشتك علي عظيمة، وقد كنت مستأنسة بك عمّا مضى فلا تنسني ولا تقطع عني أخبارك. ثم ودعته وقبلت ما بين عينيه وقالت: يا بن عبد مناف لقد سمعت ما قال أخوك، ولقد سلمت إليك الوديعة التي استودعني إياها أخوك من العهد والميثاق، فإذا بلغ مبالغ الرجال ولم أكن حاضرة عنده فانظر بمن تزوجه. فقال المطلب: تكرمت بما فعلت وأجملت بما صنعت! ثم أقبل عليها يودعها ويثني عليها وعلى أبيها وقومها، فقالت سلمى: خذوا من الخيل والجمال ما تحملون به. فقال لها المطلب: الشكر لله ولك ولقومك. ثم إنه أردف ابن أخيه وسار حتى دخل مكة، فأنارت شعابها وأضاءت أنوارها وأقبل الناس ينظرون إليه، فإذا

هم بالمطلب يحمل ابن أخيه، فقالوا أين ابن عبد مناف؟ وما هذا الذي أضاءت من نوره المشاع؟ فقال: هو عبدي. فقالوا: ما أجمل هذا العبد! فسمي من ذلك اليوم عبد المطلب، فأقبل إلى منزله وتركه وكتم أمره عن الناس. ثم إن عبد المطلب ظهرت له آيات ومعجزات ومناقب ودلائل على النبوة والحمد لله رب العالمين.

الجزء الثالث:

قصة عبد المطلب
مع أصحاب الفيل ونجاة مكة من الهدم

قال صاحب الحديث: فلما قدم المطلب بابن أخيه شيبة ونور رسول الله ﷺ لائح بين عينيه، أتى أبناء قريش به يتبركون، حتى إذا أصابتهم مصيبة أو نزل بهم قحط أو دهمهم عدو، يأتون إليه ويتوسلون بنور رسول الله ﷺ، فيفرج الله عنهم ما نزل بهم. وكان أعجب عجيبة وأعظم آية ظهرت لهم فيما جرى لأصحاب الفيل وأبرهة بن الصباح، وكان ملك اليمن وقيل ملك الحبشة، وهو صاحب الفيل الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، وكان قد أشرف أهل مكة على الهلاك؛ وكان منه أنه أراد أن يهدم الكعبة شرفها الله تعالى فكشف الله عن البيت وأهله ببركة عبد المطلب. قال صاحب الحديث: سارت جماعة من قريش إلى بلد الحبش بتجارة، فنزلوا في البلد ودخلوا في كنيسة من كنائس النصارى، وأوقدوا فيها ناراً يصطلون عليها ويصلحون لهم طعاماً. ثم إنهم خرجوا ولم يطفئوها فهبت عليها ريح فأحرقت كنيستهم وما فيها، فسأل النصارى عن حرق الكنيسة، فقالوا: حرقها تجار مكة. قال: فلما علم الملك النجاشي أن العرب أحرقوا معبده غضب، وأقسم إني لأحرق معبدهم جهاراً بما فعلوا بمعبدنا هذا الفعل! فأرسل وزيره أبرهة بن الصباح وأرسل معه أربعمائة فيل ومائة ألف مقاتل، وقال: امضوا إلى كعبتهم وأخربوها وارموا أحجارها في البحر، واقتلوا رجالهم وانهبوا أموالهم. ثم أمر

أرباب دولته يقال له الشمردل، وكان قدمه في عشرين فارساً، وأمره أن ينزل على مكة وقال له: اقتل رجالها وانهَب أموالها حتى آتيك بالعسكر قال السمع والطاعة.

وسار الشمردل يحث السير حتى نزل على مكة، فلما سمع أهل مكة العسكر نزل بهم، جمعوا دوابهم وأموالهم وهمّوا بالخروج من مكة هاربين من أصحاب الفيل. فلما رآهم عبد المطلب قال لهم: يا قوم هل يجمل لكم هذا الأمر، لأنه عار عليكم خروجكم من كعبتكم؟ قالوا: إن الملك أقسم أنه لا بد له من هدم الكعبة، ويرمي أحجارها في البحر ويقتل رجالها ويذبح أطفالها، فاتركنا نخرج قبل أن يحل بنا الويل. فقال لهم: إن للكعبة مانعاً يمنع عنها ولا يصل إليها أحد بمكروه، فإن التجأتم واعتصمتم بها فهو خير لكم. قال: فلم يطمئنوا إلى كلامه وقد غلب عليهم الخوف، وخرجوا منها هاربين يطلبون الجبال والشعاب، ومنهم من ركب البحر. قال: فعند ذلك أقبلوا وقالوا لعبد المطلب: ما الذي يمنعك من الخروج معنا؟ قال: أستحي أن أهرب عن بيت الله وحرمه، فوالله ما أبرح من مكاني هذا ولا أهرب عنه، ولا فارقت بيت الله حتى يحكم الله بيني وبينهم! قال: ولم يبق في مكة إلا عبد المطلب وأقاربه وأولاده وهم غير آمنين. فلما نظر عبد المطلب إلى الكعبة وهي خالية قال اللهمَّ أنت أنيس المستوحشين، ولا وحشة معك، فالبيت بيتك والحرم حرمك والدار دارك، ونحن عبيدك وجيرانك تمنع عنا ما تشاء، وإنك على كل شيء قدير. قال: وأقام الشمردل في جيشه حتى أقبل أبرهة بن الصباح، ومعه بقية الجيش وهم أربعمائة فيل، قد كدروا المياه وحطموا المراعي وسدوا المسالك والفجاج[1] قال: فضربهم الجوع والعطش من كثرتهم. قال: فشكوا ذلك إلى أبرهة بن الصباح فقال لهم: سيروا إلى الكعبة مسرعين.

قال: فساروا إلى الكعبة مسرعين وقربوا منها ونهبوا دوابها ومواشيها وأموالها، وساقوا جميع ما في الأبطح من المواشي، وكان لعبد المطلب ثمانون ناقة حمر الوبر سود الحدق، فأخذوها جميعاً وتقاسموها، فمضى الرعاة

---

(١) الفجاج: الأودية العميقة.

وأخبروا عبد المطلب بذلك. فلما سمع عبد المطلب بذلك قال: الحمد لله مال الله ونحن ضيفانه وأهل بيته وزوّاره وحجّابه، فإن سلمها فهي له وإن ردها فهي من إحسانه، وهي عارية[1] وأمانة عندنا. ثم إن عبد المطلب لبس قميصه وتردى برداه، واحتزم بمنطقة الخليل وتنكب بقوس إسماعيل، واستوى على مطيته وعزم على الخروج فقال له اخوته: إلى أين تريد؟ فقال: أريد هذا الظالم الذي أخذ مال الله وتعرض لحرم الله! فقال له أقاربه: ما كنا بالذي نطلق سبيلك حتى تمضي إليه! فإن هذا مثل البحر فمن دخله غرق، وأنت قد اعتصمت برب هذه الكعبة واعتصمنا معك، ورضينا لأنفسنا ما رضيت لنفسك، وأنت تريد أن تخرج من الحرم إلى شر الأُمم، فلا نسمح لك! فقال عبد المطلب: إني أعلم من فضل ربي ما لا تعلمون فخلّوا سبيلي فإني سأرجع إليكم عن قريب. قال: فخلوا سبيله فسارت به مطيته كالريح الهبوب، فلما أشرف على القوم نظروا إليه من بعيد، وهو كأنه البدر إذا أبدر والصبح إذا أسفر، فلما عاينوه من قريب بهتوا وبادروا، وقد كف الله تعالى أيديهم عنه وقالوا: من أنت أيها الرجل الجميل بهيج الغرة؟ فقال: أنا صاحب النور الزاهر والضياء اللامع الباهر. فقالوا: إن كنت من أهل هذا البيت فنحن نسألك أن ترد من هاهنا شفقة منا عليك. فقال: إني أريد الملك بنفسه فقالوا: إن الملك أقسم بمعبوده أن لا يترك من قومك أحداً. فقال لهم عبد المطلب: إني لآتيه قاصداً. فعند ذلك تصارخ القوم وقال بعضهم لبعض: ما رأينا مثل هذا الرجل بالحسن والجمال والبهاء والكمال، غير أنه ناقص العقل، نحن نقول له إن الملك أقسم بمعبوده ألا يترك أحداً من هذه البلدة، وهو يقول: لا بد من لقاء ملككم هذا. قال: فخلوا سبيله فمضى حتى دخل على الملك، فقال أرباب الملك: لقد قدم علينا هذه الساعة من مكة رجل لم يفزع ولم يجزع. فقال الملك: علي به وائتوني به مسرعاً فوحق ما أعتقده من ديني، لو سألني أهل الأرض كلها، ما قبلت منهم فيه وسيلة، وما تركته من القتل.

قال: فعند ذلك أقبل الغلام إلى عبد المطلب ليأتي به إلى الملك، فقال

---

(١) عارية: مستردّة ومسترجعة.

عبد المطلب: إني قادم بنفسي إلى الملك. قال: فأمر الملك قومه أن يشهروا الأسلحة، ويأخذوا أسلحتهم لقتل عبد المطلب، وجعل الملك على رأسه تاجاً وشد عمامته على جبهته، وأمر سيّاس الفيل أن يحضروا الفيل الأعظم ويقال له المذموم، وقد ركبوا على رأسه قرنين من حديد، فلو نطح جبلاً راسياً لألقاه، وقد علقوا على خرطومه سيفين من سيوف الهند، وعلموه الحرب ووقف الساسة قريباً منه، وقال لهم الملك: إن أشرت لكم عند دخول هذا المكي فأطلقوه عليه حتى يدوسه بكلاكله. قال فدخل عبد المطلب والعسكر وقوفاً صفوفاً بين يديه، ينظرون ما يأمرهم به في حال دخول عبد المطلب وهم بهوت شاخصون بأبصارهم، وعبد المطلب لا يلتفت إليهم حتى جاوز أصحاب الفيل، فأشار إليهم الملك بإطلاق الفيل فأطلقوه، فلما قرب الفيل من عبد المطلب برك الفيل على الأرض، وجثى على ركبتيه، وكان قبل ذلك إذا أُطلق تحمرّ عيناه ويضرب بخرطومه وفيه سيفان، فلما قرب من عبد المطلب سكن ولم يفعل شيئاً. قال: فتعجب الملك وأصحابه من ذلك، ثم ألقى الله تعالى في قلبه الهلع والفزع والجزع[1] وارتعدت فرائصه[2] وتمزق بغيظه، فأقبل الملك أبرهة بن الصباح على عبد المطلب، فتنحى عنه حتى جلس على سريره إلى جانبه، ورحب به وحياه فالتفت إلى الشمردل بن مقصود وقال له: كل ما طلب منك هذا الرجل فاقض حاجته. ثم التفت إليه الملك وقال: من أنت وما اسمك؟ فما رأيت رجلاً أجمل وجهاً ولا أحسن بهجة منك! وإن لك عندي ما سألت، ولو سألتني الرجوع عن بلدك لرجعت! فقال عبد المطلب: لا أسألك شيئاً من ذلك. إلا أن قومك أغاروا علينا وأخذوا مني ثمانين ناقة وكنت قد أعددتها للحجاج لبيت الله الحرام، فإن أردت أن تردها علي فافعل. قال: فأمر الملك بردها فأُحضرت الجميع، ثم التفت إلى عبد المطلب فقال: هل من حاجة غيرها فاسألني عنها. فقال عبد المطلب: ما أُريد غيرها. فقال له أبرهة: فلم لا تسألني الرجوع عن بلدك، فإني أقسمت أن أهدم كعبتكم وأقتل رجالكم، ولكن لعظم

---

(١) الهلع والجزع: الفزع الشديد.

(٢) الفرائص: مفردها الفريصة، وهي اللحمة بين الجنب والكتف، أو بين الثدي والكتف ترعد عند الفزع.

قدركم عندنا لو سألتني الرجوع عنها لرجعت! فقال عبد المطلب: إني لا أسألك عن شيء من ذلك. فقال الملك: يا عبد المطلب إني لأخرج في أثرك بخيلي وأفيالي ورجالي وجنودي، فأُخرب الكعبة ونواحيها وأقتل سكانها. فقال له عبد المطلب: إن قدرت على ذلك فافعل! وانصرف عبد المطلب فمر على الفيل الأعظم، فلما قرب منه سجد له الفيل وتمرغ له بين يديه، فمضى عبد المطلب وأقبل الوزراء يلومونه كيف خلى سبيله، قال: ويحكم لا تلوموني ألم تروا كيف سجد له الفيل؟ ولقد أوقع الله في قلبي منه هيبة عظيمة! ثم قال: ما تشيرون علي به وما عندكم من الرأي؟ فقالوا: الرأي عندنا لا بد من المسير إلى مكة ونخربها ونرمي بأحجارها في البحر. فعند ذلك أمر الملك أبرهة بالجموع والجيوش أن تسير إلى مكة شرفها الله تعالى، فقدموا الفيل الأعظم وسارت الفيلة والخيل خلفه وسار العسكر إلى مكة.

وأما ما كان من عبد المطلب، فإنه لما وصل إلى أهله وبني عمه، فرحوا واستبشروا به وأقبلوا يقبلون يديه ورجليه، وهم يقولون: الحمد لله الذي حفظك وحماك بفضل هذا النور الذي في وجهك! ثم سألوه عن الجيش فأخبرهم بخبره، وبقصتهم وخبر الفيل فقالوا له: ماذا تأمرنا؟ فقال لهم: يا قوم اخرجوا بنا إلى جبل أبي قبيس، حتى ينفذ الله حكمته ومشيئته. فخرج القوم وأولادهم ودوابهم، وخرج عبد المطلب وإخوانه وأهله وأقاربه، وأخذ مفاتيح الكعبة وسار إلى جبل أبي قبيس، وأقبل عبد المطلب يسير بين الصفا والمروة، يدعو ويبكي ويتوسل بنور محمد المصطفى ويقول: يا رب إليك المهرب أسألك بالكعبة العظمى العليا، ذات الحجيج والموقف العظيم، يا رب إرمِ الأعداء بسهم الغضب حتى يكونوا كالحصيد المنقلب. وإذا هو بهاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول: قد أُجيبت دعوتك وبلغت طلبتك كرماً للنور الذي في وجهك! قال: فنظر يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، ثم قال لمن معه وهو على جبل أبي قبيس، وقد نشروا شعورهم وهم يبتهلون بالدعاء ويستبشرون بإجابة الدعاء، ثم قال لهم: إني رأيت النور الذي في وجهي قد علا. قال: فعند ذلك زحف القوم إليه، فلما قربوا منهم رجفوا وتضرعوا إلى الله تعالى. قال: فبينما هم كذلك إذ أشرفت عليهم غبرة الفيل، وظهر القوم وتقاربت الصفوف،

ولاح لهم بريق الأسنة، ثم انكشف الغبار عن الفيل فنظروا إليه فإذا هو كالجبل العظيم، وقد ألبسوه الحديد وزينوه بزينته، قال: فاشتد في مكة قلقهم وانهملت عبراتهم[1] وتضرع عبد المطلب، فما فرغ من دعائه حتى وقف الفيل مكانه، فصرخت به السياس وزجرته، فلم يلتفت إليهم، فوقف مكانه وقد دهش من ذلك، فقال الأسود بن مقصود وهو مقدم على السيّاس: ما خبركم؟ قالوا: الفيل قد وقف. قال: اضربوه، فضربوه فما حال من مكانه، قال: فتعجب من ذلك فقال الأسود: إن أهل مكة سحروا فيلكم. ثم بعث إلى الملك وأعلموه بذلك فبعث أبرهة لابن مقصود: ليس حرب لمن حرب، فابعث إلى القوم من عندك رسولاً واطلب الصلح، ولا تخبرهم بخبر الفيل فيطمعوا فيكم، واطلبوا منهم رجالاً بعدد ما قتلوا منا، ويقيموا ما أفسدوا علينا من كنيستنا. فإذا فعلوا ذلك رجعنا عنهم. قال: فلما دخل رسول أبرهة وكان اسمه حناطة الحميري، وكان يهزم الجيش وحده وكانت له خلقة هائلة، فقال الأسود: هل تكون رسولاً إلى القوم فعسى أن يكون الصلح على يدك؟ فقال: إن صالحونا وإلا رجعت إليك برؤوسهم.

ثم سار وهو متعجب بنفسه، فسأل عن سيد قريش فقالوا له: شيبة الحمد والفخار. وإن عبد المطلب قد رآه من قبل وعلم أنه رسول القوم، فلما وصل حناطة إلى عبد المطلب دهش وحار، فقال له عبد المطلب: ما الذي أتى بك إلينا؟ فقال حناطة: يا مولاي إن أبرهة بن الصباح قد عرف فضلكم ووهب لكم البيت الحرام، وقد أرسلني إليكم أن تقيموا إليه بدية من قتل، وتنفذوا إليه رجالاً بعدد من هلك، وتقوموا له بثمن ما عدم من الكنيسة. فإذا فعلتم ذلك رجع عنكم وأنتم له شاكرون. فقال له عبد المطلب: ما يؤخذ البريء بالسقيم نحن شيمتنا الصيانة والأمانة، ونقبض أيدينا عن المظالم، ونصرف جوارحنا عن المآثم. فبلّغ صاحبك عنا ذلك. وأما هذا البيت فقد سبق القول مني إن له رباً يمنع عنه. فوالله ما كثر علي ما جمعه من الرجال! وإن أراد صاحبك المسير فليسرْ، وإن أراد المقام فليقم. فلما سمع حناطة ذلك الكلام، أراد أن يقتل

---

(١) انهملت عبراتهم: سقطت دموعهم.

عبد المطلب، وظهر لعبد المطلب ذلك من وجهه، فلم يمهله دون أن قبض على محزمه ومراق بطنه، وشاله وضرب به الأرض وقال: وعزة ربي وجلاله لولا أنك رسول لأهلكتك قبل أن تأتي صاحبك! قال: فخرج حناطة إلى الأسود وأخبره بما كان من أمره فقال: يا هؤلاء حيلة دبرتها والرأي عندي أن مكة خالية من أهلها، فأسرعوا إلى الغنيمة.

قال الراوي: فأمر الجيوش أن تزحف إلى الحرم، فسارعوا نحوها، فلما قربوا من مكة جاءهم أمر الله من حيث لا يشعرون، وإذا هم بأفواج من الطيور، كأنهم السحاب المترادف، وهي تتبع بعضها بعضاً، وهي كأمثال الخطاطيف، يحمل كل طير ثلاث حصيات: واحدة بمنقاره واثنتان برجليه، أصغرها كالعدس وأكبرها كالحمص وقد صفت وارتفعت فوق العسكر، وتصارخت وانفرشت بطول العسكر وعرضهم.

قال: فلما نظر القوم إلى ذلك خافوا خوفاً عظيماً وقالوا: ما هذه الطيور التي لم نرها قبل هذا اليوم؟ فقال الأسود: ما عليكم منها شيء وإنما هي طيور تحمل أرزاقها إلى أفراخها، ثم قال: عليَّ بقوسي حتى أردها عنكم، فأخذ القوس وأراد الرمي، فتصارخت الطيور لربها مستأذنة، حتى جاءها النداء من العليّ الأعلى: افعلوا ما أُمرتم به، فقد اشتد غضب الرحمن على من يبغض النبي المختار! ففتحت الطيور أفواهها، وكانت أول حصاة وقعت على رأس حناطة، فنزلت من البيضة إلى الرأس وإلى الحلقوم، ونزلت إلى القلب ثم خرجت من دبره إلى الأرض، فخر صريعاً. فتناثر القوم يميناً وشمالاً والطيور تتبعهم، ولم تزل على رأس الرجل حتى ترميه بالحصاة على أُم رأسه، فتخرج من دبره، ولا يردها ترس ولا حديدة بل تقع على رأس الرجل وتخرج من دبره، قال: ثم إن الملك لما نظر إلى الطيور وفعلها، علم أنه قد أحاق بهم[1] العذاب الأليم، فولى هارباً على وجهه. وأما الأسود فلما نظر ما حل بهم، والحصى تتساقط عليهم وهم يقعون على وجوههم، فتعجب من ذلك، فبينما هم كذلك إذ أُلقي عليه حجر في فمه، فخرج من دبره، فأتاه آخر في هامته فخر صريعاً.

---

(١) أحاق بهم: لزمهم ووجب عليهم.

وأعجب من ذلك أن رجلاً كان له أخ فسأله المسير فأبى فقال: ما أنا ممن يتعرض لبيت الله الحرام. فلما حل به البلاء خرج هارباً على وجهه، والطير تتبعه، فلما وصل إلى أخيه ووصف له العذاب الذي حل بالقوم، رفع رأسه فإذا هو بالطير رماه بحصاة على هامته خرجت من دبره. وأما أبرهة فقد سار مجداً على فرسه إذ سقطت يده اليمنى ثم رجله اليسرى، فتحير في أمره، ثم سقطت أسنانه، فأتى منزله فحكى لهم جميع ما جرى على العسكر، فلم يتمّ حديثه إلا ورأسه قد سقط على جثته.

قال صاحب الحديث: هذا ما جرى لأصحاب الفيل. وأما ما كان من عبد المطلب ومن معه، فإنهم بقوا في ابتهال ودعاء وتضرع، وقد استجاب الله دعاءهم ببركة رسول الله ﷺ. وقال عبد المطلب: اللهمَّ ببركة هذا النور الذي وهبتنا إياه، اجعل لنا فرجاً ومخرجاً وانصرنا على عدونا، إنك على كل شيء قدير. قال فنظرهم على الأرض مطرحين، فولى الفيل هارباً إلى مكة. هذا ما جرى على أصحاب الفيل، وأما أهل مكة فإنهم كانوا فرحين مسرورين وبقوا ينقلون الأسلحة والأموال وكانت سعادتهم وبركتهم من نور رسول الله ﷺ والحمد لله رب العالمين.

الجزء الرابع:

نذر عبد المطلب وفداء ابنه عبدالله من الذبح

قال صاحب الحديث: وإن عبد المطلب نام ليلة في الحجر، إذ أتاه آتٍ في منامه يقول له: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ فغاب عني، فأتاني في اليوم الثاني وقال: احفر المصونة قلت: وما المصونة؟ ثم غاب عني وأتاني في اليوم الثالث وقال لي: احفر بَرّة قلت: في أي مكان؟ ثم غاب عني وأتاني في الليلة الرابعة فقال لي: احفر زمزم فإنها لا تنزف ولا تزم[1]، تسقي الحجيج الأعظم عند قرية النمل. فلما دله على الموضع أخذ ولده الحارث ولم يكن له ولد غيره. قال: فلما ظهر لبنها وقد علمت قريش بذلك، أقبلوا عليه وقالوا: هذا بئر زمزم وهو بئر أبينا إسماعيل ونحن فيه شركاء، فقال عبد المطلب: إني لا أفعل ولا أسمع لقولكم، إن هذا أمر خصصت به دونكم. فتشاوروا واتفقوا أن يجعلوا من بينهم حكماً، وهو سعيد بن حنتمة، وكان بأطراف الشام، فخرجوا حتى إذا كانوا بمفازة بين الحجاز والشام، وقد بلغ منهم الجهد والعطش مبلغاً عظيماً، ولم يجدوا ماءً فقالوا لعبد المطلب: ما الذي نفعل؟ قال: كل واحد منكم يحفر حفيرة لنفسه. ففعلوا ذلك فركب عبد المطلب ناقته، فنبع الماء من تحت خفافها، فكبّر وكبّر أصحابه، وشربوا جميعهم وملأوا قربهم وحلفوا أن لا يخالفوه في بئر زمزم. فقالوا: إن الذي أسقاه الماء في هذه الفلاة هو الذي أعطاه زمزم. قال: فرجعوا ومكنوه في الحفر، فلما عاد إلى الحفر وجد غزالين من الذهب الأحمر، وهما اللذين دفنهما جده. ولقي أسيافاً كثيرة ودروعاً،

---

(١) أنزف البئر: استخرج ماءها كلّه. وزمّت البئر: علا ماؤها.

فطالبوه بنصفها فقال: هلموا إلى من ينصف بيننا، فنضرب القداح فنجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين ولكم قدحين، فمن خرج قدحه فهذا له، قالوا: أنصفت بيننا. فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين له وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطى صاحب القداح أُجرته وهو عبد هبل، وهو صنم في الكعبة، فضربها فخرج الأصفران على الغزالين، وخرج الأسودان على الأسياف، والدروع لعبد المطلب، فضرب ما بين الكعبة وضرب في الباب الغزالين الذهب، وأقام عبد المطلب سقاية زمزم والحاج. وما كان في مكة من يحسده ويضاده إلا رجل واحد، وهو عدي بن نوفل، وكان صاحب منطق وبسطة يد وطول، وكانت ترد المشاورة إليه قبل قدوم عبد المطلب إلى مكة، ثم سيده أهل مكة عليهم، فكبر ذلك عليه حيث مال الناس إلى عبد المطلب.

فلما كان في بعض الأيام تنافسا وتقاولا، ووقع بينهما خطاب، فقال عدي بن نوفل لعبد المطلب: أمسك عليك ما أعطيناك ولا يغرنك ما خوّلناك، فإنما أنت غلام من غلمان قومك، وليس لك ولد ولا مساعد فيما تستطيل به علينا، ولقد كنت في يثرب غريباً، حتى جلبك عمك إلينا وأقدمك علينا، فصار لك الكلام علينا! فغضب عبد المطلب لذلك وقال: يا ويلك تعيّرني بقلة الأولاد؟ والله إن رزقني الله عشرة أولاد ذكوراً وزاد عليهم واحد لأُقربنّ أحدهم إجلالاً وإكراماً لحقه اللهمّ كثّر لي العيال ولا تشمت بي أحداً، إنك الفرد الصمد، ولا أُعير بمثل قولك أحداً يا أرحم الراحمين. ثم انصرف عبد المطلب في خطبة النساء والتزويج حرصاً على الأولاد، وكلهن ذات حسن وجمال؛ منهن بغلة بنت حباب الطائفي والكلابي، وهائلة بنت وهب وفاطمة بنت عمر المخزومي، ومنعا بنت الحارث فإنها ولدت له الغيداق واسمه حجل، وإنما سمي الغيداق لمروّته وبذل ماله. وأما القرعة فولدت له ولدين أحدهما ضرار والآخر العباس وأما فاطمة فلها ثلاثة أولاد أحدهما عبد مناف والآخر أبو طالب وعقيل وحمزة وعبد شمس والحارث وعبد الله أبو رسول الله ﷺ.

قال صاحب الحديث: وكان عبد الله أصغر أولاده، وكان عبد المطلب قائماً في خدمة الكعبة، فلما كان ذات ليلة من الليالي نام قريباً من حائط

الكعبة، فرأى رؤيا فانتبه مرعوباً طائش العقل وقال: رأيت أنه قد خرج من ظهري سلسلة بيضاء مضيئة، يكاد ضوؤها يخطف الأبصار، لها أربعة أطراف: طرف منها بلغ المغرب، وطرف آخر بلغ المشرق، وطرف منها قد غاص تحت الأرض، وطرف منها قد بلغ إلى عنان السماء، فنظرت تحتها شخصين عظيمين بهيَّين، فقلت لأحدهما: من أنت؟ فقال: أنا نوح نبي رب العالمين. فقلت للآخر: من أنت؟ فقال: أنا إبراهيم الخليل، جئنا نستظل تحت هذه الشجرة، فطوبى[1] لمن استظل بها، والويل لمن حاد عنها! فانتبهت لذلك فزعاً مرعوباً. فقال له الكاهن: يا أبا الحارث هذه بشارة وخير يصل إليك، ليس لأحد فيه شيء. فإن صدقت رؤياك يخرج من ظهرك من يدعو أهل المشرق والمغرب، وتعرفه أهل السماوات والأرض والجن تحت الثرى، ويكون رحمة لقوم وعذاب لقوم آخرين. قال: فانصرف عبد المطلب فرحاً مسروراً، وقال في نفسه: ليت شعري من يقبض النور من أولادي.

وكان يخرج كل يوم إلى الصيد والقنص، فأخذه ذات يوم العطش، فنظر إلى ماء طفى في حجر معين، فشرب منه فوجده أبرد من الثلج وأحلى من العسل، فأقبل في ساعته فغشي زوجته فاطمة بنت عمر، فحملت بعبد الله أبي رسول الله ﷺ، فانتقل النور الذي كان في وجهه إلى زوجته فاطمة بنت عمر، فلما مرت به الأيام والليالي، وكملت أشهرها وتم الحمل بعبد الله، فانتقل النور الذي في وجهها إليه، فلما ولدته سطع النور من غرته حتى بلغ عنان السماء، فلما نظر عبد المطلب فرح فرحاً شديداً وقال: الحمد لله رب العالمين. قال ولم يخفَ مولده على الكهان والأحبار، فأما الكهان فعظم الأمر عليهم لإبطال كهانتهم، وأما الأحبار اليهود فكانت عندهم جبة بيضاء، وكانت جبة يحيي بن زكريا، وكانت قد غمست بالدم، وكان في كتبهم: إذا قطر من الجبة قطرة واحدة، فيكون قد خرج عليهم السيف المسلول. قال فولد عبد الله وقطرت الجبة دماً، فعلموا أنه قد دنا خروجه، فاغتموا لذلك غماً شديداً، فبعثوا إلى مكة رسلاً منهم يكشفون لهم الخبر، فأتوهم بخر مولده. وكان عبد الله يشبّ في

---

(١) الطوبى: الخير والبركة.

الشهر مثلما يشب غيره في السنة، وكان الناس يرونه ويتعجبون من حسنه وجماله وأنواره، فقيل إن عبد الله لقي في زمانه مثلما لقي يوسف الصدّيق في زمانه، وذلك من عداوة اليهود وإضراره عليهم لأمور عظيمة وأحوال جسيمة.

قال الراوي: فلما كمل لعبد المطلب عشرة أولاد غير ولده الحارث، فصاروا أحد عشر ولداً ذكوراً، وذكر النذر الذي نذره والعهد الذي عهده، قال: إني قد رزقت عشرة أولاد وزادوا عليهم واحداً، لأنحرنّ أحدهم لوجه الله تعالى. فجمع أولاده بين يديه وكلهم حوله، فاغتم لذلك غماً شديداً فقال: يا أولادي إنكم تعلمون أنكم عندي بمنزلة واحدة، وأنكم الحدقة من العين، والروح بين الجنبين، ولو أصابكم عارض لآذاني، إلا أن حق الله أوجب من حقكم، ومكان الله أعظم من مكانكم، وقد عاهدت ونذرت له إن رزقني أحد عشر ولداً ذكوراً، لأنحرن أحدهم قرباناً. وقد أعطاني ما سألت، وبقي علي الآن ما عاهدته، وقد جمعتكم لأُشاوركم فما أنتم قائلون؟ فجعلوا ينظرون بعضهم بعضاً وهم سكوت، ولم يتكلموا إلا أصغرهم في السن، عبد الله أبو رسول الله ﷺ، فقال: يا أبت أنت الحاكم فينا وعلينا ونحن أولادك وطوع يدك، وحق الله أوجب من حقنا، وأمره أوجب من أمرنا، ونحن لك طائعون ولأمرك متَّبعون، وقد رضينا لأمر الله وأمرك، وصبرنا على حكم الله وحكمك، ونعوذ بالله من مخالفتك. فشكره أبوه على كلامه، وبكى بكاءً شديداً ثم قال لهم: يا أولادي ما تقولون؟ قالوا: سمعنا وأطعنا فافعل ما بدا لك، ولو نحرتنا عن آخرنا، كيف وهو واحد منا؟ فشكرهم على مقالهم ثم قال: يا أولادي امضوا إلى أُمهاتكم واغتسلوا وتطيّبوا، والبسوا أفخر أثوابكم، وودعوا أُمهاتكم وداع من لا يرجع.

فتفرقوا عنه وأقبلوا إلى أُمهاتهم، وأخبروهن بما قال لهم أبوهم، ففاضت لأجل ذلك أعينهن، وتزايدت عليهن الأحزان، وأقمن لفقد أولادهن مأتماً. قال: ثم إن عبد المطلب بات تلك الليلة وهو مهموم مغموم، ولم يذق طعاماً ولا شراباً، ولم تغمض له عين حتى طلع الفجر، وهو مع ذلك قلق مرعوب، ولم يعلم أولاده ما يريد أن يفعل. قال: فاغتسل ولبس أفخر أثوابه، وتردى

برداء آدم، وانتعل بنعل شيث وتختم بخاتم نوح، وأخذ بيده خنجراً ماضياً[1] ليذبح بعض أولاده، فأقبل عليهم يناديهم بأسمائهم من عند أُمهاتهم، واحداً بعد واحد، فأقبلوا إليه مسرعين، وقد تعطروا وتطيبوا وتزيّنوا، كما أمرهم أبوهم. ولم يتأخر عنهم غير عبد الله لأنه كان أصغرهم، فسألهم عنه فقالوا: ما لنا علم به. فأقبل عبد المطلب إلى زوجته فاطمة فإذا هي متعلقة بولدها عبد الله، فجعل أبوه يأخذه منها وهي تجذبه، وعبد الله يريد أباه وهي تمنعه، فمضى وهو يقول لها: إني أعود إليك إن شاء الله تعالى. فتركته وقالت: يا أبا الحارث إن فعلك هذا ما سبقك عليه أحد من الناس، وكيف تطيب نفسك أن تذبح أولادك؟ وإن كان لا بد من ذلك فخلِّ عبد الله لأنه طفل صغير، وارحمه لأجل النور الذي في وجهه، فورب الكعبة، لئن فعلت ببعض أولادك ما أنت عازم عليه، تشمت بك الأعداء والحساد ولا يطيب أولاد لك بعده أبداً! فقال لها عبد المطلب: فوحق رب الكعبة، إن عبد الله أجمل أولادي عندي وأحبهم إلي، وأنا أرجو من الله تعالى أن ينجيه ويرحمه لصغر سنه. ثم إنه عزم على السير به فقامت أُمه وضمته إلى صدرها، وهي تقول: ورب الكعبة إنه قضى علي بفراقك وأنا لا أقدر على وحشتك، وحاشا نور الله أن يطفى ويذهب نور الأبطح والصفا، ولقد قلَّت حيلتي فيك يا ولدي!.

قال: وكثر العزاء ثم قالت: ليتني غيَّبتك قبل ذبحك ومغيبك، تحت الثرى، حتى لا أرى فيك ما لا أُريد بالرغم مني لا بالرضا. فلما سمع عبد الله ذلك من أُمه بكى بكاءً شديداً حتى غشي عليه، وتغير لونه ثم قال: يا أُماه دعيني أمضي مع أبي يفعل بي ما يشاء، ويحكم ربنا ما يريد؛ فإن اختارني كنت راضياً بإجابته، سامحاً ببذل روحي، وإن كان غيري فإني أرجع إليك. قال: فأطلقته أُمه وسار مع أبيه، وأقبل عبد الله مع إخوته وساروا جميعاً إلى الكعبة، وارتفعت الأصوات وخرجت الصبيان والرجال من كل جانب ومكان، وجعلوا ينظرون إلى عبد المطلب وما يريد أن يصنع بأولاده، وأقبلت السحرة والكهنة واليهود وهم يقولون: هذا الذي يخرج من صلبه ما تحذرون، وقد قرب ذلك منه، ولا

---

(١) ماضياً: حاداً.

بد أن يقارع بين أولاده، وكل من وقعت عليه القرعة ذبحه. وأقبلوا ينظرون إلى فعله بهم. قال: فأقبل عبد المطلب وأولاده قاصداً بهم المنحر، وبيده خنجر ماضٍ، فتطاولت إليه الأعناق وشخصت إليه الأبصار، ثم نادى بأعلى صوته، بحيث يسمع كل قريب وبعيد وقال: اللهمَّ يا رب هذا البيت الحرام والمشاعر العظام، وزمزم والملائكة، اكشف عنا بنورك الظلام، بحق ما جرت به الأقلام، إنك خلقت الخلق بقدرتك وأمرتهم بعبادتك. اللهمَّ لا مانع منك، وإنما يحتاج الضعيف إلى القوي والفقير إلى الغني! يا رب وأنت تعلم أني نذرت لك، وعاهدت لنفسي، لئن وهبت لي عشرة أولاد ذكوراً، وزاد عليهم واحد لأقربنّه لوجهك الكريم! وها أنا قد سقت إليك أولادي، فاحكم بحكمك واختر منهم ما اخترت، اللهمَّ كما قضيت فاجعله في الكبار، ولا تجعله في الصغار، لأن الكبار على البلاء أصبر، وإن الصغير أولى بالرحمة، اللهمَّ رب البيت والأستار، والركن والأحجار، وساطح الأرض ومجري البحار والأمطار، يا رب اصرف البلاء عن الصغار.

فلما تم الدعاء أمر بجرائد من النخل، فجردت وقدرت وفصلت، وكتب اسم كل واحد من أولاده على جريدة ثم أتى بصاحب الأقداح التي كانوا يضربون بها، وهي التي ذكرها الله تعالى وتسمى الأزلام، وكانوا يستقسمون بها في الجاهلية ويضربون بها، فمن خرج عليه السهم منها قتلوه. قال فأخذها صاحب الأقداح ودخل بها الكعبة، وعبد الله عند إخوته، فلما دخل صاحب الأقداح، أخذت أُمهاتهم في البكاء والنحيب والصراخ والعويل، وكل واحدة منهن تبكي على ولدها، والناس يبكون على بكائهن، وقلق عبد المطلب قلقاً عظيماً، وجعل يقوم مرّةً ويقعد أُخرى، قال: فلما أبطأ على عبد المطلب الخبر، جعل يقول: يا رب أسرع بقضائك فإني راغب، قال: فعند ذلك تطاولت إليه الأعناق، وشخصت إليه الأحداق، وفاضت العبرات واشتدت الحسرات، قال: فبينما هم كذلك، إذ خرج صاحب القداح من الكعبة، وهو قابض على يد ولده عبد الله أبي رسول الله ﷺ، وقد جعل رداءه في عنقه، وهو يسوقه، وقد زالت النضارة من وجهه، واصفر لونه وارتعدت فرائصه، ثم قال: هذا ولدك الذي

خرج عليه السهم، فإن شئت أن تذبحه وإن شئت تتركه. قال: فلما سمع عبد المطلب كلامه خر مغشياً عليه، ووقع على الأرض، وخرج أولاده من الكعبة وهم يبكون على أخيهم لصغر سنه، وكان أشدهم حزناً عليه أخوه أبو طالب، لأنه كان من أمه وأبيه، وكان لا يصبر عنه ساعة واحدة من عظم شفقته عليه، وكان يقبّل غرّته وموضع النور الذي في وجهه ويقول: يا أخي لا تموت حتى أرى ولدك الوارث لهذا النور الذي في وجهك، الذي فضله رب العالمين، الذي تقاتل معه الملائكة المقربون، الذي يغسل الأرض من الدنس ويزيل دولة الأوثان، ويبطل كهنة الكهان. قال: فلما ولد النبي ﷺ كان يحمله عمه ويحبه حباً شديداً، وكان يفتخر به ويقول: أنا أفديك يابن أخي يابن الذبيحين اسماعيل وعبد الله.

ثم نرجع الحديث إلى عبد المطلب، فلما أفاق من غشوته، سمع البكاء والعويل وقد أحاط به من كل جانب ومكان، ونظر إلى فاطمة أُم عبد الله، وهي تحثو التراب على رأسها ووجهها، وتضرب صدرها، قال: فلما نظر عبد المطلب إلى فاطمة وحزنها وقلقها وقلة صبرها، قبض على عبد الله وأراد أن يذبحه، فتعلقت به سادات قريش وبنو عبد مناف، ثم صاح بهم صيحة منكرة وقال: يا ويلكم ما أنتم أشفق مني على ولدي! ولكن ما أصنع بمحبتكم إلا بحكم ربي، وما عاهدته على نفسي. هذا وأبو طالب متعلق بأذيال أخيه عبد الله وهو يبكي ويقول: يا أبتِ اترك أخي واذبحني مكانه فإني راضٍ أن أكون محله قرباناً لربك. فقال عبد المطلب: ما كنت بالذي أتعرض لحكم ربي وأُخالفه، فهو الآمر وأنا المأمور، قال: فاجتمعت رؤوساء قريش وقومه وعشيرته وقالوا: يا عبد المطلب عاود صاحب القداح مرة أُخرى، فعسى أن يقع السهم على غيره ويقضي فيه الفرج! قال: فعاد عبد المطلب مرة أُخرى فوقع السهم على عبد الله، فقال عبد المطلب: قضى الله ورب الكعبة! ثم سار هو وولده إلى المنحر، والناس من خلفه صفوف، فلما وصل المنحر عقل رجله بحبل، فعندها ضربت أُمه وجهها ونشرت شعرها، ثم أضجعه وهو داهش لا يدري ما يصنع، وما يفعل من الحزن قال: فلما رأت أُمه أنه قد عزم على ذبح ولدها، مضت مسرعة

إلى قومها وبني عمها وإخوتها، وصرخت بهم فأقبلوا مسرعين، وحالوا بينه وبين عبد الله، وأخذوا الخنجر من يده، وهو لا يسمع عذل عاذل ولا قول قائل، وقد ضجت الملائكة بالتسبيح والتهليل والثناء لرب العالمين، ونشرت أجنحتها وابتهل جبرائيل وتضرع إسرافيل، وهم يستغيثون لربهم فقال الله تعالى: يا ملائكتي إني بكل شيء عليم وإني قد ابتليت عبدي على حكمي.

قال: فبينما هم كذلك وإذا هم بعشرة رجال، حفاة عراة الرؤوس بأيديهم السيوف، وحالوا بينه وبين ولده، فقال لهم عبد المطلب: ما أتى بكم أيها القوم؟ قالوا: نحن أخواله ولا ندعك تفعل به ولو قتلتنا عن آخرنا! ولقد كلفت هذه المرأة ما لا تطيق، فنحن أخواله وأحق الناس به، وكانوا من بني مخزوم. قال: فلما رآهم عبد المطلب أنهم حالوا بينه وبين ولده، رفع طرفه إلى السماء وقال: يا رب منعوني أن أُنفذ حكمك وأوفي عهدك، فيا رب احكم بيني وبينهم بالحق وأنت أحكم الحاكمين! قال: فبينما هم كذلك، إذ أقبل عليهم رجل من كبار قومه، يقال له عكرمة بن عامر، وكان سيد قومه وأشار بيده إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا، وقال: يا أبا الحارث إنك أصبحت سيد الأبطح والمحتوي عليه، ولو فعلت ما عزمت عليه لصارت سنّة من بعدك، يلزمك شنارها، وهذا لا يليق بك ولا يصلح لمثلك، فقال عبد المطلب: أترى يا عكرمة أُغضب ربي وأُخالف عهده وأُرضي عبده؟ قال عكرمة: إني أرى لك ما فيه الصلاح، قال عبد المطلب: إن هذا الذي تراه ما هو؟ قال عكرمة: أيها السيد إن في جوارنا كاهنة عارفة، ليس في الكهان أعرف منها، وإنها تخبر بما في ضمائر الناس وما يخفون من سرائرهم، ولها صاحب من الجن يحدثها بأخبار بني آدم. قال: فلما سمع عبد المطلب كلامه أصغى إليه، وسكن إلى ما فيه، وأجمعوا رأيهم على ذلك، وقالوا: يا أبا الحارث إن عكرمة أشار بالصواب. ثم انصرف الناس وأخذ عبد المطلب جمعٌ من قومه من بني عبد مناف وبني مخزوم، فساروا معه، فأنشأ عند ذلك يقول:

أناشتنا الهموم وضقتُ ذرعاً ولمْ أملِكْ لما قدْ حَلَّ دفْعا[1]

---

(١) أناشتنا الهموم: تناولتنا. ضقت ذرعاً: لم أقدر على شيء.

نــذرْتُ وكــان نــذرُ المــرءِ ديناً وهــلْ حُــرٌّ يــرى للنِــذارِ مَنْعــا

قال: ثم إن القوم ساروا طالبين الكاهنة فوجدوها غائبة، فسألوا عنها قالوا: خرجت في طلب حاجة لها، فساروا قاصدين المكان الذي هي فيه، فلما وصلوا تقدم إليها عبد المطلب، ودفع لها تلك الهدية، ثم سألوها عن خبرهم فقالت: انزلوا واستريحوا يومكم هذا، فإني أُبيّن لكم فرجكم عن قريب، وغداً سيظهر لكم الحاجة. قال: فتفرق القوم عنها. فلما كان من الغد، جاءوا إليها وسألوها عن خبرهم الذي جاءوا إليه، فجعلت تقول شعراً:

يــا مــرحبــاً بــالفتيــةِ الأخيــار الســاكنيــنَ البيــتَ والأسْتــار
قــد خُلِقــوا مــن صلصــلِ الفخّــار ومــنْ عظيــمِ العــزِّ والأنــوار
خُــذوا بقــوْلــي صــح ذي الآثــار أهــل الصفــا والنــورِ والفَخــار
مــنْ هــاشــمٍ سمّــاه فــي الأقــدار أتيتُكــمْ بــالعلــمِ والأخْبــار
قــدْ رامَ مِــنْ خــالقِــه الغفــار يُعطِيــه عشــراً مــن الأذْكــار
مــن غيــر لا نقــصٍ بــإذن البــاري فــواحــدٌ ينحــرُه لــلإنــذار

قال: ثم إنها نظرت إلى عبد المطلب وقالت له: أنت الناذر؟ قال: نعم. جئنا لتنظري في أمرنا، وتعملي حيلة في ولدنا هذا! فقالت: وربّ البرية وناصب الجبال المرسيّة، وساطح الأرض المدحيّة، إن هذا الفتى الذي ذكرته لسوف يعلو ذكره ويعظم أمره، وإني سأرشدكم إلى خلاصه. ثم قالت: وكم الدية عندكم من الإبل؟ قالوا: عشرة فقالت: قدِّموا عشرة من الإبل وارموا عليها السهام، فإن خرج السهم عليه زيدوا عشرة أُخرى، وارموا عليها بالسهام، فإن خرج عليه زيدوها عشرة أُخرى، إلى أن يخرج السهم عليها. فإذا وقع السهم على الإبل، فانحروها عن آخرها، فإنها رضاء ربكم وقبول هديكم. قال: فخرج القوم فرحين، ورجعوا إلى أهلهم مسرورين، فلما وصلوا إلى مكة، خرج أهل مكة مسرعين بما قالت الكاهنة، فأخبروهم بمقالها. ثم إن عبد المطلب أقبل على ولده يقبله ويضمه إلى صدره، وقال عبد الله: يا أبتِ يعزّ علي شقوتك من أجلي. فقال له أبوه: يا بني وددت أن أخرج من جميع أموالي وتسلم أنت! ثم أمر عبد المطلب أن يحضروا جميع ما كان لهم من الإبل،

فأحضرها الرعاة، وأرسل إلى بني عمه يأتون بالإبل، وقال: إن أراد بي ربي خيراً وقاني في ولدي، وإن كان غير ذلك فحكمه نافذ وأمره غالب! قال: وجعل أهل مكة يسوقون أموالهم إليه، ثم أقبل عبد المطلب إلى فاطمة أم عبد الله، وقد قرحت عينها من البكاء، فأخبرها بما كان ففرحت بذلك فرحاً شديداً لما سمعت من خبر الكاهنة، وقالت: أرجو من الله تعالى ربي أن يقبل الفداء ويسامحني في ولدي. وكانت أمه ذات يسار ومال كثير، وكانت أمها سرحانة زوجة عمرو المخزومي، وكان كثير المال والذخائر، وكان لها جمال تسافر إلى الشام والعراق، ثم قالت فاطمة: عليَّ بمالي ومال أُمي ولو طلب ربي ألفي ناقة لقدمتها إليه، وكل ما ملكت يدي. قال: فشكرها عبد المطلب، وقال أرجو أن يكون الرضا في مالي لربي يفرج كربي. وأما الناس فإنهم في فرح وسرور.

قال: وبات عبد المطلب إلى الصباح، ثم أقبل إلى الكعبة وطاف بها سبعاً، وهو يسأل الله عز وجل أن يفرج عنه. قال: فلما أصبح الصباح أمر برعاة الإبل أن يحضروها فأحضروها وأتى بنو عمه بما كان عندهم من المال، وجمعوا مالاً كثيراً، وأخذ عبد المطلب ولده عبد الله وطيبه وزينه، وألبسه أفخر أثوابه، وأقبل به إلى الكعبة والحبل والسكين في يده، وهو يقوده فقالت له زوجته: يا أبا الحارث إرمِ ما في يدك حتى يطمئن قلبي. فقال لها: إني قاصد إلى ربي وأسأله أن يقبلَ مني الفداء في ولدي، فإني بذلت أموالي وأموال قومي، فإن رضي وإلا تجردت وركبت جوادي، وقصدت إلى كسرى وقيصر الشام، وبطارقة الروم وملوك الهند والصين ومشارق الأرض ومغاربها، وأُعطي ربي كل ما يطلب مني، وأُرضي ربي، وأرجو منه أن يفديه كما فدى إسماعيل من الذبح. قال: وسار عبد المطلب حتى قدم الكعبة والناس جلوس صفوف، ينظرون إلى عبد المطلب، فلما أقبل إليهم قال لهم: معاشر الناس إنكم تعلمون منزلة الولد، وأنه لا يواسى به أحد لأنه روح قد خرجت من روح، وما أنتم أشفق مني على ولدي، وقد كان بالأمس منكم زلة وفعلتم منكراً، وإياكم أن تعودوا لمثلها أبداً، وتحولوا بيني وبين ولدي، واتركوني أُناجي ربي، وأنا أرجو منه أن يتكرم علي بولدي، لأنه لم يزل من أهل الجود والكرم.

ثم إن عبد المطلب قدم عشرة من الإبل، وأوقفها من ورائه، ثم تقدم حتى تعلق بأستار الكعبة، وقال: اللهم إن أمرك نافذ لا يمنع منه مانع عنك ودافع، ثم أمر صاحب القداح أن يضربها[1]، فضربها فإذا هي قد خرجت على عبد الله، فقال عبد المطلب: لربي الرضا وسأُرضيه كل الرضا. فقالت قريش: لو أنك قدمت غيرك لكان خيراً منك، فإنّا نخشى أن ربك غضبان عليك. ثم زاد عشرة من الإبل، وأمر صاحب القداح أن يضربها، فضربها فخرج السهم على عبد الله، فقالت قريش وأشرافها: يا عبد المطلب، لو قدمت غيرك لكان خيراً لك، فإنّا نخشى أن يكون ربك غضبان عليك. فقال عبد المطلب: يا قوم إن كان هذا الأمر كما زعمتم، فإن المسيء أحق بالدعاء والتضرع والسؤال لعفو ذنوبه. ثم قال: اللهم إن كان دعائي محجوباً قد حجبته الذنوب والمعاصي، فإنك غفار الذنوب وكاشف الكروب فتكرم علينا بفضلك وإحسانك، يا خير من سئل. ثم زاد على الإبل عشرة أُخرى ورمق بطرفه إلى السماء وقال: اللهمَّ إنك تعلم السر والجهر، يا من هو بالمنظر الأعلى، فاصرف عنه كما صرفت عن إبراهيم الذي وفّى. ثم أمر صاحب القداح أن يضربها ثالثة، فضربها فخرج السهم على عبد المطلب، فقال عبد المطلب: إن هذا لشيء يراد. ثم قال: أصبر فلعل بعد العسر يسراً. ثم أضاف على الثلاثين عشرة، ثم أقبل يدعو ويتضرع ويترنم ويقول، (**أفلح من يصلي على الرسول**):

يـا ربَّ هـذا البيتِ والعبادِ ... إنّ بُنـيَّ أكـرمُ الأولاد
وحبُّـه فـي السمعِ والفؤادِ ... وأُمُّـه بـاكيـةٌ تُنـادي
فـوقّـهِ مـن شفـرةِ الحِـداد ... فـإنـه كـالبـدرِ فـي البِـلاد

قال: ثم أمر صاحب القداح أن يضربها، فضربها فخرج السهم على عبد الله، فقال عبد المطلب: يا بنيّ كيف أبذل فيك الفداء وقد حكم فيك الرب بما يشاء! ثم أضاف إلى الأربعين عشرة أُخرى، وأمر صاحب القداح أن يضربها فضربها، فخرج السهم على عبد الله فقالت أمه: يا عبد المطلب أُريد أن تكرمني أن أسأل الله تعالى في ولدي، فعسى أن يرحم تضرعي! فقال عبد المطلب:

---

(١) ضرب القداح: أجالها.

افعلي ما بدا لك، فعسى أن تكون ذنوبي أوبقتني، فإني أرجو أنك عند الله أرجى مني. قال: فتقدمت أمه وأضافت إلى الخمسين عشرة أُخرى وقالت: يا ربّ رزقتني ولداً وحسدني عليه الحاسدون، وعاندني عليه المعاندون، فلما رجوته أن يكون لي سنداً وعضداً، عارضني فيه أمرك، وأنت تعلم أنه يا رب أحب أولادي وأكرمهم لدي، فافده يا رب واقبل مني الفداء ولا تشمت بي الأعداء. ثم أمرت صاحب القداح أن يضربها، فضربها فخرج السهم على عبد الله، فقال عبد المطلب: لكل شيء دلالة ونهاية، وهذا الأمر ليس لي ولا لك فيه حيلة، فلا تعودي تعارضين في أمر ربك. ثم أضاف إلى الستين عشرة أُخرى وقال: اللهمّ منك المنع ومنك العطاء، وأمرك النافذ كما تشاء، وقد تعرضت عليك بجهلي وقبيح فعلي، فلا تخيب أملي. ثم أمر صاحب القداح أن يضربها فضربها فخرج السهم على عبد الله. قال: فعند ذلك ضج الناس بالبكاء والنحيب، فقال عبد المطلب: ما بعد المنع إلا الرضا ولا بعد الشدة إلا الرخاء، وأنت يا رب تعلم السر وأخفى، ثم أضاف إلى السبعين عشرة أُخرى، وأمر صاحب القداح أن يضربها فضربها، فخرج السهم على عبد الله، فأخذ عبد المطلب الحبل والسكين، وهمّ بولده أن يذبحه، فهم الناس أن يفعلوا به مثل الأول، فقال لهم عبد المطلب: قسمٌ برب الكعبة، إن عارضني أحد في ولدي، لأضربنّ نفسي بهذا السكين وأذبح نفسي! فاتركوني أُنفذ حكم ربي فأنا عبده وولدي عبده، يفعل بنا ما يشاء ويحكم بنا ما يريد. قال: فأمسك الناس عنه، ثم أضاف إلى الثمانين عشرة أُخرى، ثم رجع يقول: يا رب إليك المرجع وأنت ترى وتسمع، ثم أمر صاحب القداح أن يضربها، فضربها فخرج السهم على عبد الله، فوقع عبد المطلب مغشيّاً عليه.

فلما أفاق عظم أمره في المطاولة واللحاح والسؤال، فقال له عبد الله: هلمّ إليّ واذبحني وأنفذ حكم ربك! ولكن يا أبتِ اربط يدي ورجلي، وغط وجهك ووجهي، وكف فاضل ثيابك عني، لئلا تتلطخ بالدم فيكون ذكراً لإخوتي، وأوصيك بأُمي خيراً فسلّي حزنها، وسكّن دموعها، فإني أعلم أنها بعدي لا تلذ بعيش. وأُوصيك بنفسك، فإن خفت ذلك فغمض عينيك تجدني صابراً!.

فقال أبوه: يا بني من كثّر قرع الباب يوشك أن يفتح له، ويؤذن له بالدخول: يا بني الفرج قريب! فبكى عبد المطلب حتى بل لحيته من دموعه، ثم قال: يا قوم كيف أتعرف على ربي وقضائه، وإني أستحي أن أُعاوده مرة أُخرى، فينتقم مني للإساءة، ثم نهض إلى الكعبة وطاف بها سبعاً، ودعا الله تعالى وتمرغ بالتراب، وازداد في الدعاء وقال: يا رب أمضِ حكمك فإني راغب في قضائه، ثم زاد على التسعين عشرة أُخرى فصارت مائة ناقة، وقال: من كثّر قرع الباب يوشك أن يفتح له ذلك، ومن يسأل حصّل الانتفاع، ثم أمر صاحب القداح أن يضربها فضربها فوقع السهم على الإبل، قال: فوقع الناس عى عبد الله ليخلصوه من يد أبيه، ويهنئوه بالسلامة من الذبح، ثم أسرعت أُمه وهي تعثر في أذيالها، فقبلته وضمته إلى صدرها ثم قالت: الحمد لله رب العالمين، الذي لم يبتلني بذبحك ولم يشمت بي الأعداء! قال: فبينما هم كذلك إذ سمعوا هاتفاً من داخل الكعبة يقول: قد قبل ربكم منكم الفداء، وقد قرب خروج المصطفى! ثم قال: بخٍ بخٍ لك يا أبا الحارث! فقد هتف بك الهاتف أنت وابنك.

قال: وهم الناس بذبح الإبل فقال عبد المطلب: مهلاً يرحمكم الله! فإن هذه القداح تصيب وتخطىء، وقد خرجت مراراً كثيرة على ولدي، وهذه مرة واحدة فلا أدري ما يكون فيه. فاتركوني أُعاود مرة ثانية. فقالوا: إفعل ما بدا لك. ثم استقبل الكعبة وقال: اللهمّ يا سابغ النعم، ومعدن الجود والكرم، ومزيل النقم، إن كنت مننت علي بولدي فأظهر لنا برهانك مرة ثانية. ثم أمر صاحب القداح أن يضربها فضربها فخرج السهم على الإبل. قال: فصاحت فاطمة بنت عمر بولدها، وضمته إلى صدرها، وهمّ عمومته أن يأخذوه ويمضوا به فقال عبد المطلب: مهلاً حتى يمضي إلى الفداء! ثم أمرهم بنحر الإبل عن آخرها. قال: فتناهبه الناس فقال عبد المطلب: لا تمنعوا أحداً ولا وحشاً ولا طيراً.

وانصرف الناس ومضى عبد المطلب مع أولاده، فلما رأته الكهنة وأحبار اليهود، وقد تخلص عبد الله من الذبح، وخاب أملهم وبطل عملهم، امتلأوا عليه غيظاً وحنقاً. وكانوا فرحين بذبح عبد الله، فلما فداه الله خاب أملهم، قال

بعضهم لبعض: نعمل حيلة يكون فيها هلاكهم، فقال كبيرهم ـ وكان اسمه طيبون وقيل ربيبان ـ وكانوا يسمعون كلامه ويطيعون أمره وقال لهم: نعمل طعاماً ونضع فيه سمّاً ونهديه إلى عبد المطلب ونقول: هذا طعام عملناه كرامة وإجلالاً لعبد الله، لخلاصه من الذبح! فإن أكلوا انقطعت آثارهم، وعدمت شوكتهم التي كنا نخشى منها، وهاشم أصلها، وتخشى منها الأحبار والكهّان، وعبد المطلب فرعها الذي يتوالدون منه، وثمرها. قال: فعزم القوم على ذلك، وصنعوا طعاماً ومزجوه بالسم، وأرسلوه إلى دار عبد المطلب، مع نساء من نسائهم مختفيات مبرقعات، ليخفى أمرهم ولا يعلم أحد من أين أتين. قال: وكان عبد المطلب وأولاده مجتمعين في دار فاطمة، قال: فقرعن الباب وخرجت فاطمة إليهن، ورحبت بهنّ وقالت لهن: من أين أقبلتن؟ قلن نحن من أقاربكم من بني عبد مناف، وقد دخل علينا السرور لخلاص ولدكم، وقد عملنا وليمة وبعثنا ببعضها، ثم دفعن ذلك لفاطمة. قال: فأخذت فاطمة منهن الطعام ودخلت به إلى عبد المطلب، فذكرت له ما قالت النساء، فلم ينكر شيئاً من ذلك، فغسلوا أيديهم وقال: هلمّوا إلى ما خصكم به أقاربكم. ثم إنهم همّوا بالأكل وكانت أول دلالة ظهرت من نور رسول الله ﷺ، أن الله سبحانه وتعالى أنطق الطعام وقال: لا تأكلوني فإني مسموم! قال: فتفرق عنه القوم، وخرجوا يطلبون النساء فلم يقفوا لهن على أثر، فعلموا أنهن من أعدائهم اليهود، ثم إنهم حفروا للطعام حفيرة وألقوه فيها. قال: وتزوج عبد الله بآمنة بنت وهب أُم رسول الله والحمدلله رب العالمين.

الجزء الخامس:

تزويج آمنة بنت وهب بوالد الرسول (ص)

قال: حدثنا أشياخنا وأسلافنا الرواة لهذا الحديث، قالوا جميعاً: لما قبل الله الفداء، من عبد المطلب، في ولده عبد الله أبي رسول الله ﷺ، فرح فرحاً شديداً، فلما بلغ عبد الله مبالغ الرجال، تطاولت إليه الخطّاب وبذلوا في قربه المال الجزيل، وكان ذلك رغبة في النور الذي في وجهه، ولم يكن في زمانه أجمل منه ولا أكمل، ولا أبهى من عبد الله أبي رسول الله ﷺ، وكان إذا مر بالناس يرون في وجهه النور، ويشمون منه رائحة المسك الأذفر، والكافور والعنبر، وإذا مر بالليل أضاءت من نوره الحنادس[1] والظلام، وأقام عبدالله حتى تزوج بآمنة بنت وهب.

قال الراوي: وكان سبب تزويجها بعبد الله، أن الأحبار قد اجتمعوا بأرض الشام، وتكلموا في مولد رسول الله ﷺ، والدم الذي جرى من جبة يحيى بن زكريا، قال: فلما تحققوا وعلموا أنه قد قرب خروج السيف المسلول، وتظاهرت أنواره، تشاوروا فيما بينهم من المشورة أن يسيروا إلى حبرهم ـ وكان في قرية من قرى الأزد ـ وكانوا يقتبسون من نوره، وكان قد بلغ من العمر مائة سنة قال: فقصده القوم، فلما وصلوا إليه قال: ما قدوم الأحبار وعلماء الأنصار؟ فقالوا: قد أُخبرنا في كتبنا عن هذا الرجل الذي يقال له السفّاك الهتّاك، الذي تقاتل معه الأملاك، يقال له محمد بن عبد الله من آل عبد مناف، وما نلقى عند ظهوره من الأهوال، وقد قرب ظهوره، وقد جئناك لنشاورك في

---

(١) الحنادس: الظلمات الشديدة.

أمره قبل انتهائه. فقال: يا قوم اعلموا أن من أراد إبطال ما أراد الله جاهل مغرور وهذا الرجل الذي ذكرتموه فقد سبق عند الله علمه، فكيف تقدرون على إبطاله، وهو يبطل سحر الكهان، ومزيل دولة الأصنام، وسيكون له وزير وقرين وشأن وأي شأن.

قال: فلما سمعوا كلامه حاروا، وكان لهم حبر من أحبارهم، يقال له هيوبا بن داحورا، وكان متمرداً قوياً شديد البأس عظيم المراس، قال: يا قوم إن هذا الرجل قد كبر وخرف وقد قلّ عقله، إياكم أن تسمعوا قوله، ثم قال لهم: أرأيتم الشجرة إذا انقطع أصلها فهل تعود خضراء؛ قالوا: لا. قال: فإن قتلتم صاحبكم الذي يخرج من صلبه هذا المولود، فما الذي تخافون منه؟ فتفرقوا من وقتكم وساعتكم، وخذوا معكم تجارة، وسيروا إلى البلد الذي هو فيها ـ يعنون مكة ـ فإذا حصلتم في مكة دبروا الحيلة في هلاك هذا الرجل. قال: فقصدوا قوله وقالوا: أنت سيدنا وعمادنا! فقال لهم: انظروا بما أفعل وما آمركم به، ثم أُريد أن آخذ عليكم العهد والميثاق، وأنا معكم بسيفي ورمحي، وأسير معكم حتى تعاهدوني ولا تخالفوني، فليعمد كل واحد منكم إلى سيفه ويسقيه من السم، فهو أشفى لعلّتكم. قال: فأجابوه إلى ذلك، وعاهدوه على أنهم يجتمعون، قال: وخرجوا بجمالهم وحملوا ما يصلح مما يحتاجون إليه في السفر، ثم إنهم ساروا حتى قدموا مكة، وإذا بهاتف يسمعون صوته ولا يرونه، وهو ينشد ويقول (**أفلح من يصلي على الرسول**):

قصدْتُمْ لأقصى القولِ في السرِّ والجهْرِ تريدونَ مكْراً في المعظمِ والقدْرِ
فمنْ غالبَ الرحمٰنَ لا شكَّ أنه سيرميه بارينا بقاصِمَةِ الظهْ
ستمضون يا شرَّ الأنامِ كأنكم نعامٌ أُسيقَتْ للذِباحَةِ والنَحْرِ

قال: فلما سمعوا كلام الهاتف، همّوا بالرجوع فقال لهم هيوبا: يا قوم اعلموا أن هذا الوادي، قد كثرت فيه الكهان والشياطين، وأن هذا الهاتف شيطان قد أخذ سرّكم، وعلم قصدكم، فلا تخافوا. فعند ذلك تبادر القوم، وكان كل من لقيهم يحدثهم بحسن عبد الله وجماله، فوقع الكمد في قلوبهم إلى أن وصلوا مكة، فلم ينكر عليهم أحد مما في قلوبهم، وظنوا أنهم تجار،

يسومون متاعهم ولا يبيعون منه شيئاً، وإنما يريدون بذلك المقام في مكة، والحيلة في قتل عبدالله بن عبد المطلب. قال: فأقبل عبد المطلب ذات يوم على اليهود، وهو قابض على يد ولده عبد الله، وكان عبد الله قد رأى رؤيا ففزع وجزع، وجاء مرعوباً إلى أبيه، فقال له: يا بني ما الذي دهاك؟ صرف الله عنك كل محذور، ووقاك ما تخافه من الشرور. فقال: يا أبت قد رأيت سيوفاً مجردة، في أيدي قردة، وهم قعود على أدبارهم، وأنا أنظر إليهم وهم يهزّون سيوفهم، ويشيرون بها إلي، فعلوت عنها في الهواء، فبينما أنا كذلك، وإذا بنار من السماء زادتني خوفاً، وقلت: كيف الخلاص؟ فبينما أنا كذلك، وإذا أنا بالنار قد وقعت على القردة، فأحرقتهم فزادتني رعباً، فقال أبوه: وقاك الله شر ما تخاف وتحذر من الحساد والرصّاد[1]، فإن الناس يحسدونك على ذلك النور الذي في وجهك، ولو اجتمع أهل الأرض على إطفائه لعجزوا عن ذلك، لأنه وديعة الله عز وجل، وهو نور الله ونور خاتم الأنبياء، وها هنا أحبار اليهود من الشام، وفيهم الحكمة والمعرفة فقم معي حتى نقص عليهم رؤياك!.

ثم قبض على يد ولده ومضى إليهم، قال: فلما نظروا إليه وهو كأنه البدر المنير، أقبل بعضهم ينظر إلى بعض وقالوا: هذا الذي تطلبوه! فأقبل عبد المطلب بولده، ووقف بين أيديهم وقال: معاشر الأحبار جئنا إليكم لتخبرونا عن رؤيا ولدي، فقالوا: ما الذي رآه؟ فقصّ عليهم رؤياه، فزادهم هماً وغماً، فقالوا: أيها السيد الكريم، إنما هذا أضغاث أحلام وخطرات منام، وأنتم سادات كرام ليس لكم معاند ولا معاضد قال: ثم إنه انصرف بولده، ثم أقاموا بعد ذلك أياماً يدبرون الحيلة، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، ولم يصلوا إلى ما دبّروا ولم يقدروا على شيء. وكان عبد الله مولعاً بالصيد والقنص، وكان إذا خرج إلى الصيد، لا يرجع إلى الليل، وكان خروجه من عند أبيه عبد المطلب، فلم يجدوا إليه سبيلاً حتى خرج ذات يوم وحده، فطمعوا به وخرجوا في أثره، وجدّوا المسير عازمين على أن يظفروا به، فقال بعضهم لبعض: إننا نخاف من فتيان بني هاشم، وهم رجال لا يطاقون، وقد ذلّت لهم العمالقة،

---

(١) الرصّاد: الرقباء.

وفزعت من سيوفهم الجبابرة، ونخشى أن يشعروا بنا، ويخرجوا من ورائنا. قال: فلما سمع مقالهم هيوبا قال لهم: خاب سعيكم! فإن كنتم هكذا فما الذي أتى بكم إلى هاهنا؟ ثم قال: لا بد من قتل هذا الغلام ولو طال عليكم المقام، فلم تجدوا يوماً أحسن من هذا اليوم، فإن قتلناه واتهمونا بديته فأنا أُسلمه من مالي!.

قال: وبعثوا عبداً من عبيدهم ينظر إلى أين يتوجه عبد الله، فرجع العبد وأخبرهم أن عبد الله غاب بين الشعاب[1] والجبال، وقد خرج من العمران وليس معه إنسان. قال: فعزم القوم على ما أملوه، وجعلوا نصفاً منهم عند متاعهم، والنصف الآخر جعلوا سيوفهم تحت ثيابهم، وخرج العبد الذي أخبرهم بأي مكان هو، وساروا حتى أوقفهم على رأسه، ثم قال: يا قوم دونكم ما تطلبون! قال: وكان عبد الله قد صاد حمار وحش وهمّ أن يسلخه وإذا بالقوم قد أقبلوا إليه قاصدين، فقال لهم هيوبا بن داحورا: هذا صاحبكم الذي خرجتم لأجله. قال: فما أحسّ عبد الله إلا والقوم قد أحاطوا به، وكانوا قد تفرقوا فرقتين، وقد قالوا للذين تركوهم عند متاعهم: إذا دعوناكم أجيبونا مسرعين. قال: فلما أشرفوا على عبد الله وقد سدوا الطريق عليه، وزعموا أنهم حكموا عليه، فرفع رأسه ونظرهم، وإذا هم محدقون به[2]، فعلم أنهم يريدون قتله قال: فترك ما كان في يده وأقبل عليهم وقال: يا قوم ما شأنكم؟ فوالله ما سبقت يدي على أحد بمكروه أبداً فتطلبوني به، ولا مال غصبته ولا قتلت أحداً فتقتلوني! فما حاجتكم؟ فإن يكن سبق مني إليكم ذنب، فأخبروني حتى أعرف ما هو. قال: وإن اليهود قد تلثّموا، ولم يبن منهم إلا حماليق الحدق، فلم يردوا عليه جواباً، فأشار بعضهم إلى بعض وهمّوا أن يهجموا عليه. قال: فوضع عبد الله سهماً في قوسه ورمى به نحوهم، فأصاب واحداً منهم فوقع ميتاً بحينه. ثم رماهم بأربع نبال أصاب بها أربعة رجال، قال: فاشتغلوا عنه بأنفسهم، فأخذ الخامسة وأنشأ يقول: **(أفلح من يصلي على الرسول)**:

---

(١) الشعاب: الطرق في الجبل.

(٢) محدقون به: محيطون به.

وَلـي همّـةٌ تعلـو علـى كـلِّ همّـةٍ ... وقلبٌ صبورٌ لا يَروعُ من الحربِ
ولـي نبلـةٌ أرمـي بهـا كـلَّ ضيْغَـمٍ ... فتثبُتُ في اللّباتِ[1] والنحرِ بالقلبِ
بـأربعـةٍ منّـا أصـابَـتْ وأربـعٍ ... ولو كاثَروا واصَلتُ بالطعنِ والضرْبِ
أخـذْتُ نِبـالـي ثـم أرْسَلْـتُ بعضَهـا ... فصارَتْ كبرقٍ لاحَ في خَلَلِ السُحْبِ

قال: فلما سمعوا منه، قال هيوبا بن داحورا: يا فتى احبس عنا نبالك، فقد أسرفت في مقالك وقدر فعالك، وقد قتلت منا رجالاً من غير ذنب ولا سبقت إليك منا أذية، ونحن تجار ونحن الذين وقفت علينا بالأمس مع أبيك، وكان لنا عبد وقد هرب، فلما رأينك حسبنا أنك هو، فقد ما عرفناك أنك عبد الله فقنا لأنفسنا وليس لنا معك عداوة، وأنت أعز الخلق علينا وأكرمهم إلينا، فامض لحال سبيلك، فقد سمحنا لك بما فعلت فينا. فقال لهم عبد الله: يا ويلكم ما الذي تبين لكم أن عبدكم مثلي؟ أو له صفة مثل صفتي، أو نوره كنوري أو عبدكم يقنص الوحوش؟ قالوا: داخلنا الشك وأنت متباعد عنا، فلما قربنا منك عرفناك، فاسمح لنا بما سبق إليك منا، فإنا نسمح بما فعلت، وقد قتلت منا رجالاً بلا ذنب لهم، ونحن حيث أكلنا طعام أبيك وشربنا شرابه، فنحن له شاكرون وأنت أولى بكتمان الأمر، فلما سمع عبد الله كلامهم، زعم أنه حق منهم، وهي خديعة. ثم إن عبد الله ركب جواده وأخذ قوسه، وعطف إلى ناحية المضيق، فلما رآه القوم قد أقبل عليهم يريد الخروج، بادروا إليه بأجمعهم وجعلوا يرمونه بالحجارة، وقاموا إليه بالسيف، فجعل يكر عليهم مرة بعد أُخرى، فعندها صاح بهم هيوبا بن داحورا، فبادروا إليه واجتمعوا عليه، وهو يكر عليهم يميناً وشمالاً، وكلما رمى رجلاً خر صريعاً.

ونزل عبد الله واستند إلى جانب المضيق، وقد هجموا عليه بأجمعهم، وهم يرمونه بالحجارة من كل جانب ومكان، فبينما هم بالمعركة وإذا هم برجال قد أقبلوا، وبأيديهم السيوف الهندية، متقلدين الرماح الخطية، لابسين الدروع المجليّة، وهم مسرعون نحوهم، فتأملوهم وإذا هم بنو هاشم وبنو عبد مناف وفتيان مكة، وكان أولهم عبد المطلب والحمزة والعباس، فعند ذلك ناداه عبد

---

(١) اللبّات: النحور.

المطلب: يا بني هذا تأويل رؤياك. قال: فلما استتم كلام أبيه عبد المطلب، حملوا عليهم. قال الراوي: وكان أخبرهم بخبره رجل يقال له وهب، لأنه قد أشرف عليهم وهم بالمعركة، فهمّ أن ينزل عليهم بنفسه فقال: ما أصنع بأعداء الله وأنا واحد، ثم أقبل إلى الحرم وصاح: يا بني عبد المطلب! فبادروا إليه مسرعين، فأخبرهم بخبر عبد الله، وأقبلوا إليه مسرعين. قال: فلما رآهم اليهود أيقنوا بالهلاك، ونزل بهم من الله ما لا يرد، ثم قال لهم: ما شأنكم؟ قالوا: إنما أردنا أن نعلم بحقيقة الحال. فقال لهم: هيهات قد علمناكم وجاهدتم أنفسكم بالهلاك. قال: وأما الفرقة التي كانت عند الأمتعة، فإنهم همّوا بالفرار من المضيق، حتى ظنوا أنهم نجوا، فأتاهم أمر الله فسقطت عليهم من الجبل قطعة، فسدّت عليهم المضيق، فلم يجدوا مهرباً من الله. قال: فلحقهم عبد المطلب وأصحابه وأهل مكة. وأما الفرقة الأُخرى التي كانت من الجانب الآخر، مع هيوبا عدو الله فقد قتلوا منهم ما شاء الله، ثم قال رجل من اليهود: دعونا نصل إلى البلد وافعلوا بنا ما تشاءون، فإن لنا مع الناس متاع ومال وأشياء كنّا خلفناها، وأنتم أحق به فخذوه ولا تقتلونا حتى نصل إلى البلد. قال: فكتفوهم عن آخرهم وأقبلوا على ناحية الطريق، وساقوا الجميع إلى مكة. وأقبل عبد المطلب إلى مكة، وأقبل على ولده وهو يقول: يا ولدي لولا وهب بن عبد مناف أخبرنا بما كان خبرك، ما علمنا بخبرك، ولكن الله يكفيك ويقيك من كل سوء. ثم ساقوا اليهود مكتفين وساروا إلى مكة، فلما أشرفوا على مكة، خرج الناس يهنّؤنهم بالسلامة، وإذا باليهود مصفدين أسارى، فجعل الناس يرمونهم بالحجارة، وهمّوا أن يقتلوهم فصاح بهم عبد المطلب وقال: أرسلوهم إلى دار وهب بن عبد مناف.

قال: فلما كانت تلك الليلة أقبل وهب بن عبد مناف إلى زوجته برة بنت عبد العزيز، وقال لها: يا برة رأيت اليوم عجباً من عبد الله بن عبد المطلب ما رأيته من أحد، وهو يكر على القوم، وكلما رمى نبلة قتل بها واحداً، وقد تفرق عنه القوم، وقد رغب فيه الناس لما خصه الله من الحسن والجمال، والنور الساطع والضياء اللامع، فامضي إليه وإلى أبيه واخطبيه لابنتنا، واعرضي عليه

فعسى أن يخطبها ويقبلها فإن قبلها سعدنا. ثم قالت له زوجته: يا وهب إنه رد نساء مكة وأشراف الحرم، وقد رغبوا فيه فأبى عن ذلك، فكيف وقد كاتبه ملوك الشام والعراق على التزويج ببناتهم، فأبى عن ذلك، وكيف يتزوج بابنتنا وهي قليلة المال والجمال؟ فقال لها: إن لي اليوم عليهم يداً بما أخبرتهم عن أمر عبد الله من اليهود، فعسى أن يرغب فينا وفي ابنتنا آمنة. قال: ثم إن برة قامت وأفرغت عليها أفخر أثوابها، وخرجت حتى أتت دار عبد المطلب، فوجدته يحدث أولاده عن اليهود وما لقي منهم، فعندها دخلت برة وقالت: أنعم الله مساكم ودامت إليكم النعماء في صباحكم ومساكم فردوا عليها السلام، فقال لها عبد المطلب: وأنت وقيت الردى وكفيت الأذى، وأدام عليكم النعماء، وجعلكم أهل الصلاح والفلاح، ولقد سلف لبعلك اليوم علينا يد، يستحق أن نكافيه اليوم عليها بالنعمة والشكر، وسنكافئه إن شاء الله تعالى بما فعل معنا من الجميل. قال: فلما سمعت برة كلامه طمعت بما هي فيه من القوم، ثم قال عبد المطلب: بلّغي عنا بعلك التحية والإكرام، واذكري له إن كان له عندنا حاجة، فإنّا نقضيها له مهما كانت.

فقالت: يا أبا الحارث، إنا قد طلبنا بتعجيل المسرّة، وقد علمنا أن ملوك الأرض تطاولت إليكم، وقد رغبوا في ولدكم، ويطلبون فوزكم ورفقتكم عن الخلق ومقداركم، وقد طمعنا فيه مع جملة من طمع، ورجونا مع جملة من رجا وحاجة وهب أن يكون عبد الله زوجاً لابنته، وقد جئتكم خاطبة راغبة طامعة فيكم لابنتنا، ونسألكم أن تقبلوها فإن كان مالها قليل فعلينا ما نجملها به، وهي هدية منا لابنك! قال: فلما سمع كلامها نظر إلى ولده، وكان قبل ذلك، إذا عرض عليه التزويج من بنات الملوك، يظهر في وجهه الامتناع، فقال أبوه: يا بني ما تقول فيما سمعت، فوالله ما في بنات مكة مثلها لأنها محتشمة في نفسها، طاهرة مطهرة الأذيال. قال: فسكت عبد الله ولم يرد جواباً، فعلم أبوه أنه قد مال إليها، فقال عبد المطلب: قبلنا منكم وأجبنا مسألتكم، ورضينا لعبد الله ابنتكم، وسأمضي إليها بنفسي. قالت فاطمة أُم عبد الله: وأنا أسير معكم إليها، إن رضيت بها وأعجبتني فأُزوجها بولدي. قال: فرجعت برة فرحة مسرورة ولم تصدق بما سمعت من عبد المطلب، ثم سارت مسرعة إلى بعلها، فقال لها

وهب: ما وراءك؟ فقالت له: يا هذا سعدت وسعد جدّك[1]، وعلا في الناس ذكرك ومجدك وارتفع قدرك! وقد رضي عبد المطلب بابنتك، ولكن مع الفرحة ترحة. قال: ما هي؟ قالت: إن فاطمة تريد أن تنظر إلى ابنتك آمنة، فإن رضيتها تمّت المصاهرة، وإني أخاف أنّ لا ترضاها. فقال لها وهب بن عبد مناف: اخرجي إليها وزينيها، وأفرغي عليها أحسن ثيابها، وقلديها أحسن ما عندك، فعسى ولعل ترضاها. قال: فعمدت برة إلى ابنتها آمنة، وألبستها أفخر ثيابها، وضفرت شعرها وأرخت ذوائبها على أكتافها، وطيبتها وقلدتها بقلائد من اللؤلؤ الرطب، وقالت: يا بنية إذا أتتك فاطمة وخطبتك، فإياك أن تعرضي عنها، وارغبي في النور الكريم والرجل العظيم، والبحر الخضم الجسيم.

قال: فبينما هي تخاطبها، وإذا قد دخلت عليهم فاطمة أُم عبد الله، فقامت آمنة لفاطمة إجلالاً وتعظيماً لها، ورحبت بها وأجلستها إلى جانبها، وقد كساها الله نوراً وجمالاً، وجمّلها في عين فاطمة أُم عبد الله، وذلك لما سبق في علم الله أنه يخرج منها سيد الأولين والآخرين، وخيرة خلق الله وصفوته من خلقه محمد ﷺ.

قال: فلما رأت فاطمة آمنة في ذلك الحسن والجمال، وقد أضاء من نور وجهها الدار، قال: فتعجبت فاطمة من حسن آمنة، وأقبلت إلى أُمها برة وقالت: ما كنت أرى آمنة بهذا الحسن والجمال والصفة، ولقد رأيتها مراراً كثيرة، ما كنت أراها على هذه الهيئة! فقالت لها برة: يا فاطمة كل ما رأيت من حسنها فهو من بركتكم! وإنك لترضينها لعبد الله قال: فخاطبت آمنة فوجدتها أفصح بنات مكة لساناً، فلما رجعت فاطمة، قالت لولدها عبد الله: يا ولدي، ما في بنات مكة أحسن منها جمالاً ولا بهاءً ولا كمالاً ولا أعقل من آمنة، فإن ذلك من احسان الله وفضله إذ خصنا بأفضل معشر، وإن الله عز وجل لا يودع نور صفية وحبيبة إلا في طهر وعفاف وشرف.

قال: فلما وقع الحديث بين عبد المطلب وبين وهب في ابنته آمنة قال: يا أبا الحارث إنها هدية منا إليك لولدك، بغير صداق يكون معجلاً ولا مهراً

---

(١) جدّك: حظّك.

مؤجلاً، فقال عبد المطلب: جزيت خيراً، ولا بد من الصداق يكون بيننا تشهد به قومنا وقومك.

قال الراوي: ثم إن عبد المطلب همّ أن يمد إليه شيئاً من المال ليصلح به شأن ابنته، فسمع همهمة وأصواتاً فوثب وهب وسيفه مسلول، وقاموا جميعاً قال: وكان سبب ذلك أن اليهود الذين كانوا محبوسين في دار وهب، فزعوا وداخلهم الرعب، وكانوا في دار خالية، فحركهم الشيطان لهلاكهم، وكان حبرهم هيوبا قال: يا ويلكم أنتم مقتولون لا محالة! فقوموا وخاطروا بأنفسكم، فعسى أن تظفروا بهم جميعاً، وتقتلوهم، وتخرجوا في هذه الليلة على وجوهكم. قال: ثم إن هيوبا تمطى في كتافه ـ وكان من جلد ـ فقطعه ثم حل أصحابه، وقال بعضهم: بمَ نقاتلهم وليس معنا سلاح؟ قال هيوبا: نهجم عليهم بالحجارة وهم غافلون. قال: فعند ذلك تبادر اليهود وهيوبا في أولهم، ومع كل واحد حجران، وأقبلوا حتى وقفوا قريباً من عبد المطلب وولده عبد الله ووهب، وهم قعود في ضوء المصباح، واليهود يرمونهم، قال: فعند ذلك رموهم بالحجارة التي كانت معهم، قال: فرد الله الحجارة عليهم وهشمت[1] وجوههم، فمنهم من وقع في رأسه وذلك بقدرة الله تعالى، ومن بركات رسول الله ﷺ. قال: فنظر عبد المطلب إلى هذا الأمر، وتعجب من قدرة الله تعالى، وخرج بنوهاشم، وقالوا: يا أعداء الله! ما رأيتم ما حل بكم بالأمس؟ ولكن الله خذلكم لانقطاع آجالكم. ثم حملوا عليهم وقتلوهم عن آخرهم، وكفى الله شرهم. قال: وكان عبد المطلب لا يفارق سيفه أينما توجه خوفاً على ولده، لما يعلم من كثرة أعدائه وحسّاده. قال: فلما قتلوا اليهود، خرج عبد المطلب وزوجته وولده وقالوا: يا وهب إذا كان في غداة غد تخرج قومنا وقومك، وتشهد علينا وعليك بما يكون من الخطاب والصداق، فقال وهب: يا عبد المطلب جزاك الله عنا خيراً.

قال: فلما برق ضياء الصباح ولاح الفجر بالفلاح، أرسل عبد المطلب إلى بني عمه يحضرون الخطبة، ولبس عبد المطلب أفخر أثوابه، وجمع وهب

---

(١) هشمت: حطمت.

أيضاً أقاربه وبني عمه، واجتمعوا في الأبطح، قال: فلما أشرفوا عليهم قاموا إجلالاً لعبد الله وأبيه عبد المطلب وأولاده، ثم استقر بهم الجلوس فخطبوا خطبتهم وعقدوا عقد النكاح، فقام عبد المطلب فيهم خطيباً وقال: الحمد لله حمداً، استوجب بما أنعم علينا وأعطانا، وجعلنا لبيته جيراناً ولحرمه سكّاناً، وألقى محبتنا في قلوب عباده، وشرّفنا على جميع الأُمم، ووقانا شر الآفات والنقم، والحمد لله الذي أحل لنا النكاح، وحرم علينا السفاح، وأمرنا بالاتصال وحرم علينا الحرام. اعلموا أيها الناس أن ولدنا الذي تعرفونه عبد الله، قد خطب بنت وهب بالصداق المعجل، ألف مثقال من الفضة البيضاء، ومؤجل ألف مثقال من الذهب الوهّاج، فهل رضيتم بذلك من ولدنا؟ فقال وهب: قد رضينا فقال عبد المطلب: اشهدوا أيها الناس والله على كل شيء شهيد. قال: ثم إنهم تصافحوا وتعاقدوا، وأولم عبد المطلب وليمة، حضرها جميع أهل مكة وأوديتها وشعابها، وأقام الناس فيها سبعة أيام.

قال الراوي: فلما تزوج عبد الله بآمنة بنت وهب، قام معها أياماً والنور في وجهه، ولم يزل حتى نفذت مشيئة الله تعالى وقدرته، وأراد أن يخرج خيرته من خلقه محمد ﷺ، وأن يشرّف به الأرض، وينوّرها بعد ظلامها، ويطهرها بعد دنسها، أمر جبرئيل أن ينادي في أهل السماوات والأرض، قال: فنادى جبرئيل في صفوف الملائكة المقربين والحافّين، وحملة العرش وعند سدرة المنتهى، وعند جنة المأوى: إن الله جل جلاله قد تمت كلمته وحكمته، ونفذت مشيئته وإنه تمّ وعده الذي وعده من ظهور نبيّه البشير النذير السراج المنير، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى عبادة الله تعالى.

وقال الشاعر (**صلوا على خير الورى**):

نَسَبٌ بـه أضحى الكمالُ مُكَمـلاً ... وكساهُ فخراً باهراً ربُ العلا
نسبٌ بـه حازَ الكمالَ بأسْرِه ... ورقا يزفّ بحسنه بين المَلا
يا فوزَ آمِنةَ برؤيا حُسْنِهِ ... وتباشرَتْ بقدومه وحشُ الفَلا
جبريلُ نادى معلِناً هذا الذي ... في الناسِ أضحى مُرْسَلاً ومُجملا
هذو الذي ما مثلُه من مرسَلٍ ... واللهُ يعطيه الكرامةَ أوّلا

واللهُ خـصّ محمـداً بفضـائـلٍ ... مـن نـورِه نـورُ الشـريعـةِ قـدْ عـلا
مـن نـورِه للعـرشِ نـورٌ ظـاهـرٌ ... مـن نـورِه الكـرسـيّ قطعـاً ينْجـلا
صلّـى عليـهِ اللهُ ربّـي دائمـاً ... مـا دامـت الـدنْيـا وزادَ الفضـلا

وهو صاحب الأمانة والصيانة، فيظهر نوره في البلاد، ويكون رحمة للعباد، وقد وعد من أحبه بالشرف والرضا، ومن أبغضه بسوء القضاء، وهو الذي عرض عليكم من قبل أن يخلق آدم، واسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد وفي الجنة أبو القاسم قال: فأجابته الملائكة بالتهليل والتكبير والتسبيح والتقديس، والثناء لرب العالمين، وفتحت أبواب الجنان، وغلقت أبواب النيران، وأشرفت الحور الحسان، ونطقت الأطيار على رؤوس الأغصان، بالتقديس للملك الديّان؛ قال: فلما فرغ جبرئيل من أهل السماء، أمره الله تعالى أن ينزل في مائة ألف من الملائكة، إلى أقطار الأرض وإلى جبل قاف، وإلى خزّان سحاب الأمطار والفيافي[1] والقفار، يبشرهم بخروج رسول الله، وإلى الأرض السابعة وإلى بهموت، وإلى مستقر الحوت، فأخبرهم بخبره، فمن أراد به خيراً ألهمه محبته، ومن أراد به شراً ألهمه بغضه، وزلزلت الشياطين وطردت عن مواضعها التي كانوا منها يسترقون السمع ورجموا بالشهب، قال صاحب الحديث: إنه كان ليلة الجمعة عشية عرفة وقال الشاعر (**صلّوا على خير الورى محمد وآل محمد**):

يـا حسنَهـا مـن ليلـةٍ جُليَـتْ بهـا ... مـن أجـلِ أحمـدَ سيِّـدِ الأكـوانِ
قـومـوا لآمنـة علـى كـرسـي الـرّضـا ... حتّـى تـراهـا الحـورُ والـولـدانِ
فـي حليـةٍ ذهبيـةٍ قـد أقبلَـتْ ... صَفْـرا مشـرقـةً إلـى السلْطـانِ
في أخضريْنِ تمايَلتْ لما انجَلَتْ ... اللهُ فضَّلهـا علـى النِّسْـوانِ
قـدْ جهَّـزوهـا وسلـبَ كـلُ الـورى ... فـي حُسْنهـا يـا معشـرَ الإخـوان
قـدْ أقبلَـتْ فـي حلـةٍ بيضـاءَ وهـي ... تسبـي العقـولَ وتسلُـبُ الأذهـانِ
يـا بـنَ عبـدِ المطَّلِـبِ انهـضْ وقُـمْ ... واكشِـفْ عـنِ المنـديـلِ تـرا قَمَـرانِ
لمّـا كشـف أبـو النبـيِّ عـن وجهِهـا ... بـدراً رأى مـا فيـهِ مِـنْ نُقْصـانِ

(١) الفيافي: المفاوز لا ماء فيها.

يـا آمنـةَ سِلّـي لـهُ سيْـفَ الـرّضـا ... قـالَـتْ أُريـد وغْـراً يكـونُ يمـانـي
قـالَ فسِلّـي السيـفَ إنـك تحمِلـي ... بمحمـدٍ سيـف بنـي عـدنـانِ
نـزلَـتْ مـلائكـةُ السمـاءِ بعُـرْسِهـا ... وبشَّـروهـا بـالنبـي العـدنـانِ
قوموا مشِّطوها واعدلِوا هاماتِها ... وارْقـوا بهـا أعـلا المـراتـبِ عـانِ
حلّوا ضفـائـرهـا وأرْخـوا شعـرَهـا ... سبـلٌ مـن الكتفيـن للقـدمـانِ
خـدامُهـا قُـدّامهـا قـدْ أقبلـوا ... بمبـاخِـرِ الفضـةِ وعـودِ البـانِ
قـد ألبسـوهـا التـاجَ فـوق جبينِهـا ... قـدْ رصَّعـوا بـالـدرِ والمـرْجـانِ
حـورُ الجنـانِ قـد أقبلَـتْ خـدّامهـا ... نثـروا عليهـا المسـكَ فَـتَّ ختـانِ
يا آمنة قومي البَسي حُلَلَ الرضا ... مـن كـل لـونٍ فـاقَ فـي الألـوانِ

قال: وكان عبد الله قد خرج مع اخوانه وأبيه وبني عمه، فبينما هم سائرون، وإذا هم بنهر عظيم فيه ماء زلال، ولم يكن قبل ذلك اليوم هناك ماء ولا نهر، قال: فبقي عبد الله متفكراً متعجباً، ولم يجد طريقاً وقد قطع عليه الجادة، قال: فبينما هو كذلك إذ هتف به هاتف وقال: يا عبد الله اشرب من هذا النهر! قال: فشرب منه، فإذا هو أبرد من الثلج وأحلى من العسل وأذكى من المسك، فنهض مسرعاً إلى اخوته وأبيه، وأخبرهم بما رأى من ذلك النهر، فتعجبوا منه. ثم إن عبدالله مضى مسرعاً إلى منزله، فلما رأته زوجته آمنة طائش العقل، قالت له: صرف الله عنك الطوارق[1]. فقال لها: يا آمنة تطهري وتطيبي وتعطري، فعسى الله أن يستودعك هذا النور. قال: ففعلت آمنة فغشيها تلك الليلة، فحملت بمحمد ﷺ، وانتقل النور الذي في وجهه إلى آمنة بنت وهب. قالت: لما دنا مني ولامسني، ملئت منه نوراً، وأضاء منه نوراً كأنه مصباح وهّاج، فأنارت منه الظلمة، فأدهشني ذلك النور. وكانت آمنة بعد ذلك ترى النور في وجهها كالمرآة المضيئة الصافية، والنور يسطع من وجهها من نور محمد ﷺ. وقد قال الشاعر **(صلوا على خير الورى محمد وآل محمد)**:

آمنـةٌ فـي أمـانيهـا ... مليحـةٌ فـي مَعـانيهـا
تجلّـتْ وانجلَـتْ حقـاً ... سـألـت اللهَ يُبقيهـا

(١) الطوارق: المصائب المفاجئة.

ضفـائـرُ شعـرِهـا حلّـتْ علـى أكتـافِهـا دلّـتْ
وأمـلاكُ السمـاءِ ابتهلَـتْ ونظـروا لِمعـانيهـا
جبيـنٌ كـالبـدر يـاضـي وذكـرُه شـافـي أمْـراضـي
لهـا ربُ السمـاءِ قـاضـي فـوالله خـاطِـري فيهـا
لهـا حـاجـبٌ كـالأقيـاسِ وتتمـايـل كشطْـب اليـاسِ
ومـا مِـنْ مثلِهـا فـي اليـاسِ أبـو المختـار حظـي فيهـا
لهـا خـدٌ كمـا التفـاحْ روائـحُ عطـرِهـا قـدْ فـاحْ
نظـرَ لهـا بقـي مـرتـاحْ وحـازَ سعـودَهُ فيهـا
لهـا عنـقٌ كمـا المـرمـرْ وريـقٌ أحلـى مـنَ السكَّـرْ
وهـي تجلَـى وتتبختـرْ وحـورُ العيـنِ تحْـويهـا
جَلـوهـا بـالحُلـل والنـورْ إلـهُ العـرشِ لهـا نـاطـورْ
ونَثَـروا اللـؤلـؤَ المنثـورْ وحـورُ العيـنِ تحْـويهـا
جَلـوهـا بـالحُلـل والتـاجْ إليهـا خـاطـرٌ قـدْ هـاجْ
وحـاجُ الحـاجِ لهـا مُحتـاجْ ونظـروا لِمعـانيهـا
جَلُـوهـا ليلَـةً خضـرا وكـانَـتْ ليلـةً قَمْـرا
وهـي تـاضـي كمـا الـزهْـرا أبـو المختـار حظـي فيهـا

قال صاحب الحديث: لما حملت آمنة بنت وهب برسول الله، أتى أهل مكة يهنّئونها حيث أضاء النور في وجهها، وقال الشاعر:

يـا آمنـة بُشْـراكِ ربُّ السَّمـا هنَّـاكِ
بمحمـدٍ منَّـاكِ سبحـان مَـنْ أعطـاكِ
حمَلْتـي بـالحبيـبْ وصَفْـوةِ اللهِ المجيـبْ
عيشُكِ في الدُنيا يصيبْ عَنْ كيدِ منْ عاداكِ
حملْتـي بـالـرسـولْ وصـاحِـب القَبـولْ
بـأبـي البَتـولْ اللهُ بـهِ هَـداكِ
حملتـي بـالمختـارْ وصـاحِـب الأنـوارْ
ابـنُ عمِّـه الكـرّارْ نُـور النّبـي الـزاكـي

حملتـي بـالعـدْنـانِ وصـاحـبِ الإحسـانِ
وتـالـي القـرآنِ بـالمصطفـى منَّـاكِ
حملتـي بـالمـؤيـد المصطفـى الممجَّـد
الهـاشمـيّ أحمـد اللهُ بـه حَبَـاكِ
حملْتـي بـالمليـح أبلـجَ كـالصبيـح
مـن قـدرة رجيـح اللهُ بـه حَمَـاكِ
حملتـي يـا أمينـهْ بسـاكـنِ المـدينـة
وصـاحـبِ السكينـة ونُصْـرةِ الأمـلاكِ
حملتـي بـالشفيـعْ وسـاكـن البقيـعْ
ونـورُه البـديـعْ قـد عَطَّـر الأمـلاكِ
أمدحُ أنا خيرَ البشرْ الهاشميَّ صفوةَ مُضَرْ
مـن أجلِـه انشـقَّ القمـرْ واخَجْلَـةَ الأشـراكِ
أمـدحُ نبِـي عـربِـي وبمَـنْ بمكَّـة قـدْ رَبِـي
الهـاشمـي اليثـربـي ونـورَه الفَتَّـاكِ
أحمدُ على ظهرِ البُراقْ قدِ ارتقى سبعَ الطِّباقْ
جبـريـلُ خـادِم بـاتفـاقْ مـع جُملَـةِ الأمـلاكِ
أحمدُ أتانا بالصوابْ شفيعُنا يومَ الحِسابْ
والناسُ فيها باكتئابْ من ضاحكٍ وباكي
بالمُصطفى سعدُك غلَبْ لما حملتي في رجَبْ
سوفَ تريْ منهُ العجَبْ هذا النبي الزاكي
شعبـانُ شهـرُ الثـانـي والنـورُ منـه بـانـي
ولـد النبـي العـدْنـانِ ونـورُه يغشـاكِ
رمضـانُ جـاكِ بـالْـوَفـا لحملِك بـالمصْطفى
وربُـك عنـكِ قـدْ عفـى وخصَّـك وحمـاكِ
شـوالُ شهـرُ الـرابـعْ والنـورُ فيـه سـاطـعْ
فيـهِ محمـدٌ راكِـعْ سـاجـدٌ إلـى مـولاكِ
ذو القعدةِ جاكِ بالهَنَا وخصَّ قلبَكِ بالمُنَا

يـا آمنـةُ نلْـتِ المُنـى وربُّـكِ أعطـاكِ
ذو الحجةِ جانا بالكرمْ هذا النبيُّ المحتشمْ
ولـم تـرى منـهُ ألـمْ هـذا النبـيُّ الـزاكـي
محـرَّمٌ قـدْ أقبـلا فيـه النبـيُّ تكمَّـلا
مـن ربِّنـا المبجَّـلا وخصَّـك ورَضـاكِ
وفي صفرٍ يأتي الخبرْ بذي النبيِّ المختبَرْ
مـن أجلـهِ انشـقَّ القمـرْ ضـاءتْ لـكِ دُنيـاكِ
شهـرُ ربيـعٍ أتـانـا فيـهِ النبـيّ هـدانـا
مكسِّـر الأوثـانـا وأخمـدَ الإشـراكِ
شهـرُ ربيـعِ الأولِ ولِـدَ النبـيّ المـرسَـلِ
يـا آمنـة تـأملـي ونـورُه يغْشـاكِ
بمكـةَ قـدْ صـارْ خيـرُ الـورى المختـارْ
وصـاحـبُ الأنـوارْ وعمـدةُ النُسَّـاكِ
ولِـدَ النبـي مَختـونـا مكحَّـلاً مـدْهـونـا
وحـواجبُـه مقـرونـا اللهُ بـهِ حمَـاكِ
هـذا البشيـر هـذا النـذيـر
هـذا هـو البـدرُ المنيـر يـا حبَّـذا بُشْـراكِ
صلّوا على خيرِ الأنام المصطفى بدرِ التَّمام
يشفـع إلـى كـلِّ الأنـام هـو سيِّـدُ الأمـلاكِ

الجـزء السادس:

إنذار الكهّان
بقرب ولادة الرسول الكريم وفشل مكائدهم

روى أبو الحسن البكري، عن عمر الشيباني وجماعة من أصحاب الحديث: إن السحرة والكهنة والشياطين والمتمردة والجن، كانوا قبل مبعث رسول الله ﷺ يظهرون العجائب، ويحدثون الناس بما تخفي الأسرار، ويكتمونه في الضمائر، وتنطق السحرة والكهنة على ألسن الجن والشياطين، مما يسترقون السمع من الملائكة، ولا تحجب السماء عن الشياطين حتى بعث رسول الله ﷺ.

قال صاحب الحديث: بلغنا أنه كان في أرض اليمامة كاهنان عظيمان، قد فاقا أهل زمانهما في الكهانة، وهم يحدثون الناس في كهانتهما في كل مكان، وكان أحدهما اسمه ربيعة بن مازن ويعرف بسطيح، وهو أعظم الكهان، والآخر اسمه وشق بن واهلة بن زيد اليماني. فأما سطيح فقد خلقه الله تعالى قطعة لحم، بلا عصب ولا عظم، سوى جمجمته. وكان يطوى كما يطوى الثوب من أسفله إلى عند التراقي، ثم ينشر نهاراً كما ينشر الثوب، ثم يطوى بالليل ويحمل على وضمة، كما يحمل اللحم على وضم القاضب[1]، لا ينام من الليل إلا اليسير، يقلب طرفه إلى السماء، وينظر إلى النجوم الزاهرات والأفلاك الدائرات، والبروق اللامعات، ويحمل إلى سائر الأمصار، ويرفع إلى الملوك في جميع الأقطار، ويسألونه عن غوامض الأخبار. قال: فيبين لهم ما في

(١) الوضم: خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم. والقاضب: القاطع.

قلوبهم من الأسرار، ويحدثهم بما كان في الزمان من العجائب، بما يأتي ويظهر في الأوقات، وبما يكون في المغيبات. بينما هو ملقى على سريره، شاخص ببصره إلى السماء، إذ لاحت له برقة من شمائل مكة وقد نزلت من عنان السماء، فبلغت بنور أضاء، وملأت الأرض والأقطار، وهو ملقى على الأرض شاخص ببصره إلى السماء، ولا يتحرك منه شيء سوى عينيه ولسانه وقلبه، ثم رأى الكواكب قد علا نورها وازدهرت وتوقد منها النيرة، ثم تساقط بعضها ببعض، وظهر منها الدخان، فغارت واحدة بعد واحدة، حتى غابت في الثرى، ولم ير لها نوراً ولا ضياءً، قال: فلما نظر سطيح إلى ذلك، دهش وحار وأيقن بالبوار، وقال: كواكب تظهر بالنهار، وبرق يلمع بالأنوار، يدل هذا على عجائب وأخبار.

قال: فظل يومه وهو يفكر فيما عاينه حتى انقضى النهار، فلما عاين ذلك أمر غلمانه أن ينزلوه إلى موضع هناك، وكان شامخاً عالياً قال: فرفعوه إلى أعلى موضع، فجعل يقلب طرفه يميناً وشمالاً، وإذا بنور ساطع وضياء لامع قد علا على الأنوار، وأحاط على جميع الأقطار، وقد ملأ الأرض طولاً وعرضاً، فقال لغلمانه: أنزلوني سريعاً فإن عقلي قد طار ولبي قد حار، من أجل هذه الأنوار، وإني أرى أمراً طويلاً وخطباً جليلاً، وقد دنا الرجل لا شك عن قليل. قالوا له: وكيف ذلك وما الذي رأيت يا سطيح؟ قال: يا ويلكم إني رأيت أنواراً قد علت ونزلت من السماء إلى الأرض، وإني أرى الكواكب قد تساقطت إلى الأرض وإني أظن أن خروج الهاشمي قد دنا، فإذا كان الأمر كذلك، فالسلام على الوطن إلى آخر الزمن. قال: فحار غلمانه من كلامه، ونزلوه وساروا إلى الجبل، وأصبح قلقاً ولم يهنأ برقاد، ولا يوطأ له وساد كثير الفكر والسهاد.

قال: فلما أصبح جمع قومه وعشيرته وقال: إني رأيت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً وقد غاب عني خبره وخفي علي أثره، وسأبعث إلى جميع إخواني من الكهان، فأكتب إليهم وإلى سائر البلدان، وإلى وشق بن واهلة ـ وهو يومئذٍ بدمشق ـ يسأله عن الحال ويشرح له المقال، قال: فرد عليه المقال وقال: قد ظهر عندي بعض الذي ذكرته، وسيظهر نور الذي ذكرته ووصفته، غير أني لا

أعلم فيه، ولا أعرف شيئاً من دواهيه ودواعيه. قال: فعند ذلك كتب إلى الزرقاء ملكة اليمامة، وكانت من أعظم الكهنة والسحرة، ساحرة عظيمة الشر بعيدة الخير، قد ملكت قومها بشرّها وسحرها ومكرها وخدعها، ولم يكن أحد يقدر عليها ولا يقرب إلى بلدها، لما يعلمون من شرّها وسحرها، وكان المجاورون لها آمنون في معاشهم، لا يخافون من عدو ولا يجزعون من أحد، وكانت حادة النظر بعيدة الخطر، تنظر من مسيرة ثلاثة أيام، كما ينظر الإنسان الذي بين يديه، وإذا أراد أحد من أعدائها الخروج إلى بلدها، تخبر قومها وتقول: احذروا فقد جاءكم من جهة كذا وكذا، فيجدون الأمر كما وصفته.

قال الراوي: قد بلغنا أن أهل اليمامة قتلوا قتيلاً من غسان، فبلغ قومه قتله فاجتمعوا على أن يكبسوا قومها[1] بأربعة آلاف مدرع، فقال لهم سيدهم من غسان: يا ويلكم أتطلبون في اليمامة والزرقاء فيها! أما تعلمون أنها تنظر إلى الوافدين، وتعاين إلى الواردين، على بعد البعيد؟ فكيف إذا رأت إلى ركائبكم قد أقبلت، وأعلامكم قد أشرفت، فتخبر قومها فيأخذون حذرهم. ثم إنه بعد ذلك جعل يقول:

إني أخاف منَ الزرقا وصوْلَتِها ... إذا رأتْ جمَعكُم يسْري إلى البلدِ
ترميكمْ بأسود لا قِوامَ لكم ... بشرِّها ثم لا تُبقي على أحدِ
كم من جموعٍ أتوْها قاصدينَ لها ... فراحَ جمعُهُم بالويلِ والكَمدِ

قال الراوي: فقالوا له: وما الذي تشير به علينا؟ قال: إني رأيت رأياً أرجو أن تظفروا به إن ساعدكم القضاء والقدر. قالوا: وما ذاك؟ قال: إني أُشير عليكم أن تنزلوا عن خيولكم في ظل الشجر، ثم تعمدون إلى الشجر فيقطع كل واحد منكم ما يستتر به، ثم تحملونه بأيديكم، ثم تَقودون خيولكم في ظل الشجرة، فعسى أن يتغير عليها النظر. فقالوا: نعم الرأي ما رأيت! فنزلوا عن خيولهم، وفعلوا ما أمرهم به سيدهم، وجدّوا المسير إلى أن بقي بينهم وبين اليمامة مسير ثلاثة أيام، ثم جعلوا رجلاً أمامهم وبيده كتف بعير يلوّح به، ونعلاً يخصفه لكي يخفى عليها النظر. قال: فنظرتهم الزرقاء وهي في صومعتها، فلما

(١) يكبسوا قومها: يهجموا عليهم فجأة.

رأتهم صاحت: يا أهل اليمامة أقبلوا إليّ قبل أن تحل بكم الندامة! فأقبلوا إليها يهرعون من كل جانب ومكان يسألونها، فأحدقوا بصومعتها وقالوا لها: ما وراءك وما الذي دهاك؟ قالت: إني أرى عجباً عجيباً، أرى شجراً يسير، يقدمهم رجل في يده كتف بعير، ومعه نعل يخصفه تارة وتارة يلوح بكتف البعير. قال: فلما سمعوا كلامها أعرضوا عنها، وقال بعضهم لبعض: إن الزرقاء قد خرفت وداخلها الجنون، وقد تغير نظرها، فهل رأيتم رجلاً في يده كتف بعير وشجراً يمشي ويسير؟ إن هذا كله وسواس وجنون قد عارضها! قال: فلما سمعت ذلك منهم أغلقت صومعتها، وكانت لا يقدر عليها أحد. قال: فلم يلبثوا بعد ذلك إلا أياماً يسيرة، حتى كبسوا اليمامة، وهدموا البنيان وسبوا النساء، وقتلوا الرجال وذبحوا الأطفال، وأخذوا الأموال ثم انقلبوا راجعين. قال: فوقع بقومها الندامة وعاقبتهم الملامة، حيث إنهم ما سمعوا كلامها وخالفوا أمرها، وفيها قال الشاعر:

مثْل الفتاةِ التي قدْ غابَ واحِدُها ... أهـدَتْ لـه مـن بعيـدٍ نظـرةً جـزعـا
لمّـا رأتْ ذاتَ أشجـارٍ تسيـرُ بهـا ... لما أتى الجمعُ والأبطال قد جمعا
قـالـتْ أرى رجـلاً فـي يـده كتـفٌ ... ويخصـفُ النعـلَ طـوراً قلبُـه هلعـا
وقـد أرى شجـراً فـي ظلِّـه بشـرٌ ... تسري إليكم سِراعاً تسبقُ السرعا

قال: ثم إن سطيح كتب إليها كتاباً فيه يقول: «باسمك اللهمَّ من سطيح صاحب القول الفصيح والرأي الرجيح، إلى فتاة اليمامة المعروفة بالكهانة والشآمة الزرقاء، من سطيح الغساني الذي ليس له في عصره ثانٍ. أما بعد: فإني كتبت إليك كتابي هذا، وأنا في هموم وغموم متواترات وسكرات وخطرات، وقد تعلمين ما الذي يحل بنا من التدمير والهلاك، من حديث خروج الهاشمي التهامي، الأبطحي العربي المكي المدني، السفاك الهتاك الذي تقاتل معه الأملاك، وإني قد رأيت برقة قد لمعت، وكواكب قد سقطت، أظن ذلك من علاماته، ولا شك أن أوانه وخروجه قد دنا وما كتبت إليك إلا لأرى ما عندك من التحقيق، وما ترين من الصواب، وما في نساء عصرك مثلك مثيل، فإذا ورد عليك كتابي فردّي علي جوابي، بما عندك من التحقيق وما ترين من الصواب،

فإنه لا يقر لي قرار لا في ليل ولا نهار، حتى أقف على تلك الدلائل والآثار والسلام» ثم دعا بغلام له اسمه صبيح وقال له: سر بهذا الكتاب إلى اليمامة وأوصله إلى الزرقاء، وآتني برد الجواب. قال: فأخذ صبيح الكتاب وجدّ السير، حتى بقي بينه وبين الزرقاء مسيرة ثلاثة أيام، فرمقت الكتاب يلوح في طي عمامته، قال: فنادت بقومها فأقبلوا مسرعين فقالت لهم: إني أرى رجلاً مقبلاً إليكم، ومعه كتاب في طي عمامته. فجعل القوم يتوقعون قدومه، إلى أن وصل إليهم بعد ثلاثة أيام، فلما قدم صبيح على اليمامة استدل على قصر الزرقاء، فأرشدوه إليها، فلما رأته قريباً منها نزلت إليه، وفتحت له الباب، ودفع إليها الكتاب، فأخذته وفضته وقرأته، فلما عرفته قالت:

خبر قبيح أتى به صبيح من كاهن اليمن سطيح، يسأل عن نور ساطع وضياء لامع، وذلك ورب الكعبة من دلائل مخرب الأوطان، وميتم الأطفال، فإنه سيظهر من بني عبد مناف محمد بلا خلاف. قال صبيح: فتعجبت من كلامها ثم طلبت رد الجواب. قال: فكتبت إلى سطيح تقول: «باسم إله الزرقاء التي ليس عليها شيء يخفى، إلى سيد بني غسان وأفضل الكهان المعروف بسطيح، صاحب القول الفصيح والعلم الرجيح. أما بعد: فإنه قد ورد كتابك إلي وقدوم رسولك عليّ، تذكر فيه أمراً عظيماً هجس بكبدك واختلج بقلبك؛ أما نزول الكواكب فإنك ترى آيات الهاشمي قد قربت، فإذا قرأت كتابي هذا، فأيقظ نفسك واحذر من الغفلة والتقصير، وبادر إلى المسير والتشمير[1] إلى مكة، فإني راحلة إليهم لأعرف أهلها على الحقيقة، فلعلنا أن نتساعد على هذا المولود، ونعمل فيه الحيلة، وعسى أن نظفر به ونخمد ناره ونوره قبل إشراقه». ثم دفعت الكتاب إلى رسول سطيح، فأخذه وسار حتى قدم على سطيح قال: فلما قرأ كتابها انتحب وبكى بكاءً عظيماً ثم جعل يقول:

لا صبرَ لا صبرَ أضحى بعد منزِلة ... تدعُ الجلادَة كالمستضَعفِ الوهِنِ
إنْ كانَ حقاً خروجُ الهاشميِّ دنا ... فارحلْ بنفسِك لا تأسفْ على اليمنِ
ثم اجعلِ القفرَ أوطاناً تسيرُ بها ... وارحلْ عن الأهلِ ثم الدارِ والوطنِ

(١) التشمير: القصد.

فالعيشُ في مهمهٍ من غيرِ لا جزعٍ أهنى من العيشِ في ذلٍّ وفي حزنِ[1]

قال: ثم أخذ في أُهبة السفر، والخروج إلى مكة وقال لقومه: إني سائر إلى نار قد تأججت، فإذا أدركت إخمادها رجعت إليكم، وإن كانت الأُخرى فالسلام عليكم، فإني لاحق بالشام وأُقيم بها حتى أموت. ثم وطأوا له على راحلته، وسار إلى حيث أدرك مكة، وأتى إلى الكعبة فتسامعت به قريش، فجاءوا إليه من كل جانب ومكان، فلما رأى الناس حوله زعم أن رسول الله ﷺ معهم، وأنه قد ولد، وكانت أُمه قد حملت به. فأقبلت إلى سطيح رجال من قريش، وفيهم أبو جهل بن هشام، وأخوه أبو البختري، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والعاص بن وائل، وقالوا: يا سطيح ما قدم بك إلينا، فهل من حاجة فتقضى؟ فقال سطيح: بورك فيكم ما لي إليكم حاجة! فقالوا: تمضي معنا إلى منازلنا؟ فقال: أكرمكم الله بل نزلت إلى من إليهم قصدت، وبفنائهم أنخت. وقد علمتم فضلي فجئت أُخبركم بما كان، وبما يكون، بإلهام أُلهمت بالصواب وأنطق بالجواب. فأين المقدمين بالعهد ومن لهم السابقة بالحمد، أعني أفضل قريش من بني عبد المطلب، والحمد لله جئت أُبشرهم بالبشير النذير والسراج المنير. وقد قرب ما ذكرته. ثم نادى برفيع صوته: أين عبد المطلب وسلالة الأشبال؟ قال: فعظم ذلك على أبي جهل. ثم إنهم تفرقوا عنه يميناً وشمالاً، ثم اتصل الخبر إلى بني عبد مناف، فجمع أبو طالب إخوته عبد الله والعباس والحمزة وعبد العزى، وقال لهم: اعلموا أن هذا القادم عليكم هو كاهن اليمن وهو سيدها، وكان قديماً قد قدم على أبيكم من قبل، وأخبره بمولد الذي يخرج من ظهره، مبارك في عمره، يملك الأقطار ويدعو إلى عبادة الجبار، وها هو قدم عليكم فانطلقوا بنا إليه لنأخذ الأمر على حقيقته. فإن كان صادقاً فقد استوجب الإحسان، وإن يكن كاذباً رميناه بالذل والهوان. ولكن أنكروه نسبكم ولا تعرِّفوه حسبكم.

ثم إن أبا طالب سار هو وإخوته حتى انتهوا إلى سطيح، وكان جالساً في ظل الكعبة والناس حوله، قال: فلما نظروا إليه، دفع أبو طالب سيفه ورمحه

---

(١) المهمه: المفازة البعيدة والبلد القفر.

إلى غلام سطيح، وقال: هذه هدية مني إليك لواجب الحق علينا. ثم انحرف إليه من قبل أن يأتي غلامه بالهدية، قال: فلما وصل أبو طالب، قال: حييت بالكرامة وخلدت النعم إلى يوم القيامة! فإنا قد أتيناك زائرين ولواجب حقك معترفين. فقال لهم سطيح: جللتم بالسلام وأُتحفتم بالأنعام فمن أي العرب أنتم؟ فأراد أبو طالب أن يقدر مقدار علمه فقال: نحن من بني جمح الكرام أهل المفاخر العظام. فقال له سطيح: ادن مني أيها الشيخ وضع يدك على وجهي، فإن لي فيك حاجة. قال: فدنا منه أبو طالب، ووضع يده على وجهه، فعند ذلك قال سطيح: وعالم الأسرار والمحتجب عن الأبصار، غافر الخطيئة وكاشف البلية إنك صاحب الذمم المرضية والأخلاق العلية، المسلم لغلامي الهدية قناة خطية وصفحة هندية، وإنكم لأشرف البريّة وإن لك ولأخيك أشرف الذرية، يلقى معاديكم الرزية، وإنكم ومن أتى معكم من سلالة هاشم الأخيار، وإنكم لا شك عم النبي المختار، المنعوت في الكتب والأخبار، فلا تكتموا نسبكم فإني عارف به.

قال: فتعجب أبو طالب من كلامه وقال له: يا سطيح قد صدقت في المقال، وأحسنت في الخصال، ونريد أن تخبرنا بما يكون في زماننا، وما يجري علينا. فقال سطيح: والدائم الأبد ورافع السماء بغير عمد، الواحد الأحد الفرد الصمد، ليبعثن من هذا ـ وأشار بيده إلى عبد الله ـ عن قريب نبي يهدي إلى الرشاد، يدمر كل صنم ويهلك كل من له عبد، ولا يبقي سيفه على أحد، يدعو إلى عبادة الواحد الأحد، يعينه على ذلك معين وهو ابن عم له قرين، صاحب صولات عظام وضربات بالحسام، أبوه لا شك هذا ـ وأشار بعينه ويده إلى أبي طالب ـ فقال أبو طالب: يا سطيح! نحب أن تصف لنا هذا النبي وتبين لنا فضله. فقال: نعم. اسمعوا مني كلاماً فصيحاً سيظهر منكم عن قليل رجل نبيل، رسول الملك الجليل، وإن لسان سطيح عن وصفه لكليل. وهو رجل لا بالطويل الشاهق، ولا بالقصير اللاصق، حسن القامة مدور الهامة، بين كتفيه علامة على رأسه غمامة، تقوم له الدعامة إلى يوم القيامة، ذاك والله سيد بني تهامة. يزهر وجهه في الدجى، إذا تبسم تشرق الأرض بالضياء، أحسن من نشا وأكرم من مشى، حلو الكلام طلق اللسان قوي الجنان، تقي زاهد راكع ساجد،

لا مستكبر ولا متجبر، إن نطق أصاب وإن سئل أجاب، طاهر الميلاد بريء من الفساد، رحيم بالعباد بالمؤمنين رؤوف رحيم، وبالنور محفوف وعلى أصحابه عطوف، اسمه في التوراة والإنجيل معروف، يجير الملهوف وبالكرامة موصوف، اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد، وفي الجنة أبو القاسم.

قال أبو طالب: يا شيخ من هذا الشيخ الذي ذكرته؟ بيِّن لنا نعته لنعرف من يقاربه في الحسب، ويدانيه في النسب، انعته لنا لنعرفه أيضاً. قال سطيح: هو غلام همام وليث ضرغام، وأسد قمقام[1] وقائد مقدام، وقشعم جزام[2] كثير الانتقام يسقي أعداءه كؤوس الحِمام[3]، عظيم الجولة شديد الصولة كثير الذكر في الملاحم، ويكون لمحمد ﷺ وزيراً، ويدعى بعد موته أميراً، اسمه في التوراة آليا وفي الإنجيل طابريا وفي الزبور سيدا بريا وفي كتاب المصطفى عليّ وفيه قال الشاعر **(أفلح من يصلي على الرسول)**:

يـابـن أبـي طـالـبٍ أنـت الـوَلِـي ... يـا سيِّـدِي يـا حيـدر يـا عِلِـي
يـا حيـدر يـابـن أبـي طـالـبِ ... يـا طيِّـبَ العنصُـرِ مـنْ طـالِـبِ
يـا مـرحباً بـالفضـلِ مـن واهـبِ ... أنـتَ الإمـامُ المـرتضـى يـا عِلِـي
أنـتَ أميـرُ المـؤمنيـنَ الـوصِـي ... أنـتَ لِعلْـمِ المصطفـى محتَصِـي
وكـلَّ مـا كـانَ لـه مُقْتَصـي ... علمُـك مـن علـمِ الإلـه العَلِـي
أنـتَ أميـرُ النحـلِ يـا حيـدَرة ... أنـتَ الشجـاعُ الفحْـلُ مـن قَسْـوَرَهْ
أنـتَ الـذي سميِّـت بـالبَكَـرَهْ ... وفـي كتـابِ المصْطفـى يـا عَلـي
يـا وارثَ المختـارِ يـا عينَـهْ ... يـا صـارِمَ المشهـورِ يـا رُكْنَـهْ
يـا سَـوْرَةَ الشـامِـخِ يـا زَيْنَـهْ ... يـا مَـنْ بنـارِ الحـربِ كـي تصطَلـي
يـا فـارسَ الفـرسـانِ يـومَ الـوغـى ... وقـاتـلَ الأبطـالِ مـعَ مـنْ طَغـى
وعـاصِـرَ خـالـدٍ حتـى رَغـى ... كمثـلِ رغْـيِ الإبـلِ الأوّلِ
كـمْ بـالحسـامِ العـربـيِّ يلتقـي ... وكاسِ حتفِ الموت من قد سُقي
والجبـنُ بـالضَيغـمِ لا يلتقـي ... ومشهـرٌ مـن ضـوئِـه الأفضَـلِ

(١) القمقام: السيّد الكثير العطاء.
(٢) القشعم: الأسد. وجزّام. قطّاع.
(٣) الحمام: الموت.

وكيـــف أُحـــد ثـــم خيبـــرِ ... مـــنْ مُعجِـــزٍ مشتهِـــرٍ مجهِـــرِ
وكـــمْ بهـــا جـــدَّل مـــن قَسْـــوَرِ ... وكـم شجاعٍ طـاحَ فـي القَسْطلِ[1]
وفـــي حنيـــنٍ ثـــم فـــي سلْعـــمِ ... بـالسيفِ كـم جـدَّل من ضيغَمِ[2]
وأنـــتَ بـــالفـــرســـان كـــالأرقـــمِ ... فتسقِهِـمْ كـأساً مـن الحنظَلِ[3]
يـا مـرجـعَ الشمسِ فـي بـابـلِ ... وخيـرَ مـن يطعـنُ بـالـذابـلِ
أنـتَ فنِعـم المـرْتضـى الكـاهِـلِ ... مـنْ أحمـدِ المنتجَـبِ الأفضـلِ
جـاهـدْتَ بـاللهِ عـنِ المصطفـى ... ولـمْ تـولـي عنـهُ معطـي قَفـا
مثلُـكَ مَـنْ للمصطفـى قـدْ صَفـا ... يـــوذُه فهـــو الصفـــيُّ الخَلِـــي
مشيْـتَ فـي الإسـلام ديـن الهـدى ... بصـــارمٍ للعـــزْمِ مُفْنـــي العِـــدا
غيـرُك للمختـارِ مـنْ قـد فَـدا ... لمـا أتتْـه القـومُ فـي الجحفـلِ

وقال الشاعر في هذا المعنى:

مـولـدُكَ الكعبـةُ فـوقَ الـرخـامْ ... وجئـتَ معصـومـاً عليْـكَ السـلامْ
يـا خيـرَ مـن لبّـى وصلّـى وصـامْ ... وتصـدقَ بـالخـاتَـمِ مـنْ أوَّلِ
يـا أفصـحَ النـاسِ علـى المنبـرِ ... ومَـنْ لـه الحجـةُ فـي المحشَـرِ
ومَـنْ هـو السـاقـي علـى الكـوْثـرِ ... يسقي المُوالي والمُعادي حُلِي[4]
هـذا الـذي كتـفَ النبـيِّ قـد رَقـى ... وكسَّـر الأصنـامَ حيـنَ ارْتقـى
وكـلُّ مـنْ عـاداك نـالَ الشَّقـا ... وفـازَ مـن كـانَ لحيـدرٍ وَلـي
مـنْ حبّـه الله قـدِ ارتضـى ... ومـنْ يسمّـى حيـدر المـرتضـى
فصـلُ القضـا مُـردِي العِـدى ... مصبـاحُ ذي الحـقِّ نعـمَ الـولـي
أنـتَ الـذي أحييْـتَ ميـتَ الـرميـمِ ... أنـت الـذي كلَّمـتَ أهـلَ الـرقيـمِ
أنـتَ حبيـبٌ لحبيـبِ الكـريـمِ ... وأنـتَ ذُخْـري يـا إمـامـي علـي
كـنْ شـافِعـاً لـي يـا إمـامَ الـوَرى ... ومنقِـــذي يـــا بـــن أُمِّ القُـــرَى
يـــا أســـدَ اللهِ وليـــثَ الشّـــرا ... يـا خـائضَ الغمـراتِ فـي القسْطَلِ

---

(١) القسور: الأسد. والقسطل: الغبار الساطع من الحرب.
(٢) الضيغم: الأسد.
(٣) الأرقم: الأسود من الحيّات وهو أخبثها.
(٤) حلي: أي حلِّيء: منع من الشرب وطُرد.

مـدحُـكَ يـا خيـر الـورى منْجَـري ... ومـذهَبـي الـواضـحُ والمفخـرِ
وحجَّتـي حبُّـك فـي محْشـري ... وأنـتَ نـورٌ لـلإلـه العلـي
مـدحُكـم يـاخيـرةَ الـوَرَى مـذهبـي ... ورأسُ مـالـي ثـم والمكسـبِ
فـاسقـي إمـامَ الحـقِ فـي المشربِ ... مـن الـرحيـقِ العـذْبِ والسلسَـلِ
فهـاكهـا يـا خيـرَ مـنْ قـدْ عـلا ... منظـومـةً كـالـدرِّ لمّـا غلـى
فمـا علـى غيـرِك تنجلـي ... لأنـكَ الأفضـلُ مِـنْ أفضـلِ
نعـمَ بهـا عبـدُ الإلـهِ الأقـل ... مـعَ والـديـه جُمْلـةً والنجـلِ
وأعـددتُ فيهـا لمـديـحِ البطـلِ ... عنّـا بهـا صـرفُ العنـى ينْجلـي
كـنْ شـافعـاً لأُمـي ثـم أبـي ... مـن حـرِ نـارٍ فـي غـدٍ تلْهَـبِ
وكـنْ لجـدّي فهـو عبـدُ النبِـي ... بـأنّنـا جمعـاً نُـوالـي علـي
وصـلِّ يـا ربِّ علـى المجتبَـى ... والسـاداتِ الأطهـارِ أهـلِ العَبـا
مـا نـاحـتِ الـورْقـا وهـبَّ الصَّبـا ... فـامنحـونـي طعمـةَ المقـوَلِ

قال الراوي: ثم أمسك ملياً كأنه قد سلب عقله ولبه، وهو متفكر في فعله، فصبر بعد ذلك والناس ينظرون إليه وإلى قوله، فأفاق بعد ذلك ساعة، ثم التفت إلى أبي طالب وقال له: يا شيخ مدّ يدك على وجهي مرة ثانية، فوضع أبو طالب يده على وجهه، فلما أحس سطيح بيد أبي طالب، تنفس صعداً وأنَّ كمداً، وقال: يا أبا طالب خذ بيد أخيك ـ وأشار إلى عبد الله ـ وقال: قد ظهر مجدكما فأبشروا بعلوّ سعدكما. فالغصنان من شجرتكما، محمد لأخيك وعلي لك! قال: فبهت أبو طالب من كلامه، وشاع في قريش مقاله، وامتلأ الأبطح بالناس، وهم في أمره متفكرون وفيما قاله متحيرون، فعند ذلك قال أبو جهل: يا معشر قريش ما هذه الحادثة التي نزلت بنا من بني هاشم؟ فليس الصبر من شيمتنا، ولا الإمهال من عادتنا، وقد سمعتم ما قاله سطيح عن رجل غير رجيح، تربى في الكهانة وبكهانته بكلام قبيح ويوعد بضيق الفسيح، بظهور ولدين ويظهران من أبي طالب وأخيه، يصير منهما قتل أبطالنا ونهب أموالنا، وسبي نسواننا، لولد يظهر من أبي طالب وأخيه عبد الله، ولهما نار تحرق وصاعقة تطبق! ثم قهقه في ضحكه، فبينما هم كذلك إذ أقبل أبو طالب، ووقف بين الناس ونادى بأعلى صوته: يا معاشر قريش! اصرفوا عن قلوبكم الطيش،

ولا تنكروا ما سمعتم، فنحن أولى بالقدمة إلى الكعبة، ودفع الأذى عن حرم الله، وعلى أيدينا نبعت زمزم! فوالله ما سطيح بكاذب وإنه في كلامه صائب، وما نطق بكلمة إلا وظهر برهانها أليس هو القائل لكم بين الحرمين: ليطلع إلى أرضكم رايات الحبش؟ قال: فما مضت إلا أيام قلائل حتى رأينا ما نزل بنا من أصحاب الفيل، وقد عاينّاها! فقالوا صدقت ثم قال: أوليس القائل لكم سطيح بين الحرمين سيرد عليكم رجل يقال له سيف بن ذي يزن، لا يترك منكم أحداً في اليمن، فلم يكن إلا غفوة نائم حتى رأيتم ذلك؟ وقد ورد بقومنا الهلاك، وعن قليل سيظهر لكم ما ذكره لكم، على رغم الحاسدين وإخماد نار المعاندين.

قال: فأمر أبو طالب أن يحملوا سطيحاً إلى منزله، فرفعه وأكرمه وأعلى مقامه، وحيّاه وقربه وخلع عليه، من الحلل، وباتت مكة تموج بسكانها وترتج بأهلها. فلما برق الصباح وكان أول من طرق الأبطح أبو جهل، ثم بعث عبده إلى سادات قريش، فقدموا عليه فلما ارتفع النهار، ضاق الأبطح بأهله فقام أبو جهل قائماً على قدميه، ونادى: يا آل غالب يا ذوي العلا والمراتب! أترضون لأنفسكم أن ترموا بالمناكب[1] كما ذكره أبو طالب؟ إن هذا من العجائب! لنقل جلاميد الحصى إلى البحر الأقصى، أهون مما ذكره سطيح! وإنه سيظهر من بني عبد مناف عن قليل، رجل يرمينا بالبوار، والتنكيل، ويوعدنا بالذل الطويل، وتباً لكم إن كانت أنفسكم بما ذكره راضين، وإلى ما أخبر به داعين. فإن رضيتم بهذه النهاية فمن الآن منكم عليكم السلام، ما بدت الأيام، فها أنا راحل عنكم وخارج من أرضكم، فمجاورة الشرك أحب إلي من المقام بهذه الدار، التي يحل فيها البوار والذلة والصَّغار. ثم تركهم ومضى إلى منزله وعزم على الرحيل، فضجت المحافل وعظم ذلك على القبائل، وبقي الأبطح يموج بأهله فمضوا إليه مسرعين وقالوا: يا أبا الحكم! ما هذا الأمر الذي حاولته والحال الذي عزمت عليه؟ فأنت السيد فينا والمقدم علينا، فأمرنا بأمرك وانهنا بنهيك، فإنا ننتهي إلى رأيك! فقال: إني أرى من الرأي أن تحضروا في مجلس أبي

---

(١) المناكب: المصائب.

طالب، وتخاطبوه في أمر هذا الكاهن، لئلا يكون سبب العداوة بيننا وبينه. فإما أن يسلمه إلينا ويخرجه عن أرضنا، فإن أبى كان السيف أقضى والموت أمضى.

قال: فلما بلغ أبا طالب مقام أبي جهل، جمع اخوته وأقاربه وقال لهم: احتزموا بالسلاح وتقلدوا السيوف للكفاح، فإني أرى دماءً قد سالت وآجالاً قد دنت. ثم سار هو وإخوته حتى قدم الأبطح، فعندها شخصت إليه الأحداق وخرس كل لسان فصيح، وجلس كل قائم واستوى كل نائم، هيبة من أبي طالب وفزعاً من شأنه وخوفاً من بأسه. ثم تخطى القبائل وتجاوز المحافل، حتى توسط الناس، ثم رفع صوته وقال: يا سكان الأبطح والصفا وزمزم ومنى وأبي قبيس وحِرا، فمن الثالب لبني عبد المطلب، أهل المكرمات والمراتب حتى أُحل به الويل والحزن الطويل؟ أما أنا فلا أعرف أُمه ولا أباه لكن أُنكره وأجحده. وإني أُحذركم من يوم عبوس تنقطع فيه الأيادي والرؤوس، ويكون بأدينا هلاك النفوس! وإني قائل لكم: وحق إله الحرم وبارىء النسم، إني لأعلم عن قليل، يظهر المنعوت في التوراة والإنجيل، والموصوف بالكرم والتفضيل الذي ليس في عصرنا له مثيل، ولقد تواترت به الأخبار، أنه يبعث في هذه الأعصار، رسول الملك الجبار المتوّج بالأنوار، المؤيد بالسكينة والوقار. ثم تركهم خموداً كأنهم رقود، ولم يجسر أحد منهم أن يرد عليه جواباً، ولا أثنى في وجهه خطاباً، ثم صعد الكعبة وأتاه الناس، وبقي أبو جهل وحده وقد تركه في العثار والذلة والاحتقار، بما تكلم به أبو طالب، غير أنه أظهر الجلد، فلقد دنا أبو طالب من الكعبة وقال: اللهمَّ رب هذه الكعبة العلية والسماء المبنية، والأرض المدحية والجبال المرسية، إن كان قد سبق في حكمك وغامض علمك أن تزيدنا شرفاً إلى شرفنا، وعزاً مضاعفاً إلى عزنا، بالنبي المشفع والنور المستودع، الذي بشر به تبَّع فأظهر لنا اللهمَّ بيانه، وعجل لنا برهانه، واصرف عنا بغي الحاسدين يا أرحم الراحمين.

ثم جلس أبو طالب والناس محدقون به من كل جانب ومكان، وما نطق أحد من قريش بكلام قال: فوثب إليه منبه بن الحجاج، وكان جسوراً في الكلام، عظيماً في المرام، فتطاولت إليه الأعناق ليعلموا ما يقول. ثم نادى

برفيع صوته: يا أبا طالب! قد ظهرت عزتك وأنارت طلعتك، وابتهج شكرك وذكرك بالكرم السني والشرف العلي، وقد علمت رؤساء القبائل وأهل النهى في المحافل ومعدن الفضائل، أنكم أهل الشرف العظيم والفضل الجسيم، من حضر وبادٍ وقاصٍ ودانٍ، وأنت سيد مطاع طاهر، فلا ينبغي لمثلك أن يسمع ما نطق به الكاهن؛ وأنت تعلم أنهم أوعية الشياطين، يأتون بالكذب والبهتان. فلعلك تصيِّره إلينا لنستدل على صدقه، فإن النبوة لها دلائل، وآثار لا تخفى على العاقل! قال: فأمر أبو طالب أن يحضروا سطيحاً بفناء الكعبة، فلما وضعوه على الأرض نادى سطيح بأعلى صوته: يا معاشر قريش لقد أكثرتم الإخلاف وزاد في قلوبكم الارتجاف، ومددتم ألسنتكم إلى بني عبد مناف، تكذبونهم فيما به صدقوا، وكذبتموهم بما نطقوا، وأرسلتم إليّ تسألونني عن الحال الظاهر، وأمر النبي الطاهر، صاحب البرهان وقاصم الأوثان، مذلل الكهان. وأيم الله! ما فرحنا بظهوره لأن الكهان عند مولده تزول، ودلالات أثرها عند أمره فهي أفول[1] فإن كان ذلك فلا خير في الحياة لسطيح، وعندها يتمنى الوفاة. فإن المولود الميمون مولده عن قريب يكون. فائتوني بأُمهاتكم ونسائكم وبناتكم، لتروا العجب العجيب، الذي ليس فيه تكذيب، حتى أُعرفكم وأُوقفكم في ساعتي هذه على المقصود، وأُعرّفكم أيتها الحاملة بهذا المولود، الداعي إلى خير معبود. فقالوا له: إنك تعلم الغيب؟ قال: لا أعلم الغيب، ولكن لي صاحب من الجن يأتيني بالأخبار، ويسترق السمع من الملائكة الذين يعبدون العزيز الجبار.

قال: ثم إن القوم تفرقوا إلى منازلهم، وأتوه بنسائهم وبناتهم، ولم تبق واحدة من نسائهم إلا وقد حضرت عنده. قال: فأقبل أبو طالب على عبد الله وقال له: أمسك زوجتك ولا تدعها تحضر، وأمسك هو أيضاً زوجته فاطمة بنت أسد. قال: وأقبلت النسوان من كل جانب ومكان، قال: فنظر إليهن حتى تكاملن عنده، وعاد ينظر يميناً وشمالاً ثم قال: اعزلوا الرجال عن النساء. ثم أمر النساء أن يتقدمن إليه، فجعل سطيح ينظر إليهن بعينه ولا يتكلم، فقالوا: يا

---

(١) أُفول: غائبة.

سطيح خرس لسانك وخاب ظنك! قال: والله ما خاب ظني ولا خرس لساني! ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: وحق الحرمين، لقد تركتم من نسائكم اثنتين، إحداهن الحامل بهذا المولود، والداعي إلى خير معبود محمد ﷺ، والثانية ستحمل بعد حين من الزمان، وتلد غلاماً أميناً قوياً مكيناً؛ بأمير المؤمنين وسيد الوصيين ووارث علم النبيين. قال: فلما سمعت قريش منه ذلك دهشوا وحاروا، فانطلق أبو طالب إلى منزله، وأتى بآمنة زوجة أخيه عبد الله، وزوجته فاطمة بنت أسد، فلما قربوا من النساء، صاح سطيح بأعلى صوته صيحة عظيمة، وجعل يبكي وتارة يرفع صوته ويقول: يا ذوي الشرف والمفاخر! هذه والله الحاملة بالنبي المختار ورسول الملك الجبار! قال: فلما دنت آمنة من سطيح قال لها: أنت آمنة بنت وهب؟ قالت: نعم. قال: ألست حاملاً؟ قالت: نعم. فالتفت عند ذلك إلى قريش وقال: الآن شهد قلبي وثبت لبّي وصدقني صاحبي! فإن هذه والله سيدة نساء العرب والعجم، وهي الحاملة بأفضل الأُمم، ويدمر كل وثن وصنم! يا ويح للعرب من شر قد دنا ظهور محمد الأمين ورسول رب العالمين، وكأني أرى من يخالفه قتيلاً وعلى الأرض جديلاً فإني أرى عزكم يحول وشرفكم يزول، فطوبى لمن صدقه وصدق برسالته ونبوته! فطوبى ثم طوبى لمن يتبعه على الحق، فقد أخذ بالأمر الوثيق ونجى من كل ضيق!.

ثم التفت إلى فاطمة بنت أسد وصاح صيحة عظيمة، وشهق شهقة عالية وخر مغشياً عليه، فلما أفاق من غشوته انتحب وبكى، ونادى بأعلى صوته: هذه والله فاطمة بنت أسد، أُم الإمام الذي يكسر الأصنام ويبيد الأوثان، وهو الإمام المبين الذي لا في عقله طيش، يخرب أطلالكم ويبتم أطفالكم، سيفه في رقابكم مغمود، وشره عنكم غير مردود، وقاتل الشجعان ومبيد الأقران والأوثان، الفارس الكميّ[1] والضيغم الجريّ، المسمى بعليّ ابن عم النبيّ. ثم قال آه ثم آه! كم ترى عيني من شجاع مكبوب، وفارس منهوب، قد تركه صريعاً يخور في دمه. قال: فلما سمعوا كلام سطيح وثبوا إليه ليقتلوه، فمنعهم بنو هاشم، واجتمعت قريش مع أبي جهل، ونادى أبو جهل: أفسحوا لنا عن هذا

(١) الكميّ: البطل الشجاع.

الكاهن، فلا بد من قتله حتى نسقي من دمه سيوفنا، ونشفي به صدورنا! وإن حلتم دونه لنحل بكم الدمار، ونوردكم البوار! قال: فالتفت إليه أبو طالب وقال له: ويحك يا أخس العرب وأنذلها! إني أراك تحث الفرقة بين العشيرة، ومثلك من يتكلم بمثل هذا الكلام، وأنت أخس اللئام! ثم عاجله بضربة فحالوا بينه وبينه، فلحقه بعض السيف فشجه شجة عظيمة، وصار الدم يسيل على وجهه، فنادى أبو جهل بقريش: يا أهل المحافل ورؤساء العشائر والقبائل! أترضون أن تحملوا العار وترموا بالشنار[1]! اقتلوا سطيحاً وآمنة وفاطمة وبني هاشم جميعاً، وأخمدوا أنوارهم وأطفئوا شرارهم. قال: فحلمت قريش بأجمعها على سطيح، ولم يكن لبني هاشم طاقة بهم، فالتجأت النساء إلى الرجال، والرجال بالنساء، وسطيح بالكعبة، فالتقاهم بنو هاشم وثار الغبار وطار الشرار، وكثرت الزعقات وعلت الأصوات، وارتجت الأرض بطولها والعرض.

وروي عن آمنة أُم النبي ﷺ قالت: حين رأيت السيوف قد دارت حولي، بقيت متحيرة متفكرة في أمري، ذاهلة مما أحاط بي من البلاء، والقوم يريدون قتلي! فبينما أنا كذلك إذا اضطرب الجنين الذي في بطني، وسمعت صوتاً كالأنين، وإذا بالقوم قد صيح بهم صيحة عظيمة من السماء، وصرخ بهم صارخ من الهواء، وقد ذهلت العقول، وسقطت الرجال والنساء صُرَّعاً كأنهم موتى، قالت آمنة: فرفعت بصري نحو السماء، فرأيت أبواب السماء قد فتحت، وإذا بفارس قد نزل من السماء، وفي يده حربة من نار، وهو يقول: لا سبيل لكم اليوم على رسول الملك الجليل، أنا أخوه جبرئيل اخمدوا جميعاً عن خاتم النبيين! قالت آمنة فعند ذلك سكن قلبي ورجع إليَّ لبي، وتحققت دلائل النبوة والكرامات لولدي محمد. ثم انصرفنا إلى منازلنا، وأقبل أبو طالب وهو آخذ بيد أخيه عبد الله، وجلسا بفناء الكعبة يهنئان بعضهما بعضاً على ما رزقهما الله تعالى من الفضل والشرف بفضله وكرمه، والقوم صرعى لا يعلمون، فلبثوا ثلاث ساعات من النهار ثَمَّ كأنهم سكارى. قال: فتقدم منبه بن الحجاج فوقف إلى جانب أبي طالب وقال: إنك لم تزل عالياً في المراتب ولمن عاداك غالب،

---

(١) الشنار: العيب والعار.

ونريد أن تصرف عنا سطيحاً فما جرى على هذه الأُمة ما جرى إلا من كهانته، فإن كان كل ما تكلم به سطيح صحيحاً، فنحن أول من يعاضده ونكون له عوناً على من يعانده. ثم أنشأ يقول:

أبـا طـالـبٍ إنّـا إليـكَ عصـابـةٌ ... لنرجوك فارحَمْ من أتى لك راجِيا
ونحـنُ فجيـرانٌ لكـم ومَعـاضـدٌ ... على كلِّ مَنْ أضحى وأمسى مُعادِيا
أبـا طـالـبٍ جُلِّلتَ بـالـرشـدِ والهنـا ... ووُقِيتَ صرفَ الدهر لا زلْتَ باقيا
فإنْ كان ربُ العرشِ أرسَلَ منكُم ... رسـولاً إلينـا وهـوَ للحـقِ داعِيـا
فنحـنُ لَنـرجـو أحمـدَ فـي زمـانِنـا ... نجـاهـدُ عنـهُ بـالسيـوفِ المَـواضِيـا
أبـا طـالـبٍ اصـرِفْ سطيحـاً فـإنـه ... أتـى منـهُ آتٍ بـالأذى والـدواهيـا
فدع عنك حربَ الأهلِ والْطُفْ تكَرُّماً ... ولا تتركنَّ الدمَ في الأرضِ جارِيا

قال: فعند ذلك رق أبو طالب رحمة لقريش، وتعطفاً وكرامة عليهم وقال: حباً وكرامة، سأصرفه عنكم إذا كرهتموه، وأمتثل ما أمرتموه، وستعلمون صحة ما ذكر ويتحقق لكم الخبر، وترونه عياناً. ثم أمر أن يحمل سطيح إلى بين يديه، فلما حضروه قال له أبو طالب: أتدري لأي شيء أحضرناك؟ قال: نعم تسألونني الخروج من مكانكم والارتجاع عن بلدكم، وأنا على ما ذكرتموه عازم. فإذا ظهر فيكم البشير النذير فأقرئوه مني السلام الكثير، وقولوا له إن سطيحاً أخبرنا بخبرك فكذبناه، ومن جوارنا طردناه، وسيأتيكم بشير عنده من العلم أكثر مما عندي، ولا شك أنه قد دخل بلادكم وحلّ بساحتكم. ثم إن سطيحاً عزم على الخروج، فرفعوه على بعير وأحاط به بنو هاشم يودعونه، فبينما هو كذلك، إذ أشرفت ناقة ترفل براكبها، والغبار يطير من حوافرها وأخفافها، فتطاولت إليها الأعناق، وشخصت إليها الأحداق، وكان أول من أتى إليها أبو قحافة عمر بن عامر، قال: فنظر إليها فعرفها ونادى: يا أهل الأبطح وسادات الحرم! أتتكم الداهية الدهماء والمصيبة العظمى الزرقاء كاهنة اليمامة! فما استتم كلامه حتى صارت بأوساطهم، ونادت بأعلى صوتها: يا معاشر قريش! حييتم بالعشي والإبكار، وعمرت بكم الديار، فإني قد فارقت أهلي وخرجت من وطني، وقصدتكم لأحوال قد أتت وأشياء قد دنت، وأُخبركم

عن قريب عمّا يخرج من دياركم من العجب العجيب، فإن أذنتم لي بالنزول نزلت، وإن أحببتم الرجوع رجعت. ثم إنها جعلت تنشد وتقول، (**أفلح من يصلي على الرسول**):

إني لأعلَمُ ما يأتي من العجبِ ... بأرضِكُمْ هذه يا معشَرَ العربِ
لقدْ دنا وقتُ مولودٍ لأُمتِه ... محمد المصطفى المنعوتِ في الكتبِ
فعنْ قليلٍ سيأتي وقتُ مولدِهِ ... يُرمَى معانِدُه في الذلِ والحرَبِ[1]
يدعو إلى دينِ غير اللاة مجتهداً ... ولا يقولُ بأصنامٍ ولا نُصُبِ
وقد أتيتُ لأُخبركم ببيِّنةٍ ... لما رأيتُ من الأنوارِ والشهُبِ
عمّا قليلٍ ترى الأنوارَ زاهرةً ... ببطنِ مكَّة ترمي الجمعَ بالشُهبِ
فإنْ أردتُمْ وإلا رحتُ راجعةً ... وتندمونَ إذا ما جاءَ بالعَطَبِ
وآخرُ بذبابِ السيفِ يعضِدُه ... قِرناً يدانيه بالإحسان والنسَبِ

قال: فلما سمعت قريش كلامها وشعرها، أمروها بالنزول والجلوس عندهم، ليعلموا ما عندها وتحقيق علمها، وهل تنطق بما نطق به سطيح أم لا؟ قالوا لها: أيتها الزرقاء انزلي عندنا بالرحب والكرامة والسعة! قال: فنزلت عن البعير وجلست في أوساطهم، فقال لها عتبة بن ربيعة: ما الذي راع سيدة اليمامة؟ هل لك حاجة فتقضى أم ملمّة فتمضى؟ فقالت: ما أنا ذات فقر ولا قليلة المال! جئتكم ببشارة أُبشركم وخذوا حذركم، ليست البشارة لي بل هي عليّ وعليكم، وفيها هلاكي وهلاككم وهلاك من كان مثلي، فقال عتبة: يا زرقاء ما هذا الكلام؟ أراك تعدين نفسك وإيانا الدمار! قالت: يا أبا الوليد وساطح البلاد، ومن هو عالم بالمرصاد، ليخرجنّ من هذا الوادي، نبيّ يدعو إلى الرشاد وينهى عن الفساد، ويقتل الأعادي. سفّاك الدماء نوره يتجدد واسمه محمد، وكأني به عن قليل يولد! ويساعده على ذلك مساعد، ويقارنه في الحسب ويدانيه في النسب، يبيد الأقران ويدمر الشجعان، أسد ضرغام وسيف قصّام، جسور في الغمرات، هزبر[2] في الغارات، له ساعد قوي وقلب جريّ

---

(١) الحرب: الهلاك والويل.

(٢) الهزبر: الأسد.

واسمه عليّ! ثم قالت: آه ثم آه في يوم ألقاه واعِظم مصيبتاه! فيكون لي قصة عجيبة ومصيبة عظيمة! فلو أردت النجاة لسارعت إلى الإجابة وتركت ما أنا عليه من المكيدة! ولكن أرى خوض البحار ونقل الأحجار، والتلوح على النار وقطع الأشجار، أهون عليّ من الذل والصغار! فلا أنا مشترية بعزي ذلاً ولا بعملي جهلاً. ثم إنها بعد ذلك جعلت تنشد وتقول:

ذوي القبائلِ والساداتِ ويْحكم ... إني أقولُ مقالاً كالجَلاميدِ
لوْ كنتُ من هاشمٍ أو عبدِ مُطَّلبٍ ... أوْ عبدِ شمسٍ ذوي الفخرِ الصناديدِ
أو من لؤيٍ سراةِ الناسِ كلِّهم ... أهلِ السماحةِ والتفضيلِ والجودِ
أو منْ بني نوفلٍ أو منْ بني أسدٍ ... أو منْ بني زهرةَ الغُرِّ الأماجيدِ
لكنتُ أولَ من يحظى بصاحِبكم ... إذا جرى ماؤه في يابسِ العودِ
لكنَّما أجلي قدْ حانَ موعِدُه ... لمّا دنا مولدُكَ يَا خيرَ مولودِ

ثم قالت: هيهات هيهات لا جزع مما هو آت، وهو دهر يحول وميت مقتول، وخالق الشمس والقمر، ومن تصير إليه البشر، لقد صدقكم سطيح الخبر فيما أخبر. قال: فلما سمعوا ما قالت الزرقاء حاروا من قولها، ثم إنها نظرت بطرفها يميناً وشمالاً، فنظرت إلى أبي طالب وأخيه عبد الله، وكانت عارفة عبد الله من قبل، لأنه سافر مع أبيه إلى اليمامة في تجارة، قبل أن يتزوج بآمنة، وكان نور النبي ﷺ في وجهه، كأنه الكوكب الدري، وكانت الزرقاء قد نظرت إليه وقد نزل في قصر قريب من قصرها، وكان أبوه قد خرج لحاجة له وتركه عند متاعه، وسيفه عند رأسه، فنزلت إليه الزرقاء مسرعة في يدها كيس من الورق، ثم وقعت عليه وقالت: يا فتى حييت بالسلامة وجللت بالنعمة والكرامة! فمن أي العرب أنت؟ فما رأيت أجمل منك وجهاً! فقال: أنا عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف سيد الأشراف ومطعمي الأضياف، وسادات الحرم ومن لهم السابقة في القدم، قالت: صدقت لأنك أنبل وأفضل وأكمل مما ذكرت! فهل في فرحتين عاجلتين؟ قال: وما هي؟ قالت: هب لي نفسك وجامعني هذه الساعة وخذ هذه الدنانير، وأبذل لك من الإبل مائة ناقة محملة تمراً ووبراً وسمناً! فلما سمع كلامها عبد الله قال لها:

إليك عني فما أشر غرّتك وما أقبح طلعتك! وما هذا الكلام والخطاب؟ يا ويلك! أما علمت أننا قوم لا نرتكب المعاصي ولا نحب الآثام؟ اذهبي بالذلة والإرغام فإني أظنك من نسل اللئام! فقالت: يا هذا إني أزيدك من المال وأُجزل لك من النوال. قال: فلما رآها لا تنتهي عما هي عليه، قبض على قائم سيفه وجذبه وهمّ أن يضربها، فهربت وأيست منه، ورجعت خائبة. فأقبل أبوه فوجده جالساً وسيفه مسلول، والغيظ في وجهه وهو يقول:

أنــرتكِــبُ الحــرامَ بعيــرِ حِــلٍّ ... ونحــنُ ذَوي المفــاخــرِ فــي الأنــامِ
أنــركــنُ للحــرامِ ونحــنُ قــومٌ ... جــوارِحُنــا تُصــانُ عــنِ الحــرامِ
مَعــاذَ اللهِ إنّــا مــنْ أُنــاسٍ ... أمــاجيــدَ جحــاجحــةٍ كِــرامِ

فقال له أبوه: يا فتى ما الذي جرى لك من بعدي؟ فأخبره بخبره ووصف له صفاتها، فعرفها وقال: يا بني هذه الزرقاء كاهنة اليمامة، فقد نظرت إلى النور الذي في وجهك، وغرتك المضيئة وطلعتك البهية، فعلمت أنه الشرف الوكيد والعز الذي لا يبيد، فأرادت أن تسلبه منك، والحمد لله الذي عصمك منها. ثم رحل به ورجع إلى مكة، فزوجه بآمنة بنت وهب، فلما رأته الزرقاء عرفته وعلمت أنه قد تزوج، فقالت له: ألست أنت صاحبي في اليمامة في يوم كذا وكذا؟ فقال لها: نعم. لا أهلاً ولا سهلاً بك يا بنة الخنا! فقالت له: ما فعل بالنور الذي في وجهك؟ فقال لها: إن أبي زوجني بآمنة بنت وهب وانتقل النور إليها، وإنها لذلك أهل ومحل. قالت: صدقت. ولا شك فيما ذكرت. ثم نادت برفيع صوتها: يا أهل العز والمراتب والمفاخر، إن الوقت لمتقارب، وإن الأمر لواقع ما له من دافع! فتفرقوا فلقد دنا المساء وائتوني غداً لتسمعوا مني الأخبار، وتقفوا على حقيقة الآثار. قال: فتفرقوا عنها إلى أماكنهم ومنازلهم، وقد تعلقت قلوبهم بذلك، قال: فلما مضى من الليل شطره مضت إلى سطيح وقد سافر وخرج من مكة فقالت: يا سطيح ما الذي ترى من الرأي؟ فقال: أرى العجب العجيب، والوقت قريب. وقد أخبرها بما جرى له مع قريش، والذي حل به فقالت: يا سطيح ما الذي تصنع؟ فقال: إنّا لا نجد مدفعاً أما أنا فقد تريني حقيقاً قد كبر سني وخمد ذكري، فلولا خيفة العار لعجلت على نفسي الفناء

والبوار[1]، وأمرت من يجرعني كاسات الردى. ولكني أُريد السفر إلى غرة الشام، فأُقيم بها حتى يأتي الحمام. فإنه لا طاقة لي به، فإن المولود مؤيد منصور، ومن عاداه مقهور. قالت: يا سطيح أين أصحابك وأعوانك؟ لم لا يساعدونك على هذا الأمر، ويعينونك على آمنة قبل أن ينزل من الأحشاء؟ فقال لها: يا ويلك يا زرقاء وهل يقدر أحد أن يتعرض لآمنة بسوء؟ فإن من يتعرض لها يعاجله التدمير من اللطيف الخبير! فأما أنا وأصحابي فلا نتعرض لها لأنّا لا نقدر عليها، ولا نجد فيها حيلة، والآن قد أعلمتك فاقبلي نصيحتي، فإنك لن تصلي إلى آمنة بسوء، وحافظها رب السماء، فإن لم تقبلي ذلك فدعيني وما أنا عليه من البلاء وضعف القوى، ولعلي أموت الليلة أو غداً، فدعيني من كلامك يا زرقاء.

قال: فلما سمعت مقالته أعرضت عنه بوجهها، وباتت ليلتها قلقة سهرانة، فلما أصبحت أقبلت إلى بني هاشم، وأنعمتهم صباحاً ومساءً وقالت: أنعم الله لكم الصباح وأشرقت بكم البطاح، وأنارت بكم المحافل وعلوتم على القبائل، ويزداد شرفكم علواً، إذا ظهر فيكم المنعوت في التوراة والإنجيل، فيا ويل من يعاديه، وطوبى لمن تبعه! قال: فلم يبق أحد من بني هاشم إلا وحضرها، وخرجوا إليها وفرحوا بما ذكرت، وأوعدوها بخير. فقالت: ما أنا ذات فقر ولا إملاق، وإني كثيرة المال، جاهي عزيز ومالي جزيل، وما أزعجني عن الأوطان وأتى بي هذا المكان إلا أن أبشركم بالبشارة! فقال أبو طالب: الآن قد وجب حقك علينا! فهل لك من حاجة فتقضى أو ملمة فتمضى؟ فقالت: أُريد أن تجمعوا بيني وبين آمنة حتى أتحقق ما آتيت لكم من البشارة! فقال لها أبو طالب: حباً وكرامة.

ثم سار بها إلى منزله، وأتى بها إلى منزل آمنة، فطرقوا عليها الباب فقامت آمنة وفتحت لهم الباب، فلاح من وجهها نور ساطع، فتقطعت الزرقاء حسداً، وأظهرت التجلد فلما دخلت المنزل، واستقر بها الجلوس، أتوا إليها بطعام فأبت أن تأكل وقالت: إني لن آكل من زادكم ولن أخرج من دياركم،

---

(١) البوار: الهلاك.

حتى أنظر ما يكون من فتاتكم! وسترون ما يكون عنده من العجائب، من سقوط الأصنام وخمود الأزلام[1]، وما الذي ينزل بعبّادها من السماء من الدمار، وما يحل بهم من البوار. ثم إنها خرجت عنها وهي متفكرة حيرانة، كئيبة لهفانة، وأقامت أياماً وهي تدبر الحيلة في هلاك آمنة، فلم تقدر ولم تستطع إلى ذلك سبيلاً، وجعلت تتردد إلى سطيح وتطلب منه المساعدة، والمعاونة على ما عزمت عليه، وهو لا يلتفت إليها، فأقبلت تتردد حتى نزلت على امرأة من الخزرج ـ يقال لها تكنا ـ وكانت ماشطة لآمنة، فلما كان ذات ليلة، استيقظت تكنا فرأت عند الزرقاء شخصاً وهو يخاطبها بهذه الأبيات، يقول:

كاهنةٌ جاءَتْ من اليمامه ... أزعجَها فو هِمّةٍ هُمامَه
لمّا رأتْ نوراً على تِهامَه ... وهوَ لإظهار النبيِّ علامه
محمّد الموْصوفِ بالكرامه ... ستدرِكُ الزرقاءُ به الندامه
لهْفي على سيدةِ اليمامه ... إذا أتاها صاحبُ الغمامَه

قال: فلما سمعت الزرقاء منه ذلك الكلام، وثبت قائمة إليه وقالت: لقد كنت لي محباً وأنت صاحب الوفاء! فما الذي حبسك عني هذه المدة الطويلة، وأنا في هموم متواترات وزفرات متتابعات، وسكرات! فقال لها ذلك الشخص، وهو صاحبها من الجن: ويحك يا زرقاء! لقد نزل بنا أمر عظيم أعظم مما نزل بك، ولقد كنا نصعد إلى السماوات السبع ونسترق السمع، إلى أن بعث الله المسيح عيسى بن مريم، فطردنا من أربع سماوات، فلما كان في هذه الأيام طردنا من السماوات كلها، وسمعنا منادياً ينادي في السماوات العليا: إن الله تعالى يريد أن يخرج عبده وحبيبه محمد، ومنعت الشياطين المردة من الصعود، فانقضّت علينا الملائكة وبأيديهم شهاب من نار، فسقطنا كأننا جذوع النخل، وقد جئت لأُحذركم فاحذروا. قال: فلما سمعت مقالته قالت له: انصرف عني فلا بد أن أجهد بمجهودي في هلاك هذا المولود! قال: فانصرف عنها وهو ينشد ويقول:

إني نصحتُكِ بالنصيحةِ جاهداً ... فخُذي لنفسِكِ واقبَلي منْ ناصِحِ

(١) الأزلام: السهام لا ريش عليها. وكان العرب يستقسمون بها في الجاهلية.

لا تطلُبـي أمـراً عليـكِ وَبـالُـهُ فلقـدْ أتيتُـكِ بـاليقيـنِ الـواضـحِ
هيهـاتِ أن تصِلـي إلـى مـا تطلُبـي مـنْ دونِ ذلـكَ كـلُ خطـبٍ فـادحِ
فـاللهُ يحفـظُ عبـدَه ورسـولَـهُ مـن كـلِّ سـاحـرةٍ وأمـرٍ فـادحِ
عُودي إلى أرضِ اليمامةِ واحذَري مـنْ شـرِّ يـومٍ سـوفَ يـأتـي كـادحِ

قال: ثم إن الجني طار عنها، وتركها في همّها وغمّها. هذا وتكنا تسمع كلامه، وكأنها لم تسمع بما جرى عليها. قال: فلما أصبحت جلست بين يدي الزرقاء وقالت لها: ما لي أراك غرقانة بالهموم وأثر الهمّ في وجهك لا يخفى، وإني أراك غير صحيحة ولا تخفي علي ذلك، وإن لك خبراً قد أخفيته! فقالت لها: يا أُختاه إن الذي رأيته من أجل مولود، يدعو إلى خير معبود، يكسر الأصنام، ويدمر الأوثان ويذل الكهان، ويخرب الديار ولا يترك أحداً من ذوي الأبصار. وأنت تعلمين أن التلوّح على النار أيسر من الذلة والصغار! فلو وجدت من يساعدني على قتل آمنة، لبذلت المنى وأعطيته الغنائم. ثم إنها عمدت إلى كيس من الذهب كان معها، فصبته بين يديها فلما رأت تكنا المال، لعب الشيطان بعقلها وقالت: يا زرقاء لقد ركبت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً، والوصول إليه بعيد، وإني ماشطة نساء بني عبد المطلب، لا يدخل عليهن غيري، وإن الذي بذلته إليّ من المال فوق الكفاية، ولكني متفكرة في العواقب، ولا آمن من المصائب! فكيف أجسر على ما وصفت، والوصول إلى ما ذكرت؟ فقالت لها الزرقاء: إنك إذا دخلت على آمنة وجلست بين يديها لتزينيها، فاقبضي على ذوائبها واضربيها بهذا الخنجر، فإنه مسموم، فإذا اختلط السم بالدم هلكت من وقتها وساعتها. فإذا وقعت في تهمة ووجبت عليك الدية، فإني أدفعها عنك ولو كانت عشر ديات! وأزيدك على ما بذلت لك غير الذي أدفعه إليك في قعدتي هذه فما أنت قائلة؟ فقالت: إني سأُجيبك إلى ما سألت وأُطيعك فيما ذكرت، غير أني أُريد منك أن تدبري لي الحيلة، وتشغلي عني بني هاشم، حتى لا يقع الصوت في آذانهم، فيكون فيه هلاكي! فقالت الزرقاء: إني سآمر عبيدي أن يذبحوا الذبائح ويسكبوا الخمور في الجفان، وأدعوهم يأكلون ويشربون، فإذا أكلوا وشربوا، ظفرت بحاجتك! فقالت: الآن تمت الحيلة، فافعلي ما ذكرت.

قال: فصنعت الزرقاء طعاماً كثيراً، وملأت الجفان وأمرت عبيدها أن يحضروا بني هاشم، وأهل مكة جميعاً، فلم يبق أحد إلا وحضر وليمتها. قال: فلما أكلوا وشربوا وخالطهم الشراب، وغابوا عن الأبصار، أقبلت مسرعة إلى تكنا وقالت: الآن تمت الحيلة. ثم إنها ناولتها الخنجر، وقد أسقته السم، قال: فأخذته من يد الزرقاء ودخلت على آمنة، فلما رأتها رحبت بها، وسألتها عن حالها وقالت: إني لم أتعود منك هذا الجفاء فما الذي حبسك عني؟ فقالت: قد شغلني همّي وغمّي، فلولا أياديكم الباسطة علينا لكنا بأسوأ حال! ولم أجد ما أتقرب به إلى بعلك إلا بزينتك. قال: فأقبلت آمنة وجلست بين يديها، فلما فرغت من تسريح شعرها، عمدت إلى الخنجر وأرادت أن تضربها، قال فأحست تكنا كأن قابضاً قبض على يديها وفؤادها، وغشي عليها وسقط الخنجر من يدها إلى الأرض، فصاحت آمنة وتبادرت إليها النسوان وقلن: ما دهاك؟ فأخبرتهم بقصة تكنا، ثم قالت: الحمد لله الذي صرف عني كيدها! ثم قلن لتكنا: ما الذي حملك على هذا الأمر؟ فتلجلج لسانها وقالت: لا تلمنني، حملني الطمع والغرور. فأخبرتهن بالقصة وقالت لهنّ: يا ويلكم دونكم الزرقاء فاقتلوها قبل أن تقع بكم الندامة! ثم سقطت على وجهها ميتة.

قال: وخرجت النساء يصرخن، فلما سمع بنو هاشم الصراخ، أقبلوا مسرعين إلى منزل آمنة، فإذا هم بتكنا ميتة، وقد تجلى من آمنة نور شعشعاني، وقد دفع عنها كل محذور. قال: فصاح أبو طالب: يا ويلكم دونكم الزرقاء! فلما أتاها الخبر خرجت هاربة على وجهها، فتبعوها فلم يقفوا لها على خبر، ولم يجدوا لها أثراً. فلما سمع أبو جهل بالحديث قال: وددت أن الزرقاء قتلت آمنة! ثم إن سطيحاً أمر غلمانه أن يحملوه، فحملوه على راحلته إلى الشام، وبقي فيها إلى أن ولد رسول الله ﷺ. فلما ولد لم يبق صنم ولا وثن إلا وأصبح مكبوباً[1]، وغارت بحيرة ساوا وفاض وادي سماوا، وخمدت نيران فارس وارتج إيوان كسرى، وكان جالساً فيه، وانشق ووقعت منه أربعة وعشرون شرافة، قال: فلما نظر كسرى إلى ذلك أهاله وأقلقه، ودعا بوزرائه وأعلمهم

(١) مكبوب: ساقط على وجهه.

وقال: ما هذه المصيبة والأمر الذي جرى في هذه الليلة؟ فهل عندكم علم؛ فقام إليه الموبذان[1] وقال: أيها الملك قد رأينا إبلاً صعاباً تقودها خيل عراب، قد خاضت الوادي وانتشرت في البادي، وما هذا إلا أمر عظيم! قال: فبينما هم كذلك، إذ ورد إليهم كتاب بإخماد نيران فارس، فازداد هماً وغماً، ثم أتاهم خبر بحيرة ساوا ووادي سماوا، فقال الموبذان: أيها الملك! إنا لم نخبر، ولكن لو كان أحد من العلماء سألناه قال فكتب إلى النعمان بن المنذر كتاباً، وأعلمه بالخبر، فبعث إليه رجلاً يقال له عبد المسيح، وكان ابن أخت سطيح، فقال له كسرى: هل معك علم؟ فقال: إن لي خالاً يسمى بسطيح، ولكنه الآن ساكن بالشام، وإنه يعلم بذلك. فقال له كسرى: سر إليه وائتني بالجواب، فإني أجزل لك العطية. قال: فخرج من ساعته وجعل يجدّ السير ليلاً ونهاراً، إلى أن وصل الشام فوجد سطيحاً يعالج سكرات الموت، فسلم عليه فلم يرد عليه جواباً، فلما كان بعد ساعة فتح عينيه وقال: قد أقبل عبد المسيح على جمل يسيح، من عند كسرى يصيح رسول الله إلى سطيح، سيد بني غسان، يسأل عن انفجاج الإيوان وخمود النيران، ورؤيا الموبذان أن إبلاً صعاباً تقودها خيل عراب، قد قطعت الوادي وانتشرت في البادي، فإن ذلك ما كنا نتوقع من خروج السفّاك الهتّاك، الذي تقاتل معه الأملاك، وحق فالك الأفلاك يا عبد المسيح إني أقول لك قولاً صحيحاً، إذا فاض وادي سماوا وغارت بحيرة ساوا فليس الشام لسطيح بمقام، وإنه يتمنى الحمام. وسوف يملك منه ملك على عدد الشرفات المسمى قطاة، وكل ما هو آتٍ آت، وتكون الراحة لسطيح في الممات. ثم إنه صرخ صرخة فمات لا رحمه الله.

قال: ثم إن عبد المسيح استوى على راحلته، وأتى إلى كسرى وأخبره بذلك، فأعطاه وأنعم عليه، فلما أشرفت آمنة بحملها وتتابعت شهورها، فما مر شهر إلا وسمعت منادياً ينادي من السماء يقول: مضى لحبيب الله كذا وكذا. وكانت تهتف بها الهواتف في الليل والنهار، وتخبر بذلك زوجها عبد الله، فيوصيها بكتمان أمرها ويقول لها: اكتمي أمرك إلى أن مضى لها ستة أشهر،

---

(١) الموبذان للمجوس كقاضي القضاة للمسلمين.

وهي لا تجد ثقلاً وكانت كل يوم تزداد حسناً وجمالاً، وبهجة وكمالاً، وبهجة وكمالاً قال: فلما دخلت في الشهر السابع دعا عبد المطلب بولده عبد الله وقال له: يا بنيّ إنه صار لزوجتك كذا وكذا، وقد دنا لها ما بعُد، وإنه لا بد لنا من وليمة نعملها، ويحضرها أهل مكة جميعاً. فامض يا بني إلى يثرب، واشتر لنا تمراً. فخرج عبد الله من ساعته، وجدّ بالمسير إلى أن وصل يثرب، فطرقته العلة وأدركه الموت، فمات بها فوصل خبره إلى أبيه وإخوته، فأقاموا عزاءه، وعظم ذلك عليهم، وبكى أهل مكة جميعاً، وقال الشاعر في هذا المعنى، **(أفلح من يصلي على الرسول وآله)**:

بشهرِ ربيعٍ نلْنا المُنى ... ونِلْنا السرورَ ودَامَ الهَنا
بهِ مولدُ المصطفى أحمدٍ ... كريمِ الأيادي عظيمِ الهنا
تكمَّلَتْ أفراحُنا إذا بدا ... فأكْرِمْ بهِ من حبيبٍ دنا
أبانَ بفضلِ الهدَى نورَه ... فنلْنا بنورِ الهُدى رشْدَنا
ولما أتى يومُ ميلادِه ... جعلْناه لِما أتى عِنْدنا
بمولدِه شَرف الكائِنات ... وجاءَ السرورُ وزلَّ العنا
فهذا الشفيعُ الرفيعُ الذي ... به يغفِرُ اللهُ عمّا جنى
فصلّوا عليهِ عسى تبلُغوا ... جِنانَ النعيمِ ونيْلَ المُنى

وقال غيره شعراً:

أهلاً بشهرِ الوَفا ... ومولدِ المصطفى
فيهِ الهنا والوَفا ... سابِعَ عشرٍ ما خفى
أهلاً بذاك الجمالْ ... أزالَ عنّا الضَّلالْ
ولاحَ فجرُ الوِصالْ ... وغابَ ليلُ الجفَا
إيوانُ كِسْرى نَبا ... لما أتى بالنّبا
ونارُ فارسٍ خبَا ... لهيبُها وانطَفى
لمّا تبدّى الرسولْ ... سبَى جميعَ العُقولْ
ماذا عسَى أنْ أقولْ ... في مدحِ ذا المصطفى
خيرِ الأنامِ البشيرْ ... الهاشميّ النذيرْ

الآمِـــــن المستجيـــــرْ بـــــه الميهمِـــــنُ عفـــــى
صلّـــوا علـــى ذا الحبيـــبْ مـــــنْ حبَّـــــه لا يخيـــــبْ
لـــه الجنـــابُ الـــرحيـــبْ القـــربُ فـــي الاصطِفـــا

قال: فلما دخلت آمنة في الشهر التاسع، وبلغت العدة التي أرادها الله تعالى، وليس فيها أثر ولا وجع، وكانت منفردة بدارها، إذ سمعت ضجة ووجبة عظيمة، ففزعت منها، وإذا قد نزل عليها طير أبيض ومسح بجناحه على بطنها، فزال عنها ما كانت تجده من الخوف، فبينما هي كذلك إذ دخل عليها نساء طوال، تفوح منهن روائح المسك الأذفر، والندّ[1] والعنبر، وقد تقمّصن بأطمار من العبقري[2] الأحمر، وبأيديهن أكواب من البلور الأبيض، وقالوا لها: اشربي من هذا ليزول عنك ما تجدين! فشربت منه آمنة، ثم قالت لما شربته: أضاء من وجهي نور ساطع فجعلت أقول: من أين دخلت علي هؤلاء النسوة؟ وكنت قد أغلقت الباب على نفسي، وجعلت أنظر إليهن فلم أعرفهن؟ ثم قلن لي: يا آمنة أبشري بسيد الأولين والآخرين محمد:

صلّـى الإلـهُ وكـلُ عبـدٍ صـالـحِ الطيِّبـونَ علـى السِـراجِ الـواضِـحِ
زيْـنِ الأنـامِ المجتبـى عَلَـمِ الهـدى الصـادقِ البـرِّ التقـيِّ النـاصـحِ
المصطفـى خيـرِ الآنـامِ محمّـدٍ الطـاهـرِ العَلَـمِ النبـيِّ الـراجِـحِ
صلّـى عليـهِ اللهُ مـا هـبَّ الصَّبـا وتجـاوَبـتْ وُرْقُ الحمـامِ النـاجـحِ

قالت آمنة: ثم قلن: هذا محمد مصباح الأرضين، ثم خرجن عني، وإذا أنا بثوب من الديباج، قد نشر ما بين السماء والأرض، وقائل يقول: خذوه وغيِّبوه عن أعينِ الناظرين، فإنه رسول رب العالمين قالت آمنة: فأخذني الفزع والجزع، وأنا أنظر إلى خفقان أجنحة الملائكة وتسبيحها وتقديسها، وأطيار مختلفة الألوان حمر المناقير. قالت آمنة: فبينما أنا متعجبة من ذلك، ومما رأيت منهم، إذ وضعت بولدي محمد ﷺ ساجداً على الأرض، تلقاء الكعبة رافعاً يديه إلى السماء كالمتضرع إلى ربه، وسمعت من داخل البيت قائلاً يقول:

---

(١) الندّ: عود يتبخّر به.

(٢) العبقريّ: الديباج. والأطمار: الأثواب.

كـمْ آيـةٍ ظهَـرتْ لنـا فـي حكمِـهِ ... مـا ليـسَ يَخْفَـى فـي الأنـام ظُهـورا
ورأتْـــه آمنـــةٌ يسبِّـــحُ ســـاجـــداً ... وقْـــتَ الـــولادةِ للسمـــاءِ مُشيـــرا
صلّـــى عليـــهِ الله رُبـــي دائمـــاً ... مـــا دامَـــتِ الـــدنيـــا ودامَ سُـــرورا

وقيل في مدح الرسول تهنئة لذوي العقول:

ولـــدَ الحبيـــبُ فـــي ربيـــع الأوَّلِ ... والكونُ يرقصُ والكواكِبُ تنجلي
ذا مـــولـــودٌ مبعـــوثٌ لَنـــا ... مـــنْ عهـــدِ آدَم فـــي زمـــانِ الأوَّلِ
وحكـوا عـروسَ جمـالِـه فـي حلّـه ... مـا كـانَ فيهـا قبلَـه أحـدٌ جَلـي
وتقـــولُ آمنـــةٌ رأيـــتُ جمـــالَـــهُ ... كـالبـدْرِ فـي تَـمٍّ يحـلُّ وينجلـي
ورأيـــتُ أمـــلاكَ السمـــاءِ تـــزفُّـــهُ ... والطيرُ يـرقصُ والهَنا في منـزلي
نـاديْـتُ مـن هـذا فقيـلَ مِـن العـلا ... لا تسـألـي عـن فخـرِه لا تسـألـي
لا تحجبيـه عـن مـلائِكـةِ السّمـا ... بحيـاتِـــه بحيـــاتِـــه لا تفعلـــي
هـذا المشـرَّف والمفضَّـل والـذي ... فاقَ الأنامَ وصاحبَ القدرِ الجلي
هـذا الـذي وَطـأ البِسـاطَ بنعلِـه ... هـذا الـذي مـنْ حبَّـه قلبُـهُ جلـي
يـا نـوقُ إنْ جئـتِ الخيـامَ عشيـةً ... حولَ الخيامِ فقدْ نصحتُكِ فانزِلي
تلـكَ البشـارةُ فـي ذاكَ الحِمـى ... بـدراً يفـوقُ على الأنـامِ إذا جُلـي

ولقد أجاد الشاعر في مدح محمد المصطفى حيث يقول:

ولـــدَ الحبيـــبُ وخـــدُّه متـــوردُ ... والنـورُ فـي وجنـاتِـه يتـوقَّـدُ
ولـدَ الـذي لـولاهُ مـا كـان البَقـا ... كـلاّ ولا ذُكِـر الحِمـى والمعهَـدُ
جبـريـلُ نـادى فـي بـديعـةِ حسْنِـه ... هـذا مليـحُ الـوجْـهِ هـذا أحمـدُ
هذا كحيلُ الطرْفِ هذا المصطفى ... هـذا جميـلُ الـوجـهِ هـذا السيّـدُ
هـذا جليـلُ القـدرِ هـذا المـرتضى ... هـــذا حبيـــبُ اللهِ ذاك محمّـــدُ
هـذا الـذي خُلِعَـتْ عليـهِ ملابـس ... ونفـائـس ونظيـرَهـا لا يـوجَـدُ
قـالَـتْ مـلائكـةُ السمـاءِ بـأسْـرِهـا ... ولـدَ الحبيـبُ ومثلَـه لا يـولَـدُ
ولـدَ الـذي لـولاهُ مـا كـان التُّقـى ... كـلاّ ولا كـانَ الحقيقـةَ يقصِـدُ
إنْ كـانَ يـوسُـفُ قـد أفـاق جمـالُـه ... وأقسمْـتُ ذا المـولـودُ منـه أرشَـدُ
أوْ كـانَ قـد أعطـى الكليـم عبـادَةً ... فمحمّـــدٌ منـــهُ أجـــلُّ وأعبَـــدُ

يـا عـاشِقيـنَ تـولَّعـوا فـي عشْقِـه ... هـذا جميـلُ الحسْـنِ هـذا الْمفـردُ
يا مولد المختارِ كمْ لك منْ هَنا ... ومـدائـحَ تعلـو وذكـرُك يـوجَـدُ
يـا ليـتَ كـلَّ الـدهْـرِ عنـدي ذكـرُه ... يـا ليـتَ طـولَ العمْرِ عنـدي مـولِـدُ
بُشْـرى لآمنـةَ بـرؤيـا حُسْنِـه ... هـذا هـو الجـاهُ العظيـمُ الأزيـدُ
وضعتْـه مختـونـاً ومكحـولاً كمـا ... قدْ جاءَ يذكَرُ في الحديثِ ويُسْنَدُ
أُعطي الخطـابَ مـن الإلـهِ تشـرُّفـاً ... يـا واحـدَ الأكفـاءِ أنـت محمّـدُ
لـولاكَ مـا ذُكِـرَ العقيـقُ ولا الحِمى ... وحيـاةِ وجهِـكَ يـا بنـي الأوحـدُ
أتـرى بنجْـدٍ أسمـعُ الحـادي بنـا ... يحـدو بـذكـرِكَ بـالحديـثِ وينشِـدُ
ويقـولُ يـا عُشّـاقَ هـذا المصطفـى ... ويشيـرُ للمختـارِ هـذا السيّـدُ
يـا نـازليـنَ المنحَنى فـي شـرْعِكـم ... إنّ المتيَّـم بـالفـراقِ يُهَـدَّدُ

قالت آمنة: فبينما أنا كذلك، إذ سمعت من داخل البيت أصواتاً مختلفة، وإذا بسحابة بيضاء قد نزلت عليّ وعلى ولدي، فغيّبته عني، ولم أره وسمعت قائلاً يقول: طوفوا بمحمد ﷺ مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها وسهلها وجبلها، واعرضوه على الجن والإنس ليعرفوه، ويعرفوا نعته وأمره. وقيل فيه:

صلّى الإلـهُ على النبيِّ المصطفى ... خيـرِ الأنـامِ أتـى بـه التنـزيـلُ
وبفضلِـه نطـقَ الكِتـابُ ونبَّـأتْ ... بِصفـاتِـه التـوراةُ والإنجيـلُ
أسْرى بِهِ المولى إلى أُفقِ السما ... فـوقَ البُـراقِ وعنـدَهُ جبْـرِيـلُ

قال: ولما ولد رسول الله ﷺ، أعلنت الملائكة بالتسبيح والتقديس، واهتز العرش طرباً، وخرجت الحور من قصورها، وقيل لرضوان: زيِّن الجنة جنة الفردوس. قالت آمنة: وكان بين غيبته ورجوعه أسرع من طرفة عين، وإذا به قد أُدرج في ثوب أبيض من صوف، وهو مكحل مختون مدهون، وهو قابض على ثلاثة مفاتيح، ورجل قائم عند رأسه. وإذا بقائل يقول: قد قبض محمد على مفاتيح النصر والنبوة والكعبة، والدنيا وما فيها. فبينما أنا كذلك وإذا أنا بسحابة أُخرى أعظم من الأُولى، فسمعت منها خفقان أجنحة الملائكة، حتى نزلت عليَّ وعلى ولدي، وغيّبته عني كالمرة الأُولى، وإذا أنا بقائل يقول:

طوفوا بمحمد على جميع النبيين واعرضوه على سائر المرسلين، وأعطوه صفوة آدم ورأفة نوح، وحلم إبراهيم ولسان إسماعيل، وحسن يوسف وصبر أيوب، وصوت داود وزهد يحيى، وكرم عيسى وشجاعة موسى، واغمسوه في أخلاق الأنبياء. وقال الشاعر في هذا المعنى **(أفلح من يصلي على الرسول وآله)**:

يا قاصداً نحو الحطيمِ وزمزمِ ... بلِّغْ سلامي للنبيِّ الأكْرمِ[1]
وقل السلامُ عليكَ يا مولى الوَرى ... أنتَ الدليلُ إلى السبيلِ الأقوَمِ[2]
صلّى عليكَ اللهُ ما هبَّ الصَّبا ... وترنَّمتْ ورْقا بصوتٍ ترنُّمِ

قالت آمنة: فرأيت ولدي قابضاً على حريرة بيضاء مطوية طياً شديداً، والماء يخرج منها وقائلاً يقول: قد قبض محمد على الدنيا بأسرها، ولم يبق شيء إلا ودخل في قبضته! قالت آمنة: وسمعت قائلاً يقول:

ألا فأكثروا التسبيحَ بعدَ صلاتِكم ... للسيِّدِ المختارِ ذاك الأمجدْ
ومنْ يكُ ذا بُخلٍ إذا عدّ ذِكرهُ ... فذاكَ عنِ الحقِّ المبينِ مبتعِدْ

وروي عن النبي ﷺ أنه قال من صلّى علي وعلى آلي لم يمت حتى يبشَّر بإيمانه. وأبخلهم من ذكرت عنده ولم يصلِّ علي. ومن عسر عليه أمر فليكثر من الصلاة عليّ فإنه يفرج الله عنه. قالت آمنة: فبينما أنا كذلك وإذا بثلاثة نفر قد دخلوا علي، والنور يسطع من وجوههم، وبيد أحدهم إبريق من الفضة البيضاء، والآخر بيده طشت من الزبرجد الأخضر، وبيد الثالث منديل من السندس الأخضر. قالت آمنة: فوضع الطشت من يده وقال له: يا حبيب الله اقبض أنى شئت! قالت آمنة: فقبض ولدي على وسطها وسمعت قائلاً يقول: قد قبض محمد ﷺ على الكعبة وما حولها. ورأيت النور يشرق منه كأنه الشمس، ثم حمله صاحب الطشت وصب الآخر عليه الماء سبع مرات، ثم مسح وجهه صاحب المنديل، وختم ما بين كتفيه بذلك الخاتم، ثم لفه ما بين جناحيه، فسألت من هذا؟ فقيل هذا رضوان خازن الجنان! ثم كلمه في أُذنيه بكلام لم أفهمه، ثم قال له: أبشر يا حبيبي فإنك سيد الأولين والآخرين، والشفيع فيهم

(١) الحطيم: حجر مكّة ممّا يلي الميزاب.
(٢) الورى: الخلق.

يوم الدين، فطوبى لمن اتبعك والويل لمن حاد عنك! وقيل في هذا المعنى:

فيا خيرَ مولودٍ تعظَّمَ فخرُه ... وأتى بأشرَفِ مِلَّةٍ وكِتابِ
صلّى عليْكَ الله يا خيرَ الورى ... ما هلَّ في الآفاقِ قطرُ سحابِ
يا خيرَ مبعوثٍ لآخِرِ أُمَّةٍ ... ويا خيرَ من يدعُو لسبلِ صوابِ

قالت آمنة: ثم خرجوا عني وأنا متفكرة فيهم، ولم أعلم كيف خرجوا. وقد قيل في هذا المعنى شعر:

صلُّوا على خيرِ الأنامِ كرامةً ... وجلالةً يا معشَر الإسلامِ
فهوَ النبيُّ المصطفى عَلَمُ الهدى ... يا خيرَ من يدْعو لسبلِ قِوامِ
نطقَ الكتابُ بفضلهِ وجلالهِ ... وبذكْره نشْفَى منَ الآلامِ
صلّى عليهِ اللهُ ربّي دائماً ... ما لاح نجمٌ تحتَ جُنْحِ ظلامِ[1]
فهوَ السبيلُ لدارِ كلِّ كرامةٍ ... وهوَ الدليلُ بجنَّةٍ وسلامِ
وهو الشفيعُ لمن أرادَ بدينهِ ... ولمنْ أتى لملَّةِ الإسلامِ

قالت آمنة: ورأيت ثلاثة أعلام قد نصبت؛ واحد بالمشرق والثاني نحو المغرب والثالث بأعلى الكعبة، والنور مثل قوس السحاب من عنان السماء إلى وجه الأرض، قد أُنزلت فكشف الله عن بصري، فرأيت ما كان هناك، وتلك الأعلام من نور قائم مثل قوس السحاب، ثم رأيت بعد ذلك سحابة قد نزلت عليه وغيَّبته عني ساعة طويلة، ولم أره وأنا متعلقة بالقلب به، وقد حيل بيني وبينه، وأنا أظن أني نائمة وأمسح بيدي على عيني، فبينما أنا كذلك، إذا أنا بولدي مكحّل ومقمّط في قماطٍ تفوح منه رائحة المسك الأذفر، قال عبد المطلب: وإني كنت في الساعة التي ولد فيها رسول الله ﷺ وأنا أطوف بالكعبة، وإذا بالأصنام قد تساقطت وتزلزلت، وإذا بالصنم الكبير قد وقع على وجهه، وسمعت قائلاً يقول: الآن آمنة قد ولدت بمحمد ﷺ. وقال عبد المطلب: فلما رأيت ما حل بالأصنام تلجلج لساني وتحير عقلي ورجف فؤادي، حتى صرت لا أستطيع الكلام ثم خرجت مسرعاً وأتيت إلى منزل آمنة،

---

(١) لاح: ظهر.

وإذا بالصفا والمروة يركضان بالنور فرحاً، وقد قيل فيه شعر:

صلّـــوا علـــى خيـــرِ العبـــاد ... المصطفـــى كنـــز الـــرّشـــاد
صلّـــوا علـــى خيـــرِ العبـــاد ... الكنْـــزِ فـــي يـــومِ المَعـــاد
مـــنْ قـــد رَقـــى سبـــعَ الشِّـــداد ... ونـــالَ فـــي الـــدنيـــا المُـــراد
يـــا آمنـــه حُلْـــوى الهنـــا ... صلّـــوا علـــى عـــالـــي السّنـــاد
محمـــــدٌ كـــــلُّ المنـــــى ... ومـــن سكـــنَ وسْـــطَ الفـــؤاد

وقيل أيضاً فيه شعر، **(صلوا على خير الورى)**:

صلّـــوا عليـــهِ وسلِّمـــوا تسليمـــا ... حتّـــى تنـــالـــوا جنَّـــةَ النعمـــاء
هـــو سيِّـــدُ الكـــونَيْـــنِ سيِّـــدُ هـــاشـــمٍ ... مـــا فـــي سيـــادتِـــه عليـــهِ مـــنْ إخفـــاء
شَـــرُفَ المُقـــامُ بـــه وزمـــزمُ والصّفـــا ... ومُنـــى وبيـــتُ اللهِ والبطحـــاء
مـــنْ نـــورِ ربِّ العـــرش كُـــوِّن نـــورُه ... والنـــاسُ فـــي خلـــقِ التـــرابِ ســـواء
وبـــهِ تـــوسَّـــلَ آدمٌ مـــن ذنْبـــهِ ... وتشفَّعـــتْ بمقـــامِـــه حـــوّاء
وبـــهِ تـــوسَّـــل نـــوحٌ فـــي طُـــوفَـــانِـــه ... فـــأُجيـــبَ حيـــنَ طغـــى عليـــهِ المـــاء
وبـــه دعـــا إدريـــسُ فـــارتفعَـــتْ لـــه ... عنـــد المهيمـــنِ رتبـــةُ العليـــاء
وبـــهِ الخليـــلُ نجـــى مـــن النـــارِ التـــي ... قـــد أضـــرمَـــتْ مـــن أجلِـــه الأعـــداء
وبـــه الـــذبيـــحُ نجـــى وحيـــى حيـــاتَـــه ... لمّـــا أتـــاه مـــنَ الإلـــهِ نـــداء
وببعثِـــه التـــوراةُ تشْهـــدُ بفضلِـــه ... بـــالمصطفـــى ولهـــا عليْـــهِ ثنـــاء
إنجيـــلُ عيســـى والـــزبـــورُ بفضلِـــه ... شَهِـــدَا ففـــي هـــذا الفَخـــارِ عـــلاء
اللهُ أكبـــرُ مـــا أتـــمَّ فخـــارَه ... فـــي بعـــضِ ذا فلتخبـــرِ العُلَمـــاء
قـــدْ أنـــزلَ القـــرآنُ فـــي أوصـــافِـــه ... مـــاذا تقـــولُ بمـــدحِـــه الشعَـــراء
صلّـــى عليـــه اللهُ فـــي سبـــعِ العُـــلا ... مـــا لاحـــتِ الأنـــوارُ والظُّلَمـــاء

قال عبد المطلب: فأتيت إلى آمنة، وإذا أنا بغمامة بيضاء قد عمّت المنزل، فلما قربت من الباب عبقت برائحة المسك والعنبر، فدخلت عليها فرأيتها جالسة وليس عندها أثر النفاس، فقلت لها: أين الولد الذي ولدته؟ قالت: قد حيل بيني وبينه، وقد أتاني آتٍ وقال لي: يا آمنة لا تجزعي ولا تخافي فإنك لا ترينه إلا بعد ثلاثة أيام. قال عبد المطلب: فجذبت عليها السيف

وقلت لها: أخرجي إليّ ولدي في هذه الساعة، وإلا علوتك بهذا السيف! فقالت آمنة: شأنك. فإن ولدك بهذه الدار. قال: فهممت بالدخول عليه، وإذا أنا بشخص كأنه النخلة السحوق[1] ولم أر أهول منه منظراً، فلما رآني برز إليّ وسلّ سيفه وقال: لا سبيل لك ولا لأحد حتى تنقضي زيارة الملائكة! قال: فرجعت خائفاً مرعوباً.

قال صاحب الحديث: بلغنا أن في الساعة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، طردت المردة والشياطين وخرجوا هاربين، فمنهم من أُغمي عليه ومنهم من مات. وأما وشق وسطيح فإنهما هلكا في تلك الساعة. وأما الزرقاء فإنها كانت في تلك الساعة جالسة مع خدمها وجواريها، وإذا هي قد صرخت صرخة عظيمة، وغشي عليها فلما أفاقت من غشوتها أنشأت تقول:

أما المحالُ فقد مَضى لسبيلِه ... ومضَتْ كهانةُ معشرِ الكُهّانِ
جاءَ البشيرُ فكيف لي بهلاكِه ... هيهاتِ جاءَ الأمرُ بالإعلانِ

قال: ولما تم له ثلاثة أيام، دخل عليه جده عبد المطلب، فلما نظر إليه قال: الحمد لله الذي صدقنا وعده وأخرجك لنا حيث وعدنا بقدومك، فإذاً لا أُبالي بالموت، ما أصابني بعد هذا اليوم! ثم قبّله ودفعه إلى أُمه، فجعل يهش ويضحك في وجهه كأنه ابن سنة. فقال لها عبد المطلب: احفظي قرة عيني فإنه سيكون لولدك يا آمنة شأن وأيّ شأن، كما أخبرنا به الكهان في قديم الزمان! قال: وأقبل إليه الناس يهنئونه بما أعطاه الله تعالى. وقال الشاعر في هذا المعنى:

سلامٌ سلامٌ سلامٌ سلامْ ... سلامٌ عليكمْ فرُدّوا السّلام
سلامٌ على أهل هذا المقامْ ... ما جنَّ ليلٌ ونَاحَ الحمام
سلامٌ عليكمْ أتيناكموا ... نهنِّيكم اليومَ بهذا الغُلام
ونقرَى وندعو لكمْ جميعاً ... وعيدٌ مباركٌ عليكمْ تمام
فلا أوحشَ اللهُ من شهرِنا ... مضى وتقضّى عليكم تمام

(١) النخلة السحوق: الطويلة.

هنيئـــاً مـــريئـــاً بهـــذا الغـــلام ... وأبـــركُ يـــومٍ وأسعـــدُ عـــام
تعيشـــون حتـــى تـــزورونـــه ... وتجلَـى عـروسـاً كبـدرِ التمـام
فيـا ربِّ سلِّـم لـي هـذا الغـلام ... بحـرمـةِ محمّـدٍ عليـه السـلام
وبلِّغـــه اللهُ مـــا يشتهـــي ... على رغـمِ أنـفِ الأعـادي اللِّئـام
علـى بيـرِ زمـزمٍ نصبْنـا الخيـام ... وتحـتَ الخِيـام رجـالٌ كِـرام
وفيهـمْ بـدويٌّ مليـحُ اللِّثـام ... واسمُـه محمَّـدٌ عليْـه السـلام
فقـومـي نـزوره يـا آمنـة ... فهـذا نبـيٌّ شفيـعُ الأنـام
هجـرْتُ الكَـرى مـع لـذيـذِ المنـام ... فقلْـتُ سـلامٌ سـلامٌ سـلام
وصلّـوا عليْـه تنـالـوا المُنـى ... فكُـل صـلاةٍ بعشْـرة تمـام

قال الراوي: وكان كلما دخلت على آمنة امرأة لتهنئها بمحمد، عبقت منه بروائح المسك والطيب، فكان الرجل يقول لزوجته: من أين لك هذه الرائحة؛ فتقول: هذا من طيب محمد ﷺ! قال: وأقبلت إليها القوابل ليقطعن سرته، فوجدوه مقطوع السرة، فقلن لها: يا آمنة ما كفاك أنك وضعت به ولم تعلمي به أحداً حتى قطعت سرته بيدك؟! فقالت آمنة: والله ما رأيته إلا كما رأيتموه! فتعجبن من ذلك. قال: فلما مضت له سبعة أيام أولم عبد المطلب وليمة عظيمة، وذبح فيها الأغنام ونحر الإبل، ثم أكل الناس منها ثلاثة أيام، وما فضل من ذلك الطعام رموه في البرية، تأكله الوحوش والسباع والطيور.

الجـزء السابع:

ولادة النبيّ (ص) وظهور دلائل نبوّته

قال أبو الحسن البكري: حدثنا أشياخنا وأسلافنا الرواة لهذا الحديث، أنه لما تم لمولد النبي ﷺ سبعة أيام، التمسوا له مرضعة تربيه، ثم قال له واحد من قومه: يا عبد المطلب إني سأنظر لك وأنت السيد الكريم، فينبغي أن تلتمس لولدك مرضعة، فإنك اليوم كافله والمتولي أمره. فقال عبد المطلب: يا آمنة من يصلح لولدك؟ قال: فأقبلت النساء إلى آمنة لإرضاع رسول الله ﷺ، وكانت آمنة نائمة إذ انقلبت إلى جانب ولدها، إذ هتف بها هاتف وقال لها: أيتها المرأة الكريمة فإن أردت أن ترضعي ولدك، فعليك من نساء بني سعد بحليمة السعدية، وكانت كلما تأتي إليها امرأة، تسألها عن اسمها وقومها، فلم تسمع بذكر حليمة. وكان سبب تحريكها لرضاع رسول الله ﷺ، أن أطراف مكة أصابها قحط وجدب وغلاء، إلا مكة، فإنها أخصبت وأزهرت ببركة رسول الله وقال الشاعر في هذا المعنى:

خيرُ الأنام الهاشميُّ محمدُ ... من نورِه نارُ الجحيمة تخمُدُ
والعينُ أيضاً من عماها أنفذَتْ ... فهو المسمّى أحمدٌ ومحمدُ

وقال الشاعر أيضاً:

يا سيدي يا أشرفَ العبادِ ... يا خيرَ داعٍ للوَرى وهادي
وشافعاً يدعو إلى الرَّشاد ... ما قطُّ خلاَ من حبِّه فؤادي
مبجَّلاً مفضَّلاً معظَّماً ... صلى عليه ذو العلا وسادي

مشـــرَّفـــاً مـــؤيَّـــداً مـــن السمـــا ومَـــنْ لـــه حســـنُ الثَّنـــا يـــزداد

قال: وكانت العرب ترحل إلى مكة، وتنزل بنواحيها من كل جانب ومكان، ثم خرجت حليمة مع نساء من بني سعد في جملة من خرج، يلتقطون من نبات الأرض ما يقتاتون به. قالت حليمة: كنا نقيم اليوم واليومين والثلاثة، ولم نفطر إلا على الماء، وكنا قد شاركنا المواشي في مرعاها. قالت حليمة: فبينما أنا ذات ليلة من الليالي بين النوم واليقظة، إذ أتاني آتٍ وقذفني في نهر ماء، أبيض من اللبن وأحلى من العسل، وقال لي: يا حليمة اشربي من هذا الماء. فشربت ثم ردني إلى مكاني وقال لي: يا حليمة عليك ببطحاء مكة، فإن لك فيها رزقاً كثيراً واسعاً، وتسعدين ببركة مولود ولد فيها! وبعد ذلك ضرب بيده على صدري وقال: اذهبي در الله لك اللبن، وجنبك المحق والمحن! قالت حليمة: قد عجبنا من حالتك التي أصبحت فيها! فلو كنت أكلت خير البر واللحم والسمن، ما وقعت على هذه الحالة، وما صار إليك من الحسن والجمال في ليلتك هذه! قالت: فكتمت أمري عنهن فمضين وتركنني وهنّ أحسن الناس إلي. ثم بعد ذلك هتف بي هاتف يسمعه بنو سعد كلهم وهو يقول: يا بني سعد نزلت عليكم البركات لرضاع مولود ولد بمكة، فضله الواحد الأحد، فهنيئاً لمن إليه قصد! قال: فلما سمعوا من الهاتف ذلك قالوا إن هذا المولود له شأن عظيم! قال: فرحل بنو سعد عن آخرهم إلى مكة، طالبين الفضل والرزق لما سمعوا من الهاتف. فمن كانت له قوة حمل زوجته على جمل أو فرس. قالت حليمة: ولم يبق أحد إلا وأسرع مبادراً إلى مكة، قالت: وكنا أهل بيت فقر.

وكانت حليمة أطهر نساء بني سعد، فلذلك ارتضاها الله تعالى أن ترضع نبيّه محمداً. قال: وكانت النساء إذا دخلن على آمنة تسألهن عن أسمائهن، فلم تسمع بذكر حليمة بنت ذؤيب. فتقول: ولدي يتيم ما له أب، فيذهبن. فأقبلت حليمة مع بعلها، ودخلت مكة وخلّفت بعلها خارج البلد وقالت له: قف مكانك حتى أدخل البلاد، وأسأل عن هذا المولود الذي بشرنا به. قال: فلما دخلت حليمة إلى مكة، أرشدها الله تعالى إلى بيت عبد المطلب، فدخلت وكان جالساً

في الصفا، وكان له سرير منصوب عند الكعبة، يجلس عليه للحكم بين الناس. فلما أقبلت إليه حليمة قالت: نعمت صباحاً. فرحب بها وقال: من أين أقبلت؟ قالت: من البادية قال: من أيّ العرب؟ قالت: من بني سعد. إعلم أنه قد أخنى علينا الزمان[1] بكلاكل الحدثان[2]، وهلكت مواشينا ولم يبق لنا فرج، سوى أن قصدنا إلى بلدكم نطلب رضاعة مولود نستعيش به. وقد أُرشدت إليك. فقال لها: إن الصدق أوفى ولا سبيل أنّى إن عندي مولوداً لم تلد النساء مثله، ولا من كله، غير أنه يتيم من أبيه وأنا جده أقوم مقام أبيه وأكثر، فإن أردت أن ترضعيه، دفعته إليك وأعطيتك ما يكفيك. فلما سمعت حليمة مقال عبد المطلب، أمسكت عن الكلام وقالت : يا سيد بني عبد مناف اعلم أن لي بعلاً وهو مالك أمري، فإني راجعة إليه وأشاوره في ذلك، فإن أمرني بأخذه رجعت إليه وأخذته، فقال لها: افعلي ما بدا لك. قال: فانصرفت حليمة من عنده وأقبلت إلى زوجها، وسألها عن أمرها قالت: إني أتيت عبد المطلب فوجدت عنده غلاماً يتيماً من أبيه، وقد ضمن أنه يقوم مقام أبيه وأزيد، فقال لها زوجها: ترجع نساء بني سعد بالإكرام والإنعام، وترجعين أنت بصبي يتيم.

وكانت نساء بني سعد قد أتت إلى مكة معها، فمنهن من حصّل رضاعة، ومنهن من لم يحصل لها شيء، وكأنهن قد سمعن الهاتف. وكان ذلك لرسول الله ﷺ، ولم يعلم أحد فاجتمع بنو سعد، وهموا بالرجوع، فقالت حليمة لبعلها: ترجع نساء بني سعد بالمراضع، وأنا أرجع خائبة؟ ثم بكت وأسبلت دمعها، فقال لها بعلها: لا تبكي يا حليمة، ارجعي إلى هذا الصبي اليتيم وخذيه، فعسى أن يجعل الله فيه خيراً كثيراً، فإن جده مشكور وبالإحسان مذكور. قال: فرجعت حليمة إلى عبد المطلب، فوجدته في المكان الذي كان فيه، فذكرت له قول زوجها، فقام عبد المطلب وسار معها إلى بيت آمنة، وأخبرها بذلك واسمها واسم قومها، فقالت آمنة: هذه التي أُمرت أن أدفع إليها ولدي! فقام عبد المطلب وأدخلها على آمنة، وقال لها: أبشري يا حليمة فإنك

---

(١) أخنى علينا الزمان: أهلكنا وجار علينا وغدر بنا.

(٢) حدثان الدهر: نوائبه ومصائبه.

ستسعدين بهذا المولود! قال الشاعر تهنئة لحليمة:

لـكِ البُشـرى فطِيبـي يـا حليمـه ... بـأحمـدٍ صـاحـبِ القـدرِ العظيمـه
لقـدِ فـزتـي بـأنعـامٍ عميمَـه ... وقـد أضحـتْ أُمـورُك مستقيمـه
لقـدْ نلْـتِ التـوفيـقَ بـالـرضـاعـه ... لخيـرِ الخلـقِ قـد أُعطـي الشفـاعـه
وفـي الأخـلاقِ أحسـنُ بـراعـة ... تهنَّـيْ بـالنعيـمِ أنـت مقيمـه
حبـوتـي بـالعـزِّ والتهـانـي ... وقـدْ نلتـي بـه كـلَّ الأمـانـي
هـو المبعـوثُ فـي قـاصٍ ودانـي ... تمتَّعـي بـالطلعـة العظيمـه
كفلتـي المصطفـى الهـادي المفـدَّى ... نبيّـاً بـالمكـارِمِ قـد تـردّى
يُضـاهـي البـدر وجْهـاً إذ تبـدّى ... تهنَّـيْ بـالنعيـمِ أنـتِ مقيمـه
عـروسٌ جمـالـهُ بـالكـونِ تجلّـى ... وآيـاتُ الكـرامـةِ فيـه تُتْلَـى
حبيبـي للمفـاخِـرِ أنـتَ أصـلا ... معـاجـزُه لقـدْ ظهـرَتْ عظيمـه
نبيّـاً نـورُه الحسـنُ لائـح ... وطيـبُ نشـرِه فـي الكـون فـائـح
وفـي أوصـافِـه تُتْلَـى المـدائـح ... ومـن بـركـاتِـه زادَ النعيمـه
بـدارِ الخلـدِ مَـنْ صلّـى عليـه ... وآثـارُ المكـارِم جـا إليـه
نعيـمُ زبـدٍ وافـى إليـه ... وحـورٌ فـي الجنـان لـه خـديمـه

وقال الشاعر أيضاً:

بُشـراكِ يـا حليمـه ... بـالـدرَّةِ القـديمـه
نلـتِ بـه منـاكِ ... بيـنَ الـورى وقيمـه
يـا مـرضعـةَ محمـدْ ... المصطفـى المـؤيَّـدْ
نلْـتِ الثنـاءَ مـؤبَّـد ... والعـزَّ يـا كـريمـه
يـا أيّهـا السعـديـه ... نلْـتِ العلـى العلِيّـه
بسيِّـدِ البـريّـه ... وصـاحـبِ العـزيمـه
سبحـانَ مـن أعطـاكِ ... سبحـانَ مـنْ أرضـاكِ
سبحـانَ مـن حبـاك ... بـالطلعـةِ الـوسيمـه
يـا سعـدُ قِـفْ لـي سـاعـه ... أُعلِـلِ الجمـاعـه

فصاحبُ الشفاعَه ... قد هبَّ لي نسيمه
وإن أتيتَ الوادي ... وجزْتَ ذاك الوادي
فاقرىء النبيَّ الهادي ... تحيةً عظيمه
فيهِ مددْتُ بصري ... وزالَ فيه عُسْري
ونلْتُ منه يُسْري ... خصصْتُ من حليمه
على البراقِ راقي ... في السبعةِ الطباقِ
في ساعةِ التلاقي ... جبريلُ من خديمه
خاطبه الجليلُ ... يا أيها الرسولُ
اسمعْ لما أقولُ ... واحضروا العزيمه
أنا الإلَه الأحد ... وأنت عبدي أحمد
وأُمّتك يا ممجَّد ... من الرَّدى سليمه
إرجعْ بلا تواني ... لِبيْتِ أُمِّ هاني
وخصَّ بالتهاني ... فرحمتي عميمه
هذا الغزال مكي ... ما زال عنه يحكي
حتى رأيت منك ... من أعظم الغنيمه
قد فاح لي شذاه ... ولالى عن رضاه
فصحت يا هو يا هو ... ذنوبنا عظيمه
فمثله لم يولد ... وشبهه لم يوجد
راعي العلا والسؤدد ... والخدمة القديمه
القلب فيه عاني ... وحبه كفاني
يا صاحب المعاني ... أشواقنا قديمه
محمد المكرم ... والسيد المعظم
ابن المصطفى وزمزم ... والخيف مع حطيمه
صلوا على محمد ... الطاهر الممجد
هذا النبي المؤيد ... بحبه قديمه

قال عبد المطلب: فوالله ما اخضرت بلادنا ولا أزهر حرمنا، إلا من حيث ولد هذا المولود المبارك. ثم قالت لها آمنة: يا حليمة إنني أولى بولدي وقرة

عيني. ثم إنها أخذت بيدها وأدخلتها البيت. قال الشاعر:

قومي خُذي يا دايه ... ذا صاحبُ العنايه
هذا النبي من حقّه ... مَنْ حبَّه لا يشقى
كلُ الخلائق تُسْقى ... من كفِّه يا دايه
هذا النبي التهامه ... تظلِّهُ الغمامَه
وبين كتفيْه شامَه ... كالكواكب المضيَّه
شَفيع يوْم المحشرِ ... عن جميعِ الحضَر
من حبّه تنظري ... يوم المعاد يا دايه
ما مثلهُ مليح ... ولسانُه فصيح
بين العِدى رجيح ... هذا النبي يا دايه
هذا النبي المختار ... وصاحبُ الأنوار
ومَنْ فضَّله الجبّار ... على الورى يا دايه
بشَّرَ بهِ الخليل ... نبّأه الجليل
فداهُ إسماعيل ... لأجلِه يا دايه
مختوم خاتمَ ربّه ... قد زال عنهُ كربُه
شفيعٌ لمن يحبُّه ... يومَ الحشرِ يا دايه
هذا أبو الفتوَّه ... مخصوصٌ بالمروَّه
وخاتمُ النبوَّه ... بظهرِه يا داية
سبحانَ من أعطاه ... وخصَّه مولاه
بنوره كساه ... فاعلَمي يا دايه
وهو شفيعُ الأُمَّة ... وكاشفٌ للغمه
سراجُهُم في الظلمه ... فافْهَمي يا دايه
صلّى عليه الباري ... ما لاحَ نجمٌ ساري
وغنَّتِ الأطيار ... على الشجرِ يا دايه

ثم قالت حليمة: يا آمنة توقدين عند ولدك مصباحاً بالليل. فقالت آمنة: والله من يوم ولد ما وقدت عنده مصباحاً، ولقد استغنيت عن المصباح من يوم

ولد. قال: فنظرته حليمة وهو ملفوف في ثوب صوف أبيض، تفوح منه رائحة المسك الأذفر والند والعنبر، فوقع في قلبها محبة عظيمة وشفقة عليه أن توقظه، فمكثت ساعة فخشيت على زوجها، فمدت يدها إليه لتوقظه، فخرج منه نور شعشعاني، فتعجبت حليمة من ذلك، ثم ناولته ثديها الأيمن، فرضع، فناولته الأيسر فلم يرضع، وكان ذلك إلهاماً من الله تعالى، ألهمه العدل والإنصاف من صغره. وكان لا يرضع من ثدي حليمة حتى يرضع أخوه ضمرة. قال: فخرجت حليمة بمحمد ﷺ، فقال لها عبد المطلب: مهلاً يا حليمة حتى نزودك ونرفدك[1]! فقالت: حسبي من الزاد هذا المولود المبارك، هو أحب إلي من المال والأولاد! فأعطاها من المال والكسوة فوق النهاية، وكذلك آمنة. قالت حليمة: فما مررت بحجر ولا مدر إلا ويهنئني بما قد خصني الله به من الفضل والكرامة، فلما أقبلت حليمة إلى بعلها، ونظر إلى النور يشرق من غرته، تعجب من ذلك، وألقى الله تعالى في قلوبهما الرأفة والمحبة له، فقال لها بعلها: يا حليمة، قد فضلنا الله تعالى بهذا المولود ولا شك أنه من أولاد الملوك. قال: فلما ارتحلت القافلة ركبت حليمة على أتان[2] لها، وجعلت تقول لزوجها: لقد سعدنا بهذا المولود وجعلت محمداً قدّامها والأتان يمر بهم كالريح الهبوب. قال: فبينما هم سائرون إذ مروا بأربعين راهباً من نصارى نجران مع حبر لهم، وهو يصف لهم مولد النبي ويقول: ظهر بمكة مولود صفته كذا وكذا، فإذا ظهر يكون خراب ديارنا وقلع آثارنا فجاءهم! الشيطان في صورة آدمي وقال: إن هذا المولود الذي تتحدثون به، هو مع هذه المرأة الراكبة. قال: فنظروا إليه وإذا بالنور يخرج من وجهه! ثم زعق بهم الشيطان وقال: يا ويلكم بادروا واقتلوه! قال: فشهروا سيوفهم وعمدوا إلي، فرفع محمد ﷺ رأسه إلى السماء، وإذا هم بداهية عظيمة، كأنها الرعد العاصف، حتى نزلت إلى الأرض فانكشفت عن نار، وفتحت أبواب السماء ونزلت نار من عند الجبار، على من يبغض النبي ﷺ المختار. قالت حليمة: فرأينا النار نازلة عليهم، فخشيت منها رعباً

---

(١) نزوّدك: نعطيك الزاد. ونرفدك: نعطيك عطاءك.

(٢) الأتان: أنثى الحمار.

فوقعت على القوم، فأحرقتهم عن آخرهم، فخفت وكدت أن أقع من على الأتان، وكان ذلك أول ما ظهر من دلائله ﷺ، وقيل في هذا المعنى:

صلّى الإلهُ على الغلامِ الأصغرِ ... مباركِ الوجْهِ كريمِ المفخَرِ
ذا الهاشميِّ القرشيِّ الأزهرِ ... صلّى عليه الله مُنْشي الصوَرِ

قال: فما مرت به حليمة على حجر ولا مدر، إلا ويهنئها بما خصها الله به من الفضل والكرامة. ففرحت حليمة بذلك فرحاً شديداً. وفي هذا المعنى قال الشاعر **(أفلح من يصلي على النبي وآله)**:

فازَتْ حليمةُ بالسعادةِ يا لها ... سعدَتْ وقد بلغتْ آمالَها
يا سعدَها يا سعدَها بمحمّدٍ ... بُشرى لها بُشرى لها بشْرى لها
من شاءَ يعْطيه ومن شاءَ يمنعُهُ ... ما كلُ من طلَبَ السعادةَ نالَها

قالت حليمة: فوصلت به إلى الحي وأنا مرعوبة من الخوف. فلما وصلت به إلى قومها، ووصلت إلى الحي قالت لقومها: إن هذا المولود له شأن عظيم! وكان أول ليلة نزلت على بني سعد، اخضرت أراضيهم وأمطرت وأعشبت بعد القحط والجدب، ببركة النبي، وكانوا يحبونه لأجل ذلك، ووجدوا الراحة في جميع أُمورهم. وإذا مرض منهم أحد يأتون به إليه، ويضعون يده على المريض، فيبرأ من ساعته! قال: وكثرت دلائله وبراهينه؛ قالت حليمة: وكان بنو سعد يقولون: يا حليمة لقد فضلنا الله بك! قالت: وما زلت في بركاته، ولقد كنت معه في كل وقت وحين ما غسلت له ثوباً قط، ولا رأيت له غائطاً، وكانت الأرض تبلعه، وكان له وقت يتوضأ فيه ويعود إلى عادته. وكنت أسمع منه الحكمة. فلما كبر وترعرع قال: الحمد لله الذي أخرجني من أفضل نبات من شجرة النبوة! وكنت أتعجب من كلامه. وشب شباباً مسرعاً، وكان يمسي صغيراً ويصبح كبيراً، وكان يزيد في اليوم مثل ما يزيد غيره في الشهر، ويشب في الشهر مثلما يزيد غيره في السنة. قال: فلما كبر ونشأ لم يكن في زمانه أكثر منه حسناً وجمالاً، ولقد كنا نجعل القليل من الطعام بين يديه، ونجتمع عليه فيكفينا ببركة محمد ﷺ. قال: فلما تم له سبع سنين قال لأُمه: يا أُماه أين إخوتي؟

قالت: يا بنيّ إنهم يرعون الأغنام التي رزقنا الله إياها ببركاتك. فقال: يا أُماه لم لا تنصفين إخوتي؟ قالت: وما هو؟ قال: أنا أكون في الظل أشرب اللبن والماء، وإخوتي يقاسون الشمس والحر! فقالت: يا بني إني أخشى عليك من الحسّاد والرصّاد وأخاف أن يطرقك طارق[1] فيطالبني فيك جدك. فقال: لا تخافي علي من شيء، فإذا كان في غداة غد، اتركيني أمضي معهم. قال: فلما رأته أنه لا ينتهي عن ذلك وقد عزم على الخروج، وهي خائفة عليه ولم تقدر أن تعصيه ولا تكسر خاطره، قامت إليه وشدت وسطه وألبسته نعلين، وسلمت إليه عصاً وقبّلته، وخرج معهم. وجعل الشاعر في هذا المعنى يقول (**أفلح من يصلي على الرسول وآله**):

بأغنامِه سار الحبيبُ إلى المرْعى ... فيا حسنَه راعي فؤادي لهُ يرعى
فلم أر أحلى من شمائِله وقدْ ... تملَّكَ قلبي والفؤادَ معَ السمْعا
لقدْ آنسَ الصحراءَ وأوحشَ الوَرى ... مليحٌ منيرُ الوجْهِ عشّاقُه صَرْعى
جميلٌ على معنى محاسنِ وجهِه ... كأنَّ بدرَ التَّمِّ قدْ طبَعَه طبْعا
أقولُ له مذْ سارَ بالسَرْحِ ماشياً ... وأغنامُه من حولِه تطلبُ المرعى[2]
عيونُكَ يا راعي الحِمى فتَكَتْ بنا ... فقومٌ بها أسرى وقومٌ بها صرْعى
ولولاكَ يا راعي الحِمى ما تشوَّقَتْ ... نفوسٌ إلى وادي العقيقِ ولا الجزعا
وما أنتَ راعي للمواشي وإنّما ... لترعى الورَى تبدا له العقل والشرعا
أما والذي أبْكى وأضحَكَ والذي ... أماتَ وأحْيا والذي أخرجَ المرعا
لقدْ خابَ من يسعى إلى غيرِ بابِكُم ... وضلَّ الذي يوماً إلى غيرِكم يسْعى
حبيبي طبيبي أنتَ راعي قلوبِنا ... ولولاكَ يا مختارُ ما نعرِفُ المرْعى

قال: فلما رآها أهل الحي، أتوا مسرعين إلى حليمة وقالوا: كيف يطيب قلبك أن يخرج وإن الرعي لا يصلح له؟ فقالت: يا قوم وما الذي تأمرونني به؟ وما أصنع ولقد نهيته فلم ينته، فما حيلتي به؟ فاسأل الله تعالى أن يصرف عنه كل محذور، ولقد رأيت براهين ومعجزات! ثم إن حليمة جعلت تنشد وتقول:

---

(١) يطرقك طارق: تأتيك داهية مفاجئة.

(٢) السرح: الماشية.

يـا ربّ بـاركْ فـي الغـلام الفـاضـلِ محمّـــدٍ سليـــلِ ذي الأفـــاضـــلِ
وانصـرْه يـا ربّ وبـارِكْ لـي بـه حتـى يكـونَ قـاضـيَ المحـافِـلِ

ثم إنه مضى مع اخوته، فلما كان وقت المساء، أقبل مع اخوته كأنه البدر الطالع وقالت: يا ولدي كيف انقضى يومي هذا لفراقك، ولقد كان قلبي مشغولاً بك، وأنا أرجو من الله تعالى أن يقيك كل محذور! قال: وكان في الغنم شاة قد ضربها ولدها ضمرة، فكسر يدها فأقبلت تلوذ بمحمد ﷺ، كأنها تشكو إليه، فمسح يده عليها، وجعل يتكلم فنهضت كأنها ظبية لم يصبها شيء. وكان كل يوم تظهر له آيات ودلالات ومعجزات، كانت الغنم مطيعة له إن أمرها بالمسير سارت، وإن أمرها بالرجوع رجعت، وإن أمرها بالوقوف وقفت. ثم إنه سرح بالغنم مع إخوته ذات يوم من الأيام يرعون أغنامهم، فدخلوا إلى وادٍ كان فيه عشب، وكانت الرعاة تخافه لكثرة سباعه. ثم إن محمداً ﷺ أمر إخوته أن يدخلوا ذلك الوادي بغنمهم، فدخلوا فيه فخرج عليها أسد عظيم الخلقة، هائل المنظر، فلما قرب من أغنامهم فتح فاه وأراد أن يهجم عليها، قال: فتقدم إليه محمد ﷺ، فلما رآه الأسد نكس رأسه، وبصبص بذنبه وولى هارباً خوفاً منه، فعند ذلك تقدم إليه إخوته، فقال لهم: ما شأنكم؟ قالوا: خفنا عليك من هذا الأسد، ولقد سمعناك تكلمه فما قلت له؟ قال: قلت له: لا تعد تقرب هذا الوادي بعد هذا اليوم! فقال: سمعاً وطاعة.

قال: ثم إن حليمة رأت رؤيا في منامها، فانتبهت فزعة مرعوبة وأخبرت بعلها وقالت: إن سمعت مني إحمل محمداً إلى جده فإني أخشى عليه أن يطرقه طارق، فتعظم مصيبتنا عند جده. قال: فما رأيت؟ قالت: رأيت ولدي محمداً ﷺ قد خرج مع إخوته كما يخرج كل يوم، إذ قد أتاه رجلان عظيمان، لم أر أعظم منهما خلقة، عليهما ثياب بيض من السندس والإستبرق، تخطف الأبصار، وقد قصدا ولدي محمداً فجاء واحد منهما وبيده خنجر يلمع، فشق جوف ولدي محمد، فانتبهت فزعة مرعوبة من ذلك. والرأي عندي أن نسير به إلى جده، فإذا بقي هنا وعرض له عارض سيطالبنا به جده. فقال لها بعلها: إن الذي رأيته عن محمد غير شيء لأنه ممنوع معصوم، لا يقدر عليه أحد بسوء ولا

مكروه، فإن له رب يحميه ويقيه، وقد رأيت ما فعل ربه بأعدائه نصارى نجران لما همّوا بنا وبأذيته، أرسل الله عليهم ناراً أحرقتهم عن آخرهم. ولقد رأيت غزاة قرارة. وكانت قرارة قد كبسوا بني سعد ليلاً، ولما قربوا من البيوت التي فيها محمد ﷺ، ردت الخيل على أعقابها وانكسروا، واغتنم بنو سعد بهم، وقتلوهم عن آخرهم ورد الله كيدهم في نحورهم. قالت حليمة: قد رأيت ذلك كله، ولكن لكل شيء غاية ونهاية، فكم من صغير مات وكبير عاش! فقال لها بعلها: إن منامك الذي رأيته أضغاث أحلام. قال: فلما أصبح الصباح وأراد محمد ﷺ الخروج كعادته مع إخوته، قالت له حليمة: يا ولدي لا تخرج اليوم واجلس عندي، فإني أريد أن تكون معي نهاري هذا كله حتى أشبع من النظر إليك، فإنك كل يوم تخرج من الصباح ولا أراك إلا العشاء. فقال: اتركيني يا أماه وأي شيء خفت علي منه! ثم إنه خرج وقال لا تخافي علي فلا أحد يقدر أن يتعرض لي بسوء ولا ضرر إلا وربي ينجيني منه!.

قال: فتركته ومضى، فلما كان عند نصف النهار، إذ أقبل أولاد حليمة يبكون، فخرجت حليمة وهي ناشرة شعرها، مازقة الجيب خامشة الوجه ضاربة الصدر، تعثر في أذيالها فقالت: ما الذي دهاكم ومن بشرّه رماكم؟ قالوا: كنا مع أخينا محمد الحجازي تحت الشجرة، إذ أقبلت علينا الأغنام واشتد علينا الحر، وإذ قد أقبل علينا رجلان عظيمان، لم نر مثلهما، فلما وصلا إلينا أخذا أخانا من بيننا، ومضيا به إلى رأس الجبل، وأضجعه واحد منهما، وآخر بيده سكين وشق بطنه وأخرج قلبه وتركه. قال: فعندها بكت حليمة وقالت: هذا تأويل رؤياي! ما أعظم مصيبتي فيك يا ولدي! قال: فارتفع ضجيج الناس والصياح في الحي، وخرج القوم بأجمعهم، وحليمة خلفهم، وخرج زوجها الحارث وهو يجر قناته، حتى أشرفوا على محمد، فوجدوه جالساً والأغنام خلفه محيطة به، ونزل القوم إليه، ورفعوه وأتوا به إلى أُمه، وهم يقولون: كلنا لك الفدا يا محمد قالت حليمة: فكشفت عن بطنه فلم أر فيه أثراً، ولم أر في ثوبه دماً ولا غيره! قال: فرجعت إلى أولادها تضربهم وتقول لهم: كيف كذبتم على أخيكم؟.

فقال محمد ﷺ: لا تضربيهم ولا تكذبيهم لأني كنت مع إخوتي، إذ أتاني رجلان صفتهما كذا وكذا، فأخذاني وأضجعاني، وأخرج واحد منهما سكيناً وشق بها جوفي، وأخرج منه نكتة[1] سوداء ورمى بها، وقال لي: هذا حظ الشيطان منك يا محمد. ثم غسل فؤادي بالماء وأعاده إلى جوفي كما كان. ثم أخذ أحدهم خاتماً يشرق نوراً، فختم به فؤادي، ثم مسح على ما شقّه، فعاد كما كان بقدرة الله تعالى. ثم قال: يا محمد لو علمت ما لك من السابقة، لقرّت عيناك! ثم قال أحدهما للآخر: زنه. فوزنني بعشرة من أُمتي فرجحت بهم، فوزنني بعشرين فرجحت بهم، فقال له صاحبه: دعه فلو وزنته بالأُمة كلها لرجح بهم. ثم عرجا إلى السماء وأنا أنظر إليهما. ثم أقبلت حليمة على بعلها وقالت له: الرأي عندي أن توصل هذا الغلام إلى جده. قال لها: فما تطيب نفسي بمفارقته وإنه عندي أعز من أولادي! فلما سمعت كلام بعلها قالت: ما يوصل هذا الغلام إلى جده إلا أنا. ثم إنها أقبلت عليه وقالت له: يا ولدي إن جدك وعمومتك مشتاقون إليك، فهل لك أن تسير معي إليهم؟ قال: نعم. ثم قامت وشدت على راحلتها وركبت، وأخذت محمداً ﷺ قدامها، وقصدت به إلى مكة، وكان عبد المطلب قد أنفذ إليها أن تحمله إليه.

وكانت كلما رأت راهباً ضمته إلى صدرها، وإذا نظرت حية أو ثعباناً غيَّبته خوفاً عليه، إلى أن وصلت به إلى حي من أحياء العرب، وكان فيه كاهن من كهّانهم، قد رفع حاجبيه بعصابة من كثرة السنين، والناس عاكفون عليه يسألونه عن أحوالهم، وما يجري عليهم في أُمورهم. قال: فلما جاءت حليمة بمحمد ﷺ، غشي على ذلك الراهب ساعة، فلما أفاق سألوه عن أحواله فقال: يا ويلكم بادروا إلى هذه المرأة الراكبة على الناقة، وائتوني بالصبي الذي قدامها، واقتلوه قبل أن يحل بكم البوار ويخرب منكم الديار، ويظهر لكم منه ما تكرهون! قالت حليمة: فلما سمعوا كلام الراهب بادروا إليّ مسرعين، فلما أحست بهم الناقة طارت بنا على وجه الأرض، كأنها الريح العاصف، فما لحقوا إلا الغبار. قالت حليمة: ومررت به حتى وصلت به قريباً من مكة، وإذا على

(١) النكتة: النقطة السوداء في الأبيض، أو البيضاء في الأسود.

بابها رجل وعنده جماعة مجتمعون، فوضعت ولدي محمداً ومضيت عنهم ناحية. قالت حليمة: فسمعت رجة وأصواتاً، فالتفتّ إلى ولدي فلم أجده، فسألت عنه القوم الذين كانوا مجتمعين. فقالوا: ما رأيناه! فسألوني عن اسمه فقلت لهم: اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الذي فرج الله به همي وغمي، وأغناني بعد الفقر! وقد أتيت به إلى أهله، واختطف من بين يديّ قبل أن أصل به إلى جده، فورب الكعبة إن لم أجده لأرمينّ نفسي من أعلى هذا الحائط، فهذه الساعة كان بين يديّ وهو معكم! فقالوا: والله ما رأيناه.

فلما سمعت كلامهم وضعت يدها في أطواقها، ومزقت جيبها، ولطمت خدها، وجعلت تندب وتقول: وا ولداه وا محمداه! قال: فخرج عليها شيخ كبير من أهل مكة يتوكأ على عصاه، وقد انحنى ظهره من الكبر فقال لها: ما قصتك يا بنت ذؤيب؟ قالت: أقعدت ولدي ههنا ومضيت إلى حاجة لي، وما أدري كيف ذهب؟ فقال لها: لا تبكي أنا أدلّك على ولدك! قالت: إفعل أيها الشيخ! قال: فمضى قدّامها إلى أن أتى الكعبة، وطاف بصنم كبير يقال له هبل، وقال: يا سيدي إن السعدية قد ضاع ولدها محمد، فلما سمع بذكر محمد ﷺ، خر الصنم على وجهه. وخرج الشيخ هارباً على وجهه خوفاً وجزعاً لما رأى من الصنم ووقوعه. وقال: يا سعدية لا تخافي على ولدك، فإن له رباً يكفيه ولا يضيعه، فاطلبيه على مهل! قالت: فخشيت أن يكون أحد أخذه، وسبق به إلى جده، فقصدته مسرعة فلما رآني قال: ما قصتك يا حليمة؟ قلت: إن ولدكم محمد قد أتيت به فوضعته على باب مكة، ومضيت لقضاء حاجة لي، وجئت إليه فلم أجده، وما وقفت له على خبر! فقال عبد المطلب: أخشى أن يكون أخذه بعض الكهان أو السحرة قد اغتالوه! فنادى عبد المطلب: يا آل غالب! يا آل غالب! وكانوا يتباركون بهذه الكلمة، فلما سمعوا نداء عبد المطلب، أجابوه من كل جانب ومكان بالسلاح الشاكي[1]، وقالوا: ما الذي دهاك ومن بشرّ رماك وما الذي نزل بك؟ قال: إن حليمة السعدية أتت بولدي محمد، ونزلت على باب مكة، ومضت لقضاء حاجة لها، ورجعت تطلبه

(١) السلاح الشاكي: ذو الحِدّة والشوكة. وهو مقلوب شائك.

فلم تجده! ولعل بعض الكهان قد اغتاله! فقالوا: نحن معك إن خضت بحراً خضناه، وإن صعدت جبلاً صعدناه! قال: ثم إنهم ركبوا وداروا في مكة ونواحيها، فلم يقفوا له على خبر، فأتى عبد المطلب إلى الكعبة وطاف بها سبعاً، وتعلق بأستارها ودعا الله سبحانه وتعالى، ولج في الدعاء فسمع هاتفاً يقول: يا عبد المطلب لا تخف على ولدك ولا تحزن، فإن له رباً لا يضيعه! فقال عبد المطلب: وأين أطلبه أيها الهاتف؟ فقال: اطلبه بوادي دعامة عند شجرة الموز!.

قال: فمضى عبد المطلب إلى المكان الذي أخبره به الهاتف، فوجده هناك جالساً على غدير عند شجرة، وقد تدلت عليه أثمارها، ونزلت عليه أغصانها، فبادر إليه عبد المطلب وقبّله وقال له: يا ولدي من أتى بك إلى هذا المكان؟ قال: اختطفني طير أبيض وحطّني على جناحه، وأتى بي إلى هذا المكان، وأجلسني تحت هذه الشجرة، وقد أضر بي الجوع والعطش، فأكلت من ثمارها وشربت من هذا الماء. وكان الطير جبرئيل. ثم إن حليمة دخلت بمحمد على جده عبد المطلب وقالت: يا سيد الحرم إنه حصل لولدك عارض بكذا وكذا. فقال عبد المطلب: لا بأس عليك يا حليمة! إمضي إلى أمه وأخبريها بذلك، فإنها أخبرتني أنه يوم ولدته، سطع له نور إلى السماء. وذلك قوله تعالى: **﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾** بعليّ صهرك.

ثم إن عبد المطلب كفل النبي ﷺ حتى كبر، فلما كان في بعض الأيام، رمدت عين النبي ﷺ رمداً شديداً، وكان بالجحفة طبيب، فوطأ له جده على بعير، وأركبه وسار به إلى الجحفة، فلما دخل عبد المطلب صاح بالراهب، فأشرف الراهب عليه من رأس الصومعة وقال: ما تريد أيها الشيخ؟ قال: أُريد أن تنظر إلى هذا الغلام وما نزل به. فقال الراهب: اكشف لي وجهه. فلما كشف عن وجهه نزلت الصومعة، فرد الراهب رأسه وهو يعلن بالشهادة والإقرار. ثم قال الراهب: وما عسى أن أقول فيه، فإنه لا بأس عليه مما نزل به من الأذى، وإنه يستريح من أذاه قريباً. وأنت أيها الشيخ إسمع ما أقول لك،

فإنه سيد الأولين والآخرين، والشفيع فيهم يوم الدين، تنصره الملائكة أجمعين، وأشد الناس عليه عداوة اليهود. ثم قال الراهب: والله الذي لا إله إلا هو لئن أدركت زماناً يبعث فيه لأنصرنه! فاحتفظ به يا عبد المطلب على الوصية. ثم رجع به إلى مكة وكفله، وأقبل به إلى منزله، ودعا بزوجته فاطمة بنت عمر وأوصاها به. قال: وأقام عبد المطلب زماناً، فلما حضرته الوفاة أحضر أبا طالب، وأوصاه بالنبي ﷺ، فجاء وأومى إلى زوجته وقال: أُوصيك بمحمد فإنه ولدي وقرة عيني، وأمره في منزلي كأمري، ونهيه كنهيي! فقالت: توصيني بولدي وقرة عيني، وإنه والله لأحب الخلق إليّ؟ وكانت تحبه حباً شديداً، وتؤثره على ولديها، وكان لها عقيل وجعفر. ففرح أبو طالب بمقالها. ثم قالت: والله لأقدمنّه على سائر أولادي!.

وجعلت تكرمه ولا تدعه يغيب عنها طرفة عين أبداً. وكان يطعم من يريد، ولم تعارضه بشيء أبداً، وكان يشب وينمو وقد تعجب أهل مكة من حسنه وجماله، وقده واعتداله، قال: وكان لعمه أبي طالب عنيزة ضعيفة، فأخذها ورعاها فعادت إلى شبابها. ثم إنه مسح على ضرعها فلما كان وقت العصر، ساقها إلى بيت عمه فقالت زوجة عمه: لأي شيء سقت هذه الشاة الضعيفة؟ فقال لها: ائتيني بآنية لأحلب فيها لبناً. فقالت: وأين اللبن وهي ضعيفة كبيرة! فقال لها: ناوليني. فسلمت إليه قصعة كبيرة، فتقدم إليها ومد يده المباركة عليها، فجرى اللبن كأنه الماء السائل، فامتلأت الآنية، ولم يبق في الدار آنية إلا وامتلأت، ببركة النبي محمد ﷺ. ثم جمع صبيان مكة وقال: أنا أميركم. وكان أبو جهل ـ لعنه الله ـ يجمع الزبيب الطائفي، ويفرقه على الصبيان من أصحابه، ولم يجتمعوا إليه. وقال: يا ويلكم! أنا لي أب وأُم، ومحمد يتيم لا أب ولا أُم ولا مال! وكان أهل مكة يسمونه الصادق الأمين، وكان بنو مخزوم يسمونه يتيم أبي طالب. وكان النبي قد أقام على الصبيان والنقّاب والحجّاب، والقوّاد وأعاظم البلاد، وكان أبو طالب يفرح بذلك. وكان في منزل أبي طالب نخلة ضعيفة يابسة، لها سنون وأعوام، فلما دخل محمد ﷺ الدار اخضرت النخلة، وأثمرت ببركة رسول الله ﷺ. وكان كلما سقط منها رطب، جمعه

أبو طالب إلى أن يأتي إليه محمد ﷺ، فيقول: يا عماه أريد لأصحابي رطباً، فيسلّم إليه الرطب، فيفرقه على أصحابه.

فلما كان في بعض الأيام لم يكن في النخلة ما يكفي أصحابه، فلما دخل محمد قال: يا عماه أُريد لعسكري رطباً. فقال: يا ولدي ما أعطتنا النخلة غير هذا! فخرج النبي ﷺ وتعلق بالنخلة وقال: من أنا؟ قالت: أنت محمد بن عبد الله. قال لها: أقسمت عليك برب الكعبة إلا ما دنوت مني لآخذ منك حاجتي! قالت فاطمة: فرأيت النخلة قد انحنت حتى بلغ رأسها إلى الأرض، فدنا منها وأخذ منها ما كفاه وكفى عسكره وفضل، ثم عادت النخلة إلى حالتها. قال: فتعجبت من ذلك عجباً شديداً! ثم إني نهضت من وقتي وساعتي، ولبست ثوباً جديداً وخرجت أطلب الكعبة، وطفت بها سبعاً، وأتيت إلى مقام إبراهيم وقلت: يا إله الكعبة ارزقني من أبي طالب ولداً يكون لمحمد أخاً ووصياً. فلما كان في بعض الأيام، وإذا بهاتف يقول: قد استجاب الله لك ما سألته! فحملت بعلي عليه السلام فأعلمت أبا طالب بذلك، فقال لها: اكتمي أمرك حتى ننظر حقيقة الحال. فلما وضعت علياً أشرقت أنواره، وإذا به مختون، وقائل يقول: سمّوه علياً. فخرج أبو طالب يقول:

نورُ وجهِكَ الذي فاقَ بالحسنِ ... على نورِ شمْسِنا والهلالِ
أنتَ نورُ الأنامِ من هاشمِ السفْرِ ... بحسنٍ يفوقُ على جمالي
أنتَ والله مُنائي وسؤالي ... الذي فاقَ نورُه المتعالي
وعلوْتَ الفخارَ والمجدَ أيضاً ... ولقدِ ارتقيتَ أعلا المعالي

ولقد أجاد الشاعر في مدح الإمام علي عليه السلام حيث يقول:

ونُبْدي بالصلاةِ على محمّدٍ ... ونُثْني بالسلامِ على عَلِيّا
يلوحُ البرقُ والنورُ المضيُّ ... بوجْهِ المرتضى المَوْلى عليا
إمامٌ فارسٌ بطلٌ كميٌّ ... ومسقي الغدْرِ كاساتِ المنيّا
بكلِّ مهنَّدٍ عضبٍ طليقٍ ... يفوقُ من الرشيقِ السمهرِيّا
على جردٍ جيادٍ مضمَراتٍ ... يقود عجاجَها ليلاً دجيا
ويظهرُ صالحٌ من بطنِ سجنٍ ... له وجهٌ كما بدرٌ مضِيّا

سلالةُ أحمد المختارِ حيْدر ... أبو الحسنينِ مولانا عليا
إذا ركبَتْ عساكِرُه وسارَتْ ... فتهتزُ الجبالُ الراسخِيا
ويحكُم بالمشارقِ والمغاربِ ... ويكسِرُ دولةَ أهلِ الجاهليا
ولا يبقي بها أحداً عنيداً ... ويتساوى الفقيرُ مع الغنيا
ويتلى الليث والحيوانُ يرْعى ... وتأتيهِ الوحوشُ مع الفلِيّا
ويخضرُّ القضيبُ براحتَيْه ... تظلِّلُه غماماتُ البنيا
فذاكَ هو الإمامُ بلا محالة ... أبوهُ العسكريُ الحسنُ الزكيا
هم أشرفُ من ركِبَ المطايا ... وأكرمُ منْ سحابِ الساكبيا
همُ المسكُ اليفوحُ من المنافِحِ ... على كيدِ المنافِقِ والدّعيا
زبادٌ قد عجنَ في ماءِ وردٍ ... وصندلٌ قد عجنَ في العنبريا
ومنْ يقدرْ يفاخرْ آلَ طَهَ ... وجدُّهُمُ النبيُّ خيرُ البريا
أبوهم حيدرُ النامي عليّا ... وزوجُ البضعةِ الزهراءِ التقيا
هُم الذهبُ المصَفَّى في لُجَيْنٍ ... وأزكى فضةٍ شاخَ النقيا[1]
وفي يوم الغديرِ ويومِ خمٍّ ... وصيّ ثَمَّ أنصبَه النبيا
وقالَ هو الخليفةُ بعدَ موتي ... شريكي في أُموري والوليا
فمنْ تابعَهُ في جنانِ عدْنٍ ... ومن خالفَه جباراً شقيا
وصلّى الله على خيرِ البرايا ... إمامِ الطهرِ مولانا عليا

قال: ثم علا قدره ﷺ حتى سمّوه الصادق الأمين، وشاع ذكره في المشرق والمغرب. ثم إنه توجه يوماً نحو الكعبة، وقد كانوا عمروا فيها عمارة، ورفعوا الحجر الأسود من مكانه، وكل منهم يقول: أنا أردّه يريد الفخر لنفسه! فقال ابن المغيرة: يا قوم حكِّموا[2] فى أمركم رجلاً يحكم بينكم فيما أنتم فيه مختلفون. فقالوا: الداخل علينا من هذا الباب نحكّمه في أمرنا، حراً كان أو عبداً، ذكراً أو أنثى. فإذا بالنبي محمد ﷺ قد دخل عليهم فقالوا: هذا محمد قد أقبل! نعم الرجل الصادق الأمين الشريف، الأصيل الفاضل العاقل، محمد بن عبد الله! ثم نادوه فأقبل عليهم فقالوا: قد حكّمناك فينا فمن يحمل

(١) اللجين: الفضة.
(٢) حكّموا فلاناً: جعلوه حكماً بينهم.

الحجر إلى مكانه؟ فلما دنا منهم، رأى كل واحد يريد الفخار لنفسه والشرف فقال: هذه فتنة حاضرة. فأراد أن يخمدها فقال: ائتوني بثوب، فأتوا به فقال لهم: ضعوا الحجر فوق الثوب وارفعوه جميعاً، فرفعوه إلى موضعه وانقطع الشر من بينهم. وكان أحدهم المغيرة والثاني ربيعة، والثالث حرب بن أُمية والرابع الأسود بن عبد العزى، فردوا الحجر إلى مكانه، والنبي ﷺ هو الذي وضعه في موضعه، فتعجب الناس منه ومن فعاله، وتحدث بحديثه الرجال والنساء.

قال الراوي: ومر يوماً بمنزل خديجة بنت خويلد، وهي في ملأ من النساء، وحولها جواريها وعبيدها، وكان عندها حبر من أحبار اليهود، فلما رأى النبي محمداً ﷺ، نظر إليه ذلك الحبر وقال: يا خديجة إعلمي أنه قد مر ببابك الساعة شاب حدث السن، فأُمري بعض جواريك أن يناديه إلينا. فأسرعت الجارية إلى أن لحقت بالنبي ﷺ وقالت له: إن سيدتي تدعوك. فأقبل حتى أتى منزل خديجة، فقالت خديجة: أيها الحبر إلى هذا قد أشرت؟ فقال: نعم. فقالت: هذا محمد بن عبد الله! فقال الحبر: نعم. ثم قال: يا فتى اكشف لي عن بطنك! فكشف عن بطنه، فلما رأى الحبر خاتم النبوة، دهش لذلك فقالت له خديجة: لو رآك عمه وأنت تفتشه لأنزل بك البلاء. فاحذر أن يراك فيقتلك، إنهم يحاذرون عليه من اليهود، لأنهم أعداؤه. فقال الحبر: وما منهم من أحد يقدر عليه بسوء أبداً! يا خديجة وحق الكليم على الجبل العظيم، إن هذا محمد صاحب البرهان، المبعوث في آخر الزمان، المعطل بدينه سائر الأديان! فطوبى لمن يكون لها بعلاً وتكون له زوجة، فلقد حاز شرف الدنيا ونعيم الآخرة! قال: فتعجبت خديجة من قول الحبر، وانصرف النبي، وقد اشتغل قلب خديجة بقول الحبر فقالت: أيها الحبر بما عرفت محمداً وما سمعت فيه من الأخبار؟ قال: وجدت صفاته في التوراة وأنه المبعوث في آخر الزمان، يكسر الأصنام ويحطم الأوثان، ويموت أبوه وأُمه، ويكفله جده وعمه، ويتصل بامرأة من قريش تكون سيدة قومها، وأميرة عشيرتها، وأشار بيده إلى خديجة وجعل يقول:

يا خديجةُ واسمعي قولي ... وخذي محمد آيةَ المحصولِ

يـا خـديجـةُ هـو النبـيُّ بـلا شـكٍ هكـــذا قـــرأتُ فـــي الإنجيـــلِ
سـوفَ يـأتـي مـن الإلـه بـوحـيٍ ثـــم يخصُّـــه اللهُ بـــالتنـــزيـــلِ
ويـــروحُ لـــكِ الفخـــارُ ويضحَـــى في الوَرى شامخاً على كلِّ جيلِ

قال صاحب الحديث: فلما سمعت خديجة ما قال لها الحبر وما نطق به، تعجبت منه وتعلق قلبها بالنبي ﷺ، وكتمت أمرها. فلما خرج الحبر من عندها قال: يا خديجة لا يفوتك محمد، فهو والله شرف الدنيا ونعيم الآخرة! قال: وكان لخديجة عم يقال له ورقة، وكان من كهان قريش، وكان قد قرأ في صحف شيث وصحف إبراهيم، والتوراة والإنجيل وزبور داود، وكان عارفاً بصفات النبي ﷺ، وكان ورقة عنده علم بأنه يتزوج بامرأة من قريش، تكون سيدة قومها، وأميرة عشيرتها، تساعده وتعاضده وتنفق عليه من مالها. فعلم ورقة بأن ليس بمكة أكثر مالاً من خديجة، فرجا ورقة أن تكون زوجة للنبي ﷺ، حتى تفوز به. وكان ورقة يقول لها: يا خديجة، سوف تتصلين برجل فيه شرف الدنيا ونعيم الآخرة! والحمد لله رب العالمين.

حديث صراع النبي (ص) مع أبي جهل لعنه الله

قال صاحب الحديث: وكان العرب في ذلك الزمان مولعين بالصراع، وكانوا يعلمون أولادهم ليشتدوا به ويقوى حيلهم. وكانت قريش أكثر العرب صراعاً، حتى إن بعضهم يطلب بعضاً به وصارت الآباء تندب الأولاد له، ويحضرونهم ويأمرونهم بذلك، ويجمع أهل مكة ويعملون لأجله الولائم، ويبذلون الجزيل من الأموال. إلا النبي محمد ﷺ فإنه لم يتعرض لأحد فيه، ولم يذكره ولم يحضر محاضرهم، ولم يجلس مجالسهم، ولم ينظر إلى صراعهم، ولم يكن أحد يجسر على صراعه، ولم يطق أحد أن يطالبه به، ولم يذكره له لعظم قدره وهيبته، وعلو رتبته ووقاره، وعلو شأنه. فلما كان ذات يوم وقريش مجتمعون في الأبطح، يتذاكرون شدة رجل بعد رجل، وحديث بعد حديث. وما كان في أهل مكة أعظم قوة من أبي جهل بن هشام، لأنه كان صرع[1] أولاد مكة كلهم، الصغير والكبير والرفيع والوضيع، والحر والعبد والغني والفقير، حتى صار الكل منهم يهابه، فاعتجب بنفسه وأعجب الناس. لأنه كان كل من يراه من أولادهم صرعه وصار أهل مكة إذا جلسوا يوماً في مجلس، يتذاكرون بأبي جهل، وصاروا يحذرون أولادهم منه، ويخوفونهم. فلذلك أخذه العجب في نفسه، وتاه وتمرد. وكان قد جلس أهل مكة يوماً وهم يتذاكرون أولادهم، حتى انتهوا إلى محمد ﷺ. فقال بعضهم لبعض: ما من أحد إلا وقد عرفنا نشاطه وصراعه وقوته، وقد عرفنا الغالب من المغلوب،

---

(١) صرعه: طرحه على الأرض.

والصارع من المصروع، غير محمد فإنه ليس يجلس معنا، ولم يحدث في أمر الصراع. وإنا نحب أن نبلوه ونختبره، ليكون كأحدنا إما غالباً مذكوراً أو مغلوباً مقهوراً. فمن منكم يشتد لصراعه؟ فإنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وإنه أعلى بني هاشم رتبة ومنزلة، وأعظمهم شأناً! فقال أبو جهل ـ وقد كان حاضراً ـ أنا أكون لمحمد ولصراعه قادرد وله فاضح ولقوته قاهر، وذلك بعون اللات والتلا والهبل الأعلى. فقال له أبوه وقومه: ومتى يكون ذلك؟ قال: في غداة غد.

وتواعدوا على البكور والاجتماع، حتى إذا كان الغداة، اجتمعت قريش في الأبطح، وأقبل النبي وهو لا يشعر بشيء مما عزم عليه القوم، حتى جلس وسط أعمامه إلى جنب أبي طالب عليه السلام، وكان مجلساً عظيماً ويوماً عميماً، وقد اجتمعت السادات من قريش، مثل ربيعة وعتبة وسهل بن عمر، وسفيان بن حرب وهشام بن المغيرة، وصفوان بن أُمية وأخيه عوف والعاص ابن وائل، وأُبيّ بن خلف الجمحي وأبي قحافة، والخطاب والقوام وسعد بن أبي وقاص، والأسود وخويلد بن نوفل، وورقة بن نوفل وعمير بن نفيل، وهشام بن الحكم وولديه أبي جهل وأبي البختري، وغيرهم وبني هاشم وبني عبد المطلب. وكانت قريش تخاف أولاد عبد المطلب، ويعرفون حقهم، ويذكرون فضلهم، فاجتمعوا حتى ضاق المجلس بأهله فبينما قريش يتحدثون إذ وثب أبو جهل اللعين، وكان شاباً قوياً خفيفاً في الصراع، فأتى إلى أخيه أبي البختري وقال له قم يا أخي نتصارع. فوثب إليه أبو البختري وصارعه فصرعه أبو جهل. فبقي أبو البختري خجلاناً، وجلس إلى جنب أبيه هشام. ثم أقبل أبو جهل اللعين يخطر في مشيته، وينظر إلى عطفه[1]، حتى وقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فضرب يده في كمه الطاهر الشريف وناداه: يا محمد قم حتى نتصارع! فأطرق النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأسه عن أبي جهل وقال له: إرجع إلى مجلسك فإني لا أحب مصارعتك! فلم يزل أبو جهل يلح عليه والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يأبى عليه. قال: فغضب أبو طالب عليه السلام غضباً شديداً، والتفت إلى إخوته فلم يرَ أحداً إلا أخاه

(١) عطف الرجل: جانبه ويقال: ينظر في عطفيه، أي هو معجِب.

الحمزة، فقال له بعدما رأى الغيظ منه: يابن عبد المطلب أما ترى إلى ما نحن فيه من أبي جهل، وما فعله بنا، وما رامه في ابن أخينا محمد، في هذا اليوم بين أهل هذا المجلس؟! فقال الحمزة: لقد رأيت ذلك وبلغ مني الغيظ كل مبلغ! ثم أقبل على هشام بن الحكم وقال له: أخبرني أنت أمرت ابنك أن يصارع ابن أخينا، ويتعرض له، قال: لا. وحق اللات والعزّى. قال له: أيسرك أن يصارع ابن أخي ابنك؟ قال: نعم.

قال أبو الحسن البكرى: وكان هشام لما رأى تأخّر النبي عن مصارعة ابنه، طمع في ذلك، ورجا لابنه أن يكون غالباً للنبي، فيفوز ظفراً بابنه، ويزداد رتبة عالية في قريش، بغلبه للنبي. قال أبو طالب: يا هشام، ما يكون بيننا وبينك من الضمان على هذا الأمر؟ قال هشام: يا أبا طالب، من غُلب ولده يكون عليه وليمة يعملها لقريش! فقال أبو طالب عليه السلام: رضينا بذلك. فسمِّ لنا ما يلزمكم حتى نسمِّ لكم ما يلزمنا، لأنك قد اشتهيت ذلك. فقال هشام: إن كان المغلوب ولدي فعليّ ثلاثون وسقاً من القمح وخمسون رأساً من الغنم، وخمسة من الإبل، هذا الذي يكون علينا، فما الذي يكون عليكم إذا كان المغلوب ولدكم، فما تريد أن تتكلم به؟ فسبقه الحمزة بالكلام وقال: يا هشام، إن كان المغلوب محمد فلك في مالي ثلاثة أضعاف ما ذكرت، إكراماً مني لابن أخي محمد! ثم قال أبو طالب: يا محمد شماتة الأعداء أهم وأعظم علينا، وإن قطع الرقاب وتلف الأموال أهون من شماتة الأعداء، وقد علمت يا محمد ما ضمنه الحمزة والعباس! ـ وكان العباس قد ضمن مثل ما ضمنه الحمزة ـ واعلم يا بن أخي، إنه لو كان ملء الأرض ذهباً وفضة، كان قليلاً في رضاك يا محمد، ولكنه أسهل علينا من غلب ولدنا، ولهذا إن أموالنا أهون علينا من العار، لا سيما ونحن أفضل الناس، وأهل العقل والقدمة والسوابق. ولا يخفى عند العرب وأهل مكة لأنهم يعرفون فضلنا، وسؤددنا وعلو قدرنا ومجد أجدادنا، والعيون إلينا ناظرة ونحن من ولد عبد مناف، وسلالة إسماعيل وذرية إبراهيم الخليل. ومتى كان الغالب أبا الحكم، كان سيئة علينا وشمتت العرب بنا، فنعوذ بالله من غلبات الرجال!.

قال: فتبسم النبي ﷺ في وجه عمه أبي طالب وقال: نعم صدقت يا عم في مقالك، ونصحت في خطابك. ثم قال النبي: أنا أُصارعه إن شاء الله، ولا أرجع عن مصارعته ما داموا مجتمعين. فقال أبو طالب: لئن رجعت عن مصارعته، كان عاراً علينا عند قومنا، ولا سيما قد شهدت الجماعة عليك وعلى أعمامك ـ يعني حمزة والعباس ـ وكذلك هشام، بما ضمنه. ولكن تبذل المجهود من نفسك ولا عليك بأس! فقال النبي ﷺ لأعمامه: فما الذي تحبون؟ فقال أبو طالب: ما نحبه ونختاره أن تقوم إليه وتصرعه، وتدوس في بطنه، وتطرح يدك في حلقه، وتكسر حقوه حتى يكون الغلب لنا، والطعن بأيدينا، والذلة واقعة عليهم! فقال النبي: يكون الأمر كما تريد يا عم إن شاء الله تعالى. فقال أبو طالب عليه السلام: أنا وعيشك أشتهي أن يكون مكسوراً مذلولاً بين الناس، كما أظهر بنفسه واعتجب بنشاطه وقوته، وألح عليك بفعله وطمع فيك. وما أراه يريد إلا فضيحتك والشماتة بك! وإني لواثق أنك غالبه برافع الخضراء وداحي الغبراء، فقم الآن واكشف لنا أمره، واستعن عليه برب إبراهيم الخليل.

فعندها قال النبي ﷺ: يا آل فهر وغالب ويا سادات الكتائب، ويا جميع العشائر! اسمعوا لجوابي وأنصتوا لخطابي! فسكت كل ناطق، وصمت كل متكلم، وشخصت الناس بأبصارهم، ومدت الأعناق وأصغوا إليه فقال: يا معاشر العرب: اعلموا أن النهار قد انصرم، والشمس قد علت والحر قد حمي، وأبو الحكم قد صارع أخاه وهو متعوب معه، وقد لحقه التعب، فإن أنا صارعته وصرعته قالوا إن أبا الحكم قد صارع وهو متعوب، ومحمد مستريح، فيسقط فضل الفاضل على صاحبه. ولكنا مقيمون على العهد والضمان، فإذا كان في غداة غد بكرنا إلى هذا المكان، وكل منا مستريح لخصمه. فمن صارع صاحبه وغلبه كان الفضل له! قال: فتعجب الناس من كلامه وقالوا: قد أنصفت يا محمد وإنك لرجيح العقل! فتفرق الناس، وشاع الخبر بمكة بما قد عزم عليه محمد بن عبد الله، وأبو الحكم بن هشام، وما تواعدوا عليه من الضمان، وتواعدوا للبكور من كل جانب ومكان، وكثر القيل والقال، وقيل ما رقدوا تلك الليلة، وكل واحد منهم يتوقع مجيء الصباح، وكثر الاختلاف فقوم يقولون

محمد يغلب، وقوم يقولون أبو جهل يغلب. وصار القوم فرقتين، ووقعت الرهائن والوثائق في تلك الليلة.

قال صاحب الحديث: وبات أبو طالب تلك الليلة متفكراً في أمر محمد، وصراعه لأبي جهل. وأما عتيق بن أبي قحافة، فإنه عمد إلى أسفاطه واختار ثوبين مثقلين، قد اشترى كل واحد منهما بمائة مثقال من الذهب الأحمر، من النجاشي ملك الحبشة، يريد فيهما الفضل، وقال: لا يلبسهما غير محمد! وأخذ معه عشرة مثاقيل من المسك الأذفر فسحقه، فلما أصبح دفع ذلك إلى بعض مواليه، فحمله وأخذ معه دراهم ودنانير في كمه، وخرج من منزله وجدّ في مسيره إلى أن وصل إلى المكان، وإذا به قد غص بالناس، وكلٌ بادر إلى مجلسه، وامتلأ المجلس من كثرة الناس، فنظر عتيق وإذا ليس يرى له مكاناً، فبقي في آخر الناس ينظر يميناً وشمالاً، وإذا بسادات قريش جلوس، ووجوه بني مخزوم ومشايخ بني عبد شمس، وفتيان الحارث ورؤساء بني فهر بن مالك، والخلفاء من بني خزاعة، وبني عوف وبني لؤي وبني غالب، وقد نودي في فجاج مكة وأطرافها يا معاشر العرب إن محمداً يريد أن يصارع أبا جهل بن هشام في بطحاء مكة، فمن أراد أن يحضر فلا يتخلف عن البكور. قال: فأقبل الناس يهرعون من كل جانب ومكان، ولم تبق مخدرة في خدرها ولا طفل ولا شيخ، وكان يوماً عظيماً مثل يوم الموسم، والقوم ينظرون من الغالب ومن المغلوب، وأبو بكر قائم ليس له موضع يجلس من كثرة ازدحام الناس. قال: فبينما الناس كذلك، إذ أقبلت الكتيبة الخضراء، أهل العز والوفاء، ولد عبد مناف، وإذا بالنبي ﷺ بين عمومته كأنه بدر تجلى من الغمام، والنور يشرق من غرته والضياء يسطع من وجهه، كأنه قمر بين النجوم، قد سطع نوره وضياؤه وبهاؤه، وعليه عمامة بيضاء وقد أرخى لها ذوائب، وعليه جبة أرجوانية وعليه حلة يمانية، وقد تدلت عذباتها[1] وحشيت بالمسك.

فلما نظروا إليه وقد راعهم جماله، وقده واعتداله، وأدهشهم نوره وضياؤه، وتعجبوا منه فأفرجوا له، وقاموا إجلالاً وإعظاماً، فنظر أبو طالب،

---

(١) عذباتها: أطرافها.

وإذا عتيق قائم ليس له موضع، وهو متمطٍ على أطراف أصابعه، فمد يده إليه وجذبه إلى نحوه، ومشى به إلى النبي، وهو مطرق إلى الأرض حياءً من عمومته. قال عبد المطلب: فلما استقر بنا الجلوس، أقبل أبو جهل وقد تزين بكل الزينة، وصار في أعظم هيبة، وذلك أنه لم يجد أحداً عليه مثل ما عليه هو من الثياب، وهي من قباطي، وقد تمنطق بمنطقة[1] من الذهب الأحمر، منظومة باليواقيت مرصعة بالدر والجوهر والمرجان، وعلى رأسه عمامة منسوجة بالذهب، مضمخة بالمسك الأذفر والند والعنبر. فلما نظر النبي إلى أبي جهل أطرق رأسه إلى الأرض، وكان أبو طالب قد علم ما في نفسه، فاغتم غماً شديداً، وتنفس صعداً فقال له النبي ﷺ: لعلك ندمت على ما كان بينك وبين هؤلاء القوم! فقال أبو طالب: لا ورب الكعبة، لكن لما رأيت أبا جهل وما عليه من الثياب، ولم أر عليك مثلها قلت في نفسي: لعل ينكسر قلب محمد! يا عم لا تأسَ على ما فاتك من الدنيا، فإنما هي متاع الغرور.

قال الراوي: وتزاحمت الناس وارتفعت الأصوات، وتعالى النهار، فأقبل هشام على أبي طالب عليه السلام وقال له: ما انتظارك بوعدنا؟ فإن النهار قد انصرم، والشمس قد حميت، والناس ينتظرون ما يكون من هذين الغلامين، وقد تطاول الجمع ينظرون الغالب من المغلوب، فأنجز ذلك يا أبا طالب! قال: فأقبل أبو طالب على النبي وقال: يا محمد فداك عمّك! قم فقد حضر الوعد، فإن إله إبراهيم وإسماعيل حافظك وناصرك! ثم أقبل هشام على ولده أبي جهل وقال له: قم فأنجز ما بيننا وبين هؤلاء القوم. وقام أكثر الناس على أقدامهم، ومدوا أعناقهم وشخصوا بأبصارهم، فقام أبو جهل لعنه الله ونزع ثيابه، وبقي في سراويله، وأخذ محزمه وشده على وسطه، واستوثق من شدّه، وجال بين الناس جولة عظيمة. هذا والنبي ﷺ ينظر إليه، وهو غير مكترث به، ولا مرتاب منه. فعند ذلك أقبل يخطر في مشيته، وينظر إلى عطفه، ويخال في قدّه، حتى وقف بين يدي النبي، ثم قام بإزائه والنبي ﷺ مطرق إلى الأرض. فقام هشام بن الحكم وحث ولده على ذلك، وكذلك قام أبو طالب عليه السلام وقال: يا

(١) المنطقة ما يُشدّ به الوسط.

محمد لم لا تمضي إلى خصمك؟ فقال النبي ﷺ: ما تقول يا عم؟ قال: أنا واقف منذ ساعة بين يديك فقم إليه.

قال الراوي: فرفع النبي ﷺ عمامته عن رأسه، ووضعها في حجر عمه حمزة، فلاح من تحتها نور شعشعاني قد بلغ عنان السماء، وأخذ بأبصار الناس، وشد أكمامه ورفع أذياله في دور محزمه، وقفض سراويله وهم بالدنو من أبي جهل، فأقبل عليه عمه حمزة وقال: فداؤك يا محمد لا من فعل الصعاليك، بل من احتراز الفتيان! أما تنظر إلى أبي جهل وقد احترز منك حذراً أن تغلبه، وقد أخذ منك أُهبة وأنا خائف عليك، ولم لا تنزع ثيابك لئلا يشغلك منها شيء، فيكون سبب الغلب؟ قال العباس: صدق والله أخي يا محمد! احترم له كما احترزم لك. وأنا أقول ورب الكعبة أن لا يرانا هذا الجمع مقهورين مغلوبين! فقال أبو طالب: العار العار فاحذره يا محمد! فنظر النبي فكأنما نور سطع من بين ثناياه، فضج الناس وجعلوا يقولون: من مثلك يا محمد صباحاً وملاحاً وكرماً وسؤدداً! فرب الكعبة حافظك وناصرك! ثم إن النبي ﷺ عطف على عدو الله أبي جهل، من وسط الجمع، حتى درّ كل واحد منهما العرق، وازورّت منهما الحدق، وافترق كل منهما عن صاحبه ينظره شزراً، ويكلمه قهراً، فنظر الناس إلى عرق النبي، وقد انحدر على جبينه وعارضيه[1] كأنه اللؤلؤ الرطب، قد انصرم من سلكه، وهو أطيب من رائحة المسك الأذفر والكافور والعنبر. وقال: فتزاعق الناس من كل جانب ومكان، وكل حزب متعصب لحزبه، وقد شخصت نحوهم الأبصار ومدت الأعناق، وركب الناس بعضهم على بعض، وقاموا على أطراف أصابعهم، ينظرون من الغالب ومن المغلوب.

قال: فلما رأى النبي الجد من أبي جهل، ضرب يده إلى وسطه، فاجتمع في يده مثل الأُكرة، وخفّفه الله تعالى في يده، حتى رفعه من الأرض على يده، وزج به[2] في الهواء، حتى لو أراد أن يبلغه إلى السماء لقدر، حتى خفي عن

---

(١) العارض: صفحة الخدّ.

(٢) زجّ به: رمى به.

أعين الناس، فلم يره أحد ممن حضر، فضجت الناس وارتفعت الأصوات، وشخصت الأبصار وذهلت العقول، ووجلت القلوب، فأقبل يهوي على أُم رأسه، فاستقبله النبي بيده اليمنى، وناوله اليسرى، كأنه كرة يلعب بها الصبيان في الميدان، فلما صار في يده نادى أبو طالب وقال: زجّ به أيضاً! فزجه ثانية في الهواء أكثر من الأُولى، وقد خففه الله تعالى في يده، كأنه العصفور في يد إنسان، فصاح به حمزة وقال: زج به أيضاً ثالثة فداك عمك! فزجه في الهواء، فمر صاعداً فبهت الناس منه، لما عاينوا فضائله صلوات الله عليه، وقال بعضهم: لو كان أبو جهل كرة تلعب بها الصبيان، ما كان ارتفع في الهواء أكثر من ذلك! فأقبل يهوي على أُم رأسه، فاستقبله النبي ﷺ قبل أن يقع على الأرض، ورفعه بيده وهزه، حتى خلط أمعاءه بعضها في بعض، فصاح برفيع صوتٍ سمعه كل من كان حاضراً: قتلني محمد وحق اللات والعزى، قال أبو طالب: اجلد به الأرض[1] واعصر حلقه ودس في بطنه! قال النبي: حباً وكرامة لك يا عمّ! ثمّ جلد به الأرض جلدة خفيفة إجابة لعمّه، فوقع على الأرض وقد أُغمي عليه، وزال عقله وغاب رشده مما نزل به، فوقعت عضلة ساقه على حجر، فانكسرت وتهشمت أعضاؤه، وتكسرت ثناياه، وانتفخ أنفه، وجرى دمه، حتى تخضبت به ثناياه، وبقي مرمياً على الأرض كالجيفة ليس به حركة. فقال ﷺ: لولا شفقتي عليه لجلدت به الأرض جلدة أخرجت بها روحه من جثته!.

فتزاعقت بنو هاشم وبنو عبد مناف وبنو عبد المطلب، ووقعت الصيحة في مكة، أن محمداً غلب أبا جهل ونكس رأسه، وكسر همته وأضعف عزمه، وأذهب شوكته وأراح الناس منه. وقد كانت الناس تخافه إلى ذلك اليوم، فإنه لم يتعرض لأحد بعد ذلك اليوم، ولا تعرض لصراع أحد، وصار الناس يدعون لمحمد على سلامته من أبي جهل.

قال الراوي: وأما بنو مخزوم، فقد شملتهم الذلة والحزن، وأما خديجة فإنها بعثت من يخبرها من الغالب ومن المغلوب، فلما سار الرسول إليها،

---

(١) جلد به الأرض: صرعه.

أخبرها أن محمداً قد غلب أبا جهل، فلذلك ازدادت حباً لمحمد ﷺ وشوقاً إليه ورغبة فيه، لأنها قد طمعت فيه لما أخبرها به الكهان. ولما قد ذكروا، ورغبها بما قد خصه الله تعالى به وفضله. ودخل على بني مخزوم من الغلبة ما دخل عليهم، وقاموا في إصلاح الوليمة والطعام والخمر، وكذلك عمل بنو هاشم وليمة، وكان ذلك لفرحهم بغلب محمد لأبي جهل، ودعت إليها سادات قريش وجميع من في مكة، ووقع الأكل والشرب سبعة أيام. ثم انصرف الناس بعد ذلك، وليس لهم حديث إلا محمد وصراعه لأبي جهل اللعين، والحمد لله رب العالمين.

هذا ما جرى لصراعهما الذي نصر نبينا محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

قال أبو الحسن البكري: وكانت خديجة أغنى أهل مكة وأهل زمانها، وكان لها في كل قبيلة من العرب، غريب من النوق والخيل والغنم، لأنها زوجت عبيدها بجواريها، وفرقتهم على العرب، وأعطتهم بيوت الشعر، وجعلوا يتوالدون. وكان لها أربعة آلاف جمل تسافر بالتجارة إلى الشام، وغيرها من الأمصار، ومعها من العبيد والولدان والغلمان والوكلاء عدد لا يحصى. قال: وكان أبو طالب قد كبر وضعف عن التجارة والسفر، من حيث إنه كفل النبي ﷺ، فدخل عليه ذات يوم من الأيام فرآه مهموماً مغموماً فقال له: يا عم ما لي أرى على وجهك أثر الهمّ والغم؟ فقال له: يابن أخي إعلم أنه لا مال لنا ولا تجارة، وقد اشتد علينا الزمان. فقال له: يا عم وما ذلك؟ قال: إني قد كبرت وضعفت قوتي، وقل ما بيدي وقلت حيلتي. وقد مات أبوك ولم يخلف قليلاً ولا كثيراً. من مال وغيره، وقد أنفقه في سبيل الله، وأنا قد فرغ ما في يدي، وأشتهي أن أُزوجك، وأرى لك زوجة تسكن إليها، وبيتاً معموراً قبل موتي؛ وقد علمت أن قومك لا يزوجونك لأن الراغب في الفقير قليل. فقال له: ما عندك من الرأي يا عم؟ قال: يا ولدي إعلم أن خديجة بنت خويلد، امرأة شريفة في قومها، وقد انتفع من مالها أكثر الناس، وهي تعطي أموالها لسائر الناس، من سائر قريش وغيرهم، يسافرون بها. فهل لك أن تمضي معي إليها،

لنسألها أن تعطيك شيئاً من مالها، تجارة تسافر فيها ويعود عليك خيرها؟ فإن خديجة تعطي من يسألها ولا سيما أنت! فقال له النبي ﷺ : إفعل ما بدا لك يا عم! ثم إنهم قصدوها وعزموا على التوجه إليها. وفيها كما قال الشاعر:

كـمْ شـاهـدٍ لمحمـدٍ بنبـوَّتـه فـي نصـرِ ديـنِ اللهِ عـزّه وقـوتـه

سبب خروج النبي
بتجارة خديجة إلى الشام

قال: ثم إن أبا طالب جمع إخوته، فلما اجتمع بنو عبد المطلب قال لهم أبو طالب: امضوا بنا إلى دار خديجة حتى نسألها أن تعطي محمداً مالاً يتجر به. فقاموا من وقتهم وساروا إلى منزل خديجة. وكان لخديجة دار واسعة، وكان سقفها من الحرير الأزرق، وفيها صورة الشمس والقمر والنجوم، وقد ربطته بحرير الإبريسم، وأوتاد من الفضة. وكانت قد تزوجت برجلين أحدهما شهاب وهو عمر الكندي، والآخر عتيق بن عدي. فلما مات خطبها عتبة بن أبي معيط، والصلت بن أبي يهاب المخزومي، وكان لكل واحد من هذين الرجلين أربعمائة عبد وأمة، وخطبها أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان بن حرب. وخديجة لا ترغب في أحد منهم. وكان قد تولع قلبها بالنبي ﷺ، لما سمعت من الرهبان والركبان، والأحبار والكهان، وما أخبروها وما ذكروا لها، من الدلائل والبراهين والمعجزات، وما رأت قريش منه من الآيات، وكانت تقول: سعدت من تكون لمحمد قرينة، فإنه يزين صاحبه ولا يشينه! وزاد بها الوجد والغرام والشوق، فبعثت إلى عمها ورقة بن نوفل، وقالت له: يا عم أُريد أن أتزوج ولا أعرف من يكون لي بعلاً، وقد أكثر الناس الكلام علي، وقلبي لا يقبل أحداً. فقال لها ورقة: يا خديجة ألا أُحدثك بحديث عجيب وأمر غريب؟ قالت: وما هو يا عم؟ قال: عندي كتاب من عهد عيسى بن مريم، فيه عزائم وطلاسم، وإني أعزم لك به على ماء تأخذينه وتشربين منه وتغتسلين به. ثم

أكتب لك كتاباً فيه كلمات من الزبور، وكلمات من الإنجيل وتضعينه تحت رأسك عند النوم، وأنت على فراشك وملتفة بأثوابك، فإن الذي يكون زوجك يأتيك حتى تعرفيه باسمه وكنيته، وحسبه ونسبه. فقالت له: يا عم إفعل ما بدا لك. فقال ورقة: حباًوألف كرامة لله ولك!.

ثم كتب الكتاب ودفعه إليها، ففعلت ما أمرها به عمها ونامت. فلم يكن من الليل إلا القليل، حتى رأت في منامها، وقد جاءها رجل، لا بالطويل الشاهق، ولا بالقصير اللاصق، أدعج العين أزجّ الحاجبين، أحور المقلتين عقيق الشفتين، أزهر اللون مليح الكون، معتدل القامة مدور الهامة، تظلله الغمامة بين كتفيه علامة، ينظر من ورائه كما ينظر من قدامه، راكب على فرس من نور، مزمزم بزمام من نور، على ظهره سرج من العقيق، مرصع بالدر والجوهر والمرجان، وله وجه كوجه الآدميين، منشق الذنب له أرجل كالبقر، خطوته مد البصر، وهو يرفل بالراكب، وكان خروجه من دار أبي طالب. قال: فلما رأته خديجة ضمته إلى صدرها، وأجلسته في حجرها. وأتت إلى عمها ورقة في ذلك الليل، وقالت له: يا عم، نعمت صباحاً فقال: وأنت يا خديجة لقيت نجاحاً ووقيت أتراحاً[1] لعلك رأيت شيئاً في منامك؟ قالت: نعم. رأيت رجلاً صفته كذا وكذا. فعندها قال ورقة: والله يا خديجة! إن صدقت رؤياك لتسعدين وترشدين، بنبي كريم ورسول عظيم، فإن الذي رأيته هو نبي هذه الأُمة وكاشف الغمة، وسراج الظلمة، المبعوث من تهامة، المتوّج بتاج الكرامة، والشفيع للعصامة في يوم القيامة. سيد العرب والعجم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. قالت: وكيف لي بما تقول يا عم، وإني كما قال الشاعر (**صلوا على النبي وآله**):

أسيرُ إليكمْ قاصِداً لأزورَكم ... وقد قصَّرتْ بي دونَ ذاكَ رواحلي
أحمِلُ برْقَ الشوقِ شوقي إليكم ... وأسألُ ريحَ الغربِ ردَّ رسائلي
وتلكَ الأمانيُّ خدعةٌ غيرَ أنني ... أُعلِّلُ وجدَ الحادثاتِ ببالِلِ

قال: وزاد خديجة الوجد والاشتياق إلى محمد، وكانت إذا خلت بنفسها

---

(١) الأتراح: الأحزان.

فاضت عبرتها، وجعلت تنشد وتقول:

كمْ أكتُم الوجدَ والأجفانُ تهتِكُه ... وأُطلقُ الحبَّ والأعضاءُ تُمسِكَه
جَفاني الحبُ لما أنْ تمسَّكُه ... غيري فوا أسفا لوْ كنتُ أملكه
ما ضرَّ مْن لم يدَعْ منّي سوى رمقٍ ... لوْ كانَ يَسْمَحُ بالباقي فيترُكُه

وعلى هذا المعنى جعل الشاعر يقول:

متى تنْطَفي ناري وتبرُدُ غلَّتي ... وترجِعُ أيامي بقرْبِ أحبَّتي[1]
فإنْ حلْتُ عمّا تعهدوني من الوفا ... فلا بلغَتْ روحي بكم ما تمنَّتِ
فقلبي حزينٌ يومَ فارقْتُ حيَّكم ... فنارُ الأسى والبينِ حشوُ حُشَاشتي
أموتُ اشتياقاً ثمّ أحيا بذكرِكم ... وأنتُم مُنائي والبعادُ منيَّتي
وأنتمْ ضَيا عَيْني ونورٌ لمهجتي ... ورَوْحي ورَيْحاني وحَجّي وعُمْرتي
فلا تقتلوني بالقطيعةِ والجَفا ... وحنّوا على ضَعْفي وفَقْري وفاقتي
فَواللهِ واللهِ العظيمِ وإنه ... لئِنْ دامَ هذا الحالُ متُّ بحسْرَتي
متى يجمعُ الرحمٰنُ شملي بقربِكمْ ... متى تُكحَلُ الأعيانُ منكمْ بنظرتي
ونرجوكَ يا مولايَ تغفرْ ذنوبَنا ... بجاهِ النبيِّ مولايَ خيرِ البريةِ

قال: وأعجب من ذلك أنها لم تفرغ من شعرها ـ السابق على هذه القطعة ـ إلا وقد طرق الباب طارق، فقالت لجاريتها: قومي ويلك وافتحي الباب، فلعل علم من الأحباب! ثم إنها جعلت تقول:

أيا ريحَ الجنوبِ لعلَّكَ عالمٌ ... من الأحباب يطفي نارَ حرّي
فلمْ لا حمَّلوكَ إلي منهم ... سلاماً أشتريه ولو بعُمْري
وحقِّ ودادِهم إني كتومٌ ... وإني لا أبوحُ لهمْ بسرِّي
أراني الله وصلَهمُ قريباً ... فكمْ يسرٍ أتى منْ بعدِ عُسْرِ
فيومٌ منْ فراقِكُمُ كشهرٍ ... وشهرٌ منْ فراقِكُمُ كدَهْري

قال الراوي: فنزلت الجارية فوجدت أولاد عبد المطلب بالباب، فرجعت إلى خديجة وأخبرتها بقدومهم وقالت: يا سيدتي إن بالباب سادات العرب، من

---

(١) الغلَّة: العطش الشديد.

ذوي المعالي والرتب، أولاد عبد المطلب! فرمقت رمقة الهوى، ودهشتها دهشة الجوى، ثم قالت للجارية: افتحي لهم الباب، وأمري ميسرة يعدّ لهم المساند والوسائد، وإني لأرجو بأن أتوا بذكر حبيبي محمد ثم أنشأت تقول:

ألــذّ حيــاتــي ذكــركُــم ولِقــاكُــمُ
ولســتُ ألــذُّ العيــشَ حتــى أراكُــمُ
وما استحسنَتْ عيني منَ الناسِ غيرَكم
ولا لــذَّ فــي قلبــي حبيبــاً ســواكُــمُ
علــى الــرأسِ والعينيــنِ جملــةُ سعْيكــم
ومَــنْ ذا الــذي فيمــا أردتُــمْ عســاكــم
ومــا غيــرَكــم فــي الحــبِ يسكــنُ مهْجتــي
وإن شئْتــم تفتيــشَ قلْبــي فهــاكُــم

قال: ثم إنها أمرت عبدها ميسرة بأن يفرش لهم المجلس بأنواع الفرش قال: فما فتحت الجارية الباب، إلا وميسرة قد أعد لهم المساند والوسائد، وفرش المجلس بأنواع الفراش، ثم إنهم جلسوا فما استقر بهم الجلوس، إلا وقدم لهم الطعام والفواكه، فأكلوا وشربوا، وأخذوا في مذاكرة الحديث، فقالت خديجة من وراء الحجاب، بصوت عذب وكلام رطب: يا سادات مكة أضاءت بكم الديار، وأشرقت بكم الأقطار! فلعل حاجة فتقضى أو ملمة فتمضى؟ فإن حوائجكم مقضية! فقال لها أبو طالب عليه السلام: يا خديجة جئناك في حاجة يعود نفعها إليك وبركاتها عليك! فقالت: يا سيدي وما ذلك؟ فقال: جئناك في أمر محمد. قال: فلما سمعت بذكر محمد غابت عن الوجود، وأيقنت بتحصيل المقصود. ثم إنها ترنمت وجعلت تقول:

ذكـرُكـم يطفـي فـؤادي مـن الـوقـدِ ورؤيتُكـم فيهـا شفـاءٌ مـن الـرمَـدْ
ومـنْ قـال إنـي أشتفـي مـن هـواكـم فقدْ كَذَبوا لو متُّ فيه منَ الوجدِ
ومـا لـي لا أُمـلأ سـروراً بقـربِكـم وقدْ كنتُ مشتاقاً إليكم على البُعْدِ
تشابَه سرّي في هواكم وظاهِري فأُبدي الذي أُخفى وأُخفي الذي أُبدي

ثم قالت: وأين سيدي محمد حتى يحدثنا بما يريد، ونسمع ما يقول؟

فقال العباس: أنا آتيكم به إن شاء الله. فنهض وسار يطلبه في الأبطح فلم يجده، فالتفت يميناً وشمالاً، فقال له رجل مكي: يا سيدي أراك تلتفت يميناً وشمالاً، لمن تطلب؟ قال: أُريد ابن أخي محمد! قال: كان هنا منذ ساعة، وتوجه يطلب جبل حراء فسار العباس إلى الجبل في طلبه، فوجده هناك نائماً في مرقد إبراهيم الخليل، ملتحفاً ببردته، وعند رأسه ثعبان مبين عظيم، وفي فمه طاقة من الريحان، يروِّحه بها. فلما نظر إليه العباس غشي عليه وقال: ما أخوفني عليه من هذا الثعبان العظيم! فسلّ سيفه وهمّ بقتله، فحمل الثعبان عليه، فرأى العباس الغلبة على نفسه، فصاح يابن أخي أدركني! ففتح النبي ﷺ عينيه، فذهب الثعبان كأن لم يكن شيئاً. فقال له النبي: أرى سيفك مسلولاً يا عم! فقال: لقد رأيت شيئاً يشبه السحر! وما كان أبونا يعرفه ولا أنت أيضاً تعرفه! ثم قص عليه ذلك، فقال العباس: لما صحت بك وفتحت عينيك ذهب، كأن لم يكن شيئاً، فأرعبني ذلك! فتبسم النبي وقال: لا بأس عليك يا عم، ليس هو ثعبان، ولا هو من هوام الأرض، وإنما هو ملك من الملائكة من عند ربي، موكل بحراستي. ولقد رأيته مراراً وخاطبني جهاراً، وقال لي: يا محمد أنا ملك من عند ربك، موكل بحراستك في الليل والنهار، من كيد الأعداء، فقال العباس: ما ينكر فضلك! وقد وجدت لك مكاناً تعمل فيه. فتبسم النبي ﷺ ضاحكاً وقال: أين يكون ذلك يا عم؟ فقال: عند خديجة تكون أميناً على أموالها، تسير بها حيث شئت! قال: أُريد الشام. قال: ذلك إليك. قال: فسار النبي مع عمه العباس إلى بيت خديجة، وكان من عاداته إذا أراد زيارة قوم، سبقه النور إليهم. قال: فسبقه النور إلى بيت خديجة، قال: فدعت عبدها ميسرة وقالت له: ويحك كيف غفلت عن الخيمة حتى عبرت الشمس على المجلس؟ فقال: يا مولاتي ما غفلت عن الخيمة. ثم خرج فلم يجد تغييراً في طنب ولا وتد، ونظر إلى العباس فوجده قد أقبل، والنبي معه فقال: يا مولاتي لم تتغير الخيمة وأوتادها، وما هذا نور الشمس، وإنما هو نور محمد قد أقبل علينا! قال: فاستعدت للنظر إلى وجه محمد قال: فلما دخل المنزل قام له أعمامه إجلالاً له، وأجلسوه في أوساطهم، فلما استقر بهم الجلوس قدمت إليهم الطعام، وما يوجب العزة والإكرام، فأكلوا وشربوا فقالت

خديجة من وراء الحجاب، بصوت عذب وكلام رطب: يا سيدي يا محمد أنست بك الديار وأضاءت بك الأقطار، وأشرقت من طلعتك الأنوار! ثم إنها فرحت فرحاً شديداً وجعلت تنشد وتقول:

مرحباً بكَ يا محمدُ مرحبا ... مرحباً بكَ نورَ عيْني مرحبا
مرحباً بك يا محمَّدُ مرحبا ... مرحباً يا نورَ مصباحِ الظلام
لنزولِ صاحب البيتِ الحرامِ ... وسرور قلبِ المصطفى خَيْرِ الأنام
لنزولِ الهاشميِّ القرشي ... وصاحِب الأبطَحِ وزمزَم والمقام
صاحبِ الدينِ المكملِ كامل ... كاملِ الأوصافِ مصباحِ الظلام
منْ نورِه أشرقَتْ شمسُ الضحى ... والبدرُ من وجهِه أضا ثمّ استقام
والحَصى سبَّح بكفِّه والرُبا ... ثمّ زُلالُ الماءِ مع طيرِ الحمام
منْ بين أصابعِ النبيِّ العربي ... صاحبِ البرهانِ وآياتٍ كرام
ليلةَ المعراجِ ربّي أيَّده ... ومعَهُ جبريلُ قدّامه إمام
قد ركِب ظهرَ البُراقِ الهاشمي ... وارتقى سبعَ السماواتِ تَمام
هلَّلتْ أهلُ السماواتِ العُلا ... والْتقوه بالتحيّة والسلام
قدْ سَعوْا نحوَه وَجو لخدمته ... أشاروا إليه قمْ فصلِّ يا إمام
قامَ صلّى المصطفَى بأهل السمّا ... والْتقى الآياتِ من ربِّ الأنام[1]
قال اطلُبْ ما تشاءُ منّي تجدْ ... قالَ تعفو لأمّتي يومَ الزّحام
قال أبشرْ يا محمَّدُ بالرضا ... أُمّتُك أدخِلْها دارَ السلام
قدْ بلَغَ قصدُه النبيّ العربي ... ورجعَ منْ عندِ ربِّه لا ينام
في بعْثِه إني بشيرٌ لكم ... أن تصلّوا وتصوموا بالتمام
وأن تزكّوا من طعام الطيبِ ... وتحجّوا البيتَ عاماً بعد عام
قالتِ الكفارُ هذا ما جرى ... كلُ ذلك صارَ في رقدةِ مَنام
قالَ لا قُمْ إنْ كنتَ مثلي مُسْتَهام ... فبلّغ الأخبارَ والناسُ نيام
ما ينامُ الليلَ منه عاقلٌ ... كلُ ذي نومٍ على العاقلِ حرام
وصلاةُ الله تغْشى أحمد ... ثم البتولَةَ وحسينَ والإمام

---

(١) الأنام: البشر.

ثم قالت خديجة: أترضى أن تكون أميناً على أموالي، تسير بها حيث شئت؟ قال: نعم، رضيت ولكن أُريد للشام. قالت: نعم إني راضية بذلك، وإني قد جعلت لمن يسير بأموالي، مائة ناقة ومائة أُوقية من الذهب، ومثلها من الفضة، وجملين وراحلتين فهل أنت راضٍ؟ فقال أبو طالب: رضي بذلك وإنه يا خديجة مكين أمين، وأنت إليه محتاجة لأنه من خير خلق الله، ومن يوم خلقه الله ما وقفت له العرب على صبوة أبداً! فقالت خديجة: يا سيدي تحسن أن تشد على الجمال، وترفع عليها الأحمال؟ قال: نعم. قالت: يا ميسرة ائتني ببعير حتى أنظر كيف يشد عليه سيدي محمد. فخرج ميسرة وأتى ببعير شديد البأس قوي المراس، لم يجسر أحد من الرعاة أن يشد عليه، ويخرجه من بين الإبل. فقال العباس: ما كان عندك أهون من البعير تريدين أن تمتحني به محمد؟ فقال النبي ﷺ: دعه يا عم. فلما سمع البعير كلام البشير النذير والسراج المنير، برك على قدميه، وجعل يمرغ خده ووجهه على أقدام محمد ﷺ، ويقبلهما، ونطق بلسان فصيح وقال: من مثلي وقد لمس ظهري سيد الأولين والآخرين! قال: فتقطعت النساء اللاتي كنّ عند خديجة وقلن: ما هذا إلا سحر عظيم، قد أحكمه هذا اليتيم! فقالت خديجة: والله ما هذا سحر، وإنما هو آيات بينات، وكرامات ظاهرات ليست خفيات، ومعجزات واضحات. ثم إن خديجة جعلت تقول:

نطقَ البعيرُ بفضلِ أحمدَ مُخْبِرا ... هذا الذي شَرُفَتْ بهِ أُمُّ القُرى
يا حاسدينَ تمزَّقوا في غيظِكم ... فهوَ الشفيعُ وخيرُ من وَطِىءَ الثَّرى
هذا محمدٌ خيرُ مبعوثٍ أتى ... فهوَ الحبيبُ ولا سِواه في الورَى

قال صاحب الحديث: فخرج أولاد عبد المطلب، وأخذوا في أُهبة السفر، وإصلاح شأنهم، فالتفتت خديجة إلى النبي وقالت: سيدي ما عندك ثياب غير هذه الثياب، فإنها لا تصلح للسفر؟ فقال: ما عند محمد إلا ما عليه. قال: فبكت خديجة وقالت: يعز عليّ ذلك يا سيدي. عندي ثياب للسفر، غير أنهن طوال فتمهل حتى أُقصرهن عليك. فقال: هلمّي إليّ بها ولا تتعبي فيها. وكان النبي إذا لبس الثوب القصير يطول، وإذا لبس الثوب الطويل يقصر، كأنه

قد فصل عليه. قال: فأخرجت له خديجة ثوبين من قباطي مصر، وجبّة عدنية وبردة يمانية، وعمامة شريت من العراق بحاشيتين من حرير وخفين من الأديم[1] وقضيب خيزران. فلبس النبي ﷺ الثياب، وخرج كأنه البدر إذا تجلى من الغمام. قال: فلما نظرت خديجة جعلت تنشد هذه الأبيات وتقول:

أُعطيتَ من شرفِ الجِنان فُنونا ... ولقدْ فتِنَتْ بهِ القلوبُ فُتونا
قد كونْتَ للحسنِ فيكَ جواهراً ... فيَها دُعِيتَ الجوهَر المكْنونا
يا مَنْ أعارَ الظبي في فلواتِه ... بالحسنِ جيداً سامِياً وجُفونا
انظرْ إلى الجسمِ النحيلِ وكيْف قدْ ... أجريْتَ من دمْعِ العيونِ عُيونا
أسهرْتَ عيني في هواك صبابةً ... وملأْتَ قلْبي لوعةً وجُنونا

ثم إنها قالت: يا سيدي عندك ما تركب عليه؟ فقال: إذا تعبت، أيّ جمل لحقته ركبت عليه. قالت: فما الذي يحملني على تعبك؟ لا كانت الأموال دونك يا محمد يا قرة العين. ثم قالت لعبدها ميسرة: ائتني بناقتي الصهباء حتى يركبها حبيبي محمد. فعندها غاب ميسرة ساعة، وأقبل بها وهي تفوق على الوصف، وتسبق الطرف، هيفاء ضامرة تستبشر بالفلا، وتقنع بالقليل من الكلأ، لم يلحقها في سيرها تعب، ولا في جريها نصب[2]، كأنها قبة منصوبة أو خيمة مضروبة، مليحة الرأس والقوائم والذنب، وهي كما قال الشاعر (**أفلح من يصلي على الرسول وآله**):

منْ كلِّ مهتَّكَةِ السّنامِ كأنّها ... نسرٌ تطيرُ إذا شددْتَ وثاقَها
تطْوي الفيافي والفلا في سيْرِها ... طوراً وتنفخُ في الثرى أشداقَها
فالبرقُ يحسدُها لشدّةِ سيرِها ... والريحُ حقاً لا تُطيقُ لحَاقَها

قال: ثم إنها التفتت إلى عبديها ميسرة وناصح وقالت لهما: اعلما بأني قد جعلت محمداً أميناً على أموالي، ولا لأحد عليه يد، وهو الأمين والأمير وصاحب المال، وأنتم عبيده. وإن أمركما بالبيع فبيعا، وإن منعكما فامتنعا، وليكن كلامكما له بلطف وأدب، ولا يعلُ كلامكما على كلامه. فقالا: والله يا

---

(١) الأديم: الجلد.

(٢) النصب: شدة التعب.

سيدتنا إن لمحمد في قلوبنا محبة عظيمة، والآن قد تضاعفت لمحبتك له. قال: ثم إن النبي ﷺ ودع خديجة وركب ناقته، وخرج ميسرة وناصح بين يديه، وعين الله ناظرة إليه، فعند ذلك تمثلت خديجة وجعلت تقول:

قلبُ المحبِّ إلى المحبوبِ مجذوبُ ... وجسمُـه بيـدِ الأسقـامِ منْهـوب
وقائلٍ كيفَ طعمُ الحبِّ قلتُ لهم ... الحـبُ عـذبٌ ولكـن فيـه تعْـذيـب
أفْدي الـذيـنَ على خـدِّي لبُعْـدِهـم ... دَمَـي ودمْعـي مسفـوحٌ ومسْكـوب
ما في الخيام وقد سارَتْ جمالُهم ... إلا محبٌ لـه فـي الـركْبِ محبوب
كـأنمـا يـوسُـفُ فـي كـلِّ راحلـةٍ ... والحزنُ في كل بيتٍ فيه يعقوب

قال: ثم إن النبي ﷺ قام من وقته وساعته، يجدّ السير إلى أن وصل إلى الأبطح، فرأى الناس مجتمعين ولقدومه منتظرين، فلما نظروا إلى جمال سيد المرسلين، وقد فاق على الخلق أجمعين، فرح المحبون واغتمّ الحاسدون، وزادت عقيدة من سبقت له السعادة من المؤمنين، وظهر الحسد والكمد[1] ممن سبقت له الشقاوة من المكذبين. فلما نظر العباس إليه وإلى ذلك الجمال، جعل يتمثل بهذين البيتين، **(أفلح من يصلي على الرسول وآله)**:

يا مخجلَ الشمسِ والبدرِ المنيرِ إذا ... تبسَّـم الثغـرُ لمَـعَ البـرقُ منـهُ أضـا
كم معجزاتٍ رأينا منك قد ظهرَتْ ... يـا سيـداً ذكـرُه تشفـى بـه المـرضـى

قال: فنظر النبي إلى أموال خديجة على الأرض، ولم يحمل منها شيء، فزعق على العبيد وقال لهم: ما الذي أخّركم عن شد رحالكم؟ قالوا: يا سيدنا لقلة عددنا وكثرة أموالنا. قال الراوي: فأبرك النبي راحلته، ونزل وشد أذياله بمنطقته، وصار يزعق بالبعير، فيقوم بإذن الله تعالى. فتعجب الناس من فعله، فنظر العباس إلى النبي ﷺ وقد احمرت وجنتاه من العرق، وقد تكلل جبينه كاللؤلؤ الرطب، فقال: كيف أُخلي هذا الوجه المنير بحر الشمس؟ ثم عمد إلى خشبة واتخذ منها جحفة يظلل بها محمداً ﷺ من حر الشمس، فارتجت الأقطار وتجلى الملك الجبار، وأمر الأمين جبرئيل أن يهبط إلى رضوان خازن

---

(١) الكمد: الحزن الشديد.

الجنان ويقول له: أخرج الغمامة التي خلقتها لمحمد قبل أن أخلق آدم بألفي عام وانشرها. فأخذها جبرئيل وهبط بها إلى محمد ﷺ، قال: فلما رأوها وعاينوها شخصت نحوها الأبصار، فقال العباس: والله إن لمحمد حرمة عظيمة عند ربه، ولقد استغنى عن جحفتي! ثم إنه جعل يقول:

وقفَ الهوى بي حيثُ كنتُ فليسَ لي
متقدمٌ عنكمُ ولا متأخّر

قال: ثم سار القومُ حتى وصلوا جحفة الوداع، فحطوا رحالهم حق لحق بهم المتأخرون، فقالت مطعم بن عدي: يا قوم إنكم سائرون إلى مهمهة وأوعار، ولا بد لكم من رجل مقدم عليكم، تستشيرونه وترجعون إلى رأيه وأمره عن المنازعة والمخالفة. فقالوا: نعم ما أشرت به علينا! فقالت بنو مخزوم: نحن نقدم علينا أميرنا مطعم بن عدي. وقالت بنو نضير: نحن نقدم علينا النذير بن الحارث. وقالت بنو زهرة: نحن نقدم علينا تيم بن الحجاج. وقالت بنو لؤي: نحن نقدم علينا أبا سفيان بن صخر. فقال ميسرة: والله ما يتقدم علينا إلا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم! فقال أبو جهل: لئن قدمتم محمداً لأضعن هذا السيف في بطني وأُخرجه من ظهري! قال: فقبض الحمزة على سيفه وقال: يا وغد الرجال ونذل الفعال! لئن لم تمسك عن كلامك، وإلا لآخذن ما بين كتفيك! فقال النبي: دعه يا عم وأغمد سيفك، ولا تستفتح السفر بالشر. دعهم يسيرون أول النهار، ونحن نسير آخره فسار أبو جهل بمن يلوذ به، واغتنم الفرصة وجعل يقول:

لقدْ ضلَّتْ حلومُ بني قُصَيّ ... وقدْ عزَموا بتسْويدِ اليتيم
ورامُوا للرياسةِ غيرَ كُفْءٍ ... وكيفَ يكونُ ذا الأمرُ العظيم
وإني فيهُمُ ليثٌ حمِيّ ... بمصقولٍ ولي جدّكم كريم
فلوْ قصدوا عبيداً ثم ضيغم ... وصخرَ الحرْبِ ذا الشرف القديم
لكنّا راضين بهم وكنّا ... لهم تبعاً بلا خلفٍ ذميم
ونضربُ دونهم مجرَّدات ... غداةَ الحربِ بالرمْحِ القويم

قال: فلما سمع العباس كلام أبي جهل أنشأ يقول:

يـا أيُهـا الـوغـدُ الـذي رامَ ثَلْبنـا ... أتثلبُ قوماً في الرجالِ قديم[1]
أتثلبُ يـا ويلك الكريـمَ أخَ التقى ... حبيـبَ إلـه العـالميـنَ عظيـم
فلـولا رجـالٌ قـد عـرفْنـا محلَّهـم ... وهـمْ عنـدَنـا فـي محتـدٍ وقـديـم
لـدارَتْ سيـوفٌ تفلـقُ الهـامَ حـدّهـا ... بـأيـدي رجـالٍ كـالليـوثِ تقيـم
حُمـاة كُمـاة كـالليـوثِ ضـراغِـم ... إذا بـرزوا كـلاّ تـراه زعيـم[2]

قال: ثم إن القوم ساروا إلى أن بعدوا عن مكة، فنزلوا بوادٍ يقال له وادي المَبَاه، وكان مجمع السيل وأنهار الشام، فنزل القوم وحطوا رحالهم، وأخذوا راحتهم، وإذا هم بالسحاب قد أقبل، فقال النبي ﷺ: إني أخشى على أهل هذا الوادي أن يدهمهم الغيم، فيذهب بأموالهم، والرأي عندي أن نستند إلى الجبل مخافة السيل. فقال العباس: نعمَ ما أشرت به علينا! ففعلوا ذلك إلا رجلاً من بني جمح يقال له بن عدي، وكان له مال كثير، فأبى أن يتغير عن مكانه وقال: يا قوم ما أضعف قلوبكم! تنهزمون من شيء لم تعاينوه؟ قال: فما استتم كلامه إلا وقد ترادف السحاب، ونزل الغيث وتكاثر المطر، وسال السيل وامتلأ الوادي من الجانب إلى الجانب، وأصبح ذلك الجمحي كأن لم يكن شيئاً وأمواله. قال: وأقام القوم في ذلك الوادي أربعة أيام، والسيل يزداد ولا ينقطع، فقال أبو جهل: لقد أضر بنا المقام، ويكاد يفرغ الزاد الذي عندنا، والسيل لا ينقطع، بل يزداد. والرأي عندي أن نرجع إلى مكة. فلم يلتفت إليه النبي ولا إلى قوله. ثم نام فرأى في منامه ملكاً يقول: يا محمد لا تخف ولا تحزن، فإذا كان غداة غد، تأمر قومك بالرحيل، وتقف على شفير الوادي، فإذا رأيت الطير الأبيض قد خط بجناحه خطاً، فاتبع الخط وأنت تقول: بسم الله وبالله. وأمر قومك أن يقولوا هذه الكلمة، فمن قالها نجى ومن تخلف عنها غرق.

قال: فاستيقظ النبي ﷺ فرحاً مسروراً، ثم أمر ميسرة أن ينادي بالناس

---

(١) تثلب: تعيب. والقرم: سيد القوم.
(٢) زعيم: مدَّعٍ.

بالرحيل، وشد ميسرة رحاله فقال الناس: يا ميسرة كيف نسير، وهذا الماء لا تقطعه إلا السفن لشدة جريانه؟ فقال ميسرة: أما أنا فقد أمرني محمد وأنا لا أُخالفه! فقال القوم: ونحن أيضاً لا نخالفه. قال: فبادر جميع القوم طائعين، ولأمره ممتثلين، فتقدم النبي ووقف هو والقوم على شفير الوادي، وإذا بالطير الأبيض قد أقبل من دورة الجبل، وخط بجناحه خطاً أبيض مثل النور يلمع، فاتبع الخط وهو يقول بسم الله وبالله، فلم يصل الماء إلى نصف ساقه، فنادى وقال: أيها الناس! لا يدخل أحد منكم الماء حتى يقول بسم الله وبالله، فمن قالها سلم وغنم، ومن حاد عنها غرق وهجم. قال فاقتحم الناس الماء وهم يقولون بسم الله وبالله وكان قد تخلف منهم رجلان، واحد من بني جمح والآخر من بني عدي، فقال العدوي: بسم الله والله وقال الجمحي: بسم اللات والعزى والهبل الأعلى؛ فسلم العدوي هو وأمواله، وغرق الجمحي هو وأمواله. فقال القوم للعدوي: وأين صاحبك أغرق؟ فقال: عوج لسانه وخالف محمداً وغرق. فاغتم أبو جهل وقومه لذلك غماً شديداً وقالوا: ما هذا إلا سحر عظيم قد أحكمه هذا اليتيم! فقال له بعض أصحابه: ما هذا سحر يابن هشام! والله ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء بأفضل من محمد المصطفى! فلم يرد عليهم جواباً.

قال: وسار القوم فرحين مسرورين، فبينما هم سائرون إذ وقف بكران من خيار الإبل، فلم يطيقا النهوض، فخاف ميسرة فجعل يسير حتى لحق بالنبي، فناداه: يا أبا القاسم إنه قد وقف عليَّ بكران من الإبل! قال: فرجع النبي حتى وقف عليهما، فوضع يده على أخفافهما وصاح عليهما، فنهضا يعدوان. فتعجب القوم من ذلك فقال أبو جهل: لقد تعاظم سحر هذا اليتيم، فهل لنا أن نوقعه في شيء، نهلكه فيه ونستريح منه؟ قالوا: وما عزمت عليه؟ قال: عزمت على أن أمضي إليه، وأُخبره بخبر هذا الفحل الذي في هذا الوادي ـ يقال له لحي جمل ـ فإن فيه فحلاً من الإبل عظيم الخلقة، لا يرى شيئاً إلا أهلكه! فأُخبره بمكانه فلعله يداخله فيه الطمع، فيمضي إليه وحده، فإذا دخل الوادي وحده، أهلكه واسترحنا منه.

قال الراوي: وكان ذلك الوادي عند العرب، وكانت القوافل إذا بلغت ذلك الوادي، جردوا سبوفهم وأخذوا حذرهم، ولا يخرجون من ذلك الوادي إلا بعد الأياس! فقال أبو جهل: أنا ذاهب إلى محمد فأقبل يحادثه ويقول: ذهب عنا كل خوف وحزن، فما بقي علينا شيء نخافه إلا شيء واحد! فقال النبي ﷺ: وما ذلك يابن هشام؟ قال أبو جهل: إن بين أيدينا وادياً كثير الدغل والوعر والوحل، يقال له لحي جمل، فيه فحل من الإبل، لا يمر به جمع إلا قتله! فلو أنك تتقدم أمامنا فلعلك تكفينا شره، وتكون لك علينا يد كبيرة. فقال النبي: وأين يكون ذلك الوادي؟ قال: هو أمامك. قال: فسر معي حتى تعلمني به. فجعل أبو جهل يسير حتى قرب من الوادي، فقال النبي: هذا الوادي. قال: نعم. فحرك النبي زمام ناقته وسار حتى اقتحم الوادي، ففرح أبو جهل وقال لقومه: يا بني مخزوم إن محمداً قد اقتحم الوادي، فوحق اللات والعزى والهبل الأعلى، لا يخرج أبداً ولا رأيتموه!.

قال ناقل الحديث: فسار النبي ﷺ، فلما أحسّ به الفحل، خرج إليه من الشجر، وهو يهدر ويزمجر ويزبد ويرعد ويشخر وينخر[1]، وقد احمرت عيناه وهو رافع ذيله، وقد بدت أنيابه كأنها أسنة الرماح! فلما رآه النبي قد أقبل، انحدر عن ناقته وتركها، ووقف إلى جانبه. فلما رآه الفحل وقف في موضعه، ورفع رأسه إليه ونطق بلسان فصيح وقال: السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا سيد المرسلين السلام عليك يا شفيع المذنبين، السلام عليك يا خيرة الله من الخلق أجمعين، من الأولين والآخرين! فقال النبي: اسكن أيها الفحل فلا بأس عليك! ثم دنا منه ومد يده على رأسه وعنقه وسنامه، فجعل يقبل النبي فصار كالكلب الأليف، فركبه النبي وجذب ناقته من ورائه، وحثّها وانتهى راجعاً إلى قومه، وهم يسيرون حتى أشرفوا على الوادي. فصاح بعضهم ببعض: يا قوم خذوا حذركم وجردوا سيوفكم! ثم إن ميسرة فقد النبي فلم يره، فظن أنه عند عمه العباس، فأقبل ميسرة على العباس وقال له: أين ابن أخيك فإني لم أره، ولا أدري أين هو وأين مضى؟ فقال العباس: إن

---

(١) نخر: مدّ الصوت والنفس في خياشيمه.

سفهاء مكة قد اغتالوه! فسار في طلبه وقال: معاشر الناس أيكم رأى ابن أخي محمد؟ فقال أبو جهل، وهو كالمتشمت: إنه قد سبقنا إلى هذا الوادي. وإذا بالنبي ﷺ قد أقبل راكباً على الفحل، فلما رآه العباس قال: يا قوم إن الفحل الذي كنتم تخافونه قد أتى ومحمد راكب عليه! ففرحت بنو هاشم فرحاً شديداً، فقال أبو جهل: ما الخبر؟ قالوا: يا بن هشام! هذا محمد راكب على الفحل بجنب ناقته! فقال أبو جهل: إن هذا لسحر عظيم! فسمعه حمزة فغضب غضباً شديداً وقال: يا أبا جهل يا خبيث! ما أكثر عداوتك لابن أخي محمد! أتزعم أنه ساحر؟ تقول سحر الماء حتى عبرنا عليه وعبرت ناقته؟ فوحقّ هاشم وعبد المطلب، لولا ما بيننا وبينك من المصاهرة لعلوتك بهذا السيف! ثم رفع السيف ليعلو به أبا جهل قال: فوثب العباس وأخذ السيف منه، وزبر[1] أبا جهل وانتهره، فغضبت بنو مخزوم، وكادت الفتنة تثور بينهم. فأقبل النبي ﷺ ونزل عن الفحل وقال: أيها الفحل عد إلى مكانك وإلى أهلك. فعاد الفحل راجعاً وله رغاء شديد، حتى غاب عن أعين الناس فتعجبت قريش من ذلك.

وساروا حتى نزلوا على بئر كان في الطريق، وكانت العرب تنزل عليه في طريق الشام، فحطوا رحالهم وسقوا دوابهم، وأخذوا راحتهم. فقال أبو جهل: يا قوم إني أجد في نفسي غبناً عظيماً، إن رجع محمد من سفره هذا سالماً ليعلو أمره. ولقد عزمت على قتله ولكن كيف الحيلة فيه، وهو ينظر من ورائه، كما ينظر من أمامه؟ وسوف أفعل وترونه ثم ملأ حجره رملاً وحجارة، وجاء إلى البئر ورماه فيه. فقال له أصحابه: لم تفعل يابن هشام؟ قال: أُريد أن أدفن هذا البئر، حتى إذا جاء ركب بني هاشم يقدمهم محمد، فلم يجدوا ماءً فيموتوا عطشاً عن آخرهم. فتبادر قومه بالرمل والحصى، لم يتركوا للبئر أثراً. فقال أبو جهل: الآن اشتفى قلبي وبلغت مرادي! ثم التفت إلى عبد له اسمه فلاح وقال: خذ معك القربة والزاد، وأخفِ نفسك في هذا الجبل، فإذا أقبل ركب بني هاشم يقدمهم محمد، فلم يجدوا للبئر أثراً، ثم هلكوا من العطش وماتوا عن آخرهم، فأقبل إليّ مسرعاً وبشرني. فإذا بشرتني بهذه البشارة، عتقتك وزوجتك بمن

(١) زبره: انتهره وزجره بعنف.

تريد! فقال: حباً وكرامة. ثم سار أبو جهل في أول الركب، وتأخر العبد كما أمره مولاه، وإذا بركب بني هاشم قد أقبلوا يقدمهم النبي، قال: فبادروا إلى البئر، فلم يجدوا له أثراً، وقد ازورّت منهم الحدق، وجرى منهم العرق، وأيقنوا بالهلاك، فشكوا ذلك للنبي ﷺ فقال: هل يوجد موضع يعرف بالماء؟ قالوا: نعم. بئر وقد ردم بالرمل والحصى. قال: فمشى النبي ﷺ حتى وقف على شفير البئر، ورفع طرفه إلى السماء ونادى: يا عظيم الأسماء، ويا باسط الأرض على الماء، ويا رافع السماء، يا ربّ قد أضر بنا الظمأ فاسقنا الماء برحمتك يا أرحم الراحمين! قال: فما استتم كلامه إلا والحجارة قد تصلصلت، وعين الماء قد نبعت وتفجرت، وجرى الماء من تحت قدميه، فسقى القوم دوابهم وملأوا قربهم، وأخذوا راحتهم. فسار العبد ولحق مولاه وقال: ما وراءك يا فلاح؟ فقال: والله ما أفلح من عادى محمداً! وحدثه بما عاين، فامتلأ أبو جهل غيظاً وحنقاً، ثم قال للعبد: غيِّب عن وجهي فلا أفلحت أبداً!.

ثم ساروا حتى نزلوا وادياً من أودية الشام، يقال له رشان، وكان كثير الأشجار، إذ خرج عليهم منه ثعبان عظيم، كأنه النخلة السحوق، ففتح فاه وعينيه، وزفر حتى خرج من عينيه الشرار، فجفلت منه ناقة أبي جهل، ولعبت بيديها ورجليها، ورمت أبا جهل من عليها، وكسرت أضلاعه وغشي عليه، فلما أفاق من غشوته قال لعبيده: تنحوا عن الطريق، فإذا جاء ركب بني هاشم يقدمهم محمد، فترى ناقته الثعبان، فعسى أن ترميه إلى الأرض فيموت ولا يعيش أبداً! ففعلوا ما أمرهم به سيدهم أبو جهل، وتنحوا عن الطريق، وإذا بركب بني هاشم قد أقبل يقدمهم محمد ﷺ، فنظر النبي إلى أبي جهل وقومه، قد تنحوا عن الطريق فقال: يابن هشام أراكم قد نزلتم في وقت ما هو وقت نزول؟ فقال أبو جهل: يا محمد والله إني استحيت أن أتقدم عليك، وأنت سيد أهل الصفا، وأعلاهم حسباً ونسباً! فتقدم فلعن الله من يتقدم عليك! ففرح العباس وأراد أن يتقدم فقال له النبي: قف يا عم! دعني أتقدم أنا فما قدموني سؤدداً، وإنما هي مكيدة! قال: فتقدم النبي أمامه ودخل ذلك الشعب، وإذا بالثعبان قد ظهر كأول مرة، فجفلت منه ناقة النبي وقال لها: ويحك كيف

تخافين وقد ركبك سيد المرسلين وخاتم النبيين! ثم التفت إلى الثعبان وقال له: ارجع من حيث أتيت، ولا تتعرض لأحد من الركبان، فإني محمد رسول الله وإلا شكوتك إلى إله السماء! فنطق الثعبان بقدرة الله تعالى وقال: السلام عليك يا محمد يا سيدي! فقال النبي: السلام على من اتبع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى! فقال الثعبان: يا محمد ما أنا من هوام الأرض، وإنما أنا ملك من ملوك الجن، واسمي الهام بن الهيم، آمنت على يد أبيك إبراهيم الخليل، وسألته الشفاعة فقال: هي لولد يظهر من نسلي، يقال له محمد بن عبد الله، ووعدني أن أجتمع أنا وأنت في هذا المكان، ولقد طال بي الانتظار، ولقد شاهدت عيسى بن مريم في الليلة التي عرج به فيها إلى السماء، وهو يوصي الحواريين باتباعك، والدخول في ملّتك! والآن قد جمع الله شملي بك، فلا تنسني من الشفاعة يا مولاي! فقال النبي: لك ذلك مني، فعد من حيث أتيت إلى موضعك، ولا تتعرض لأحد من الركب! قال: فعاد الثعبان من حيث أتى. فلما نظر القوم إلى خطاب الثعبان مع محمد ﷺ، تعجبوا من ذلك؛ فمنهم من ازداد يقيناً، ومنهم من ازداد غيظاً وحنقاً، وفرح أعمام النبيّ وافتخرت بنو هاشم. ثم إن العباس بعد ذلك أنشأ يقول:

يا قاصداً نحوَ الحطيمِ وزمْزمِ ... بلِّغْ فضائلَ أحمدَ المتكرِّمِ
واشرحْ لهم ما عاينَتْ عيناك منْ ... فضلٍ لأحمدَ والسحابِ المُرْكَمِ
قدْ بانَتِ الآياتُ في السيْلِ الذي ... ملأ الفجاجَ سيلُه المتراكِمِ
ونجَى الذي لم يُخْطِ قولَ محمدٍ ... وهوى المخالفُ وسْطَ قعرِ جهنَّمِ
والبيرُ لمّا أنْ أضرّ بنا الظَّما ... فدعى الحبيبُ إلى الإلهِ المنْعِمِ
فاضَتْ عيونٌ ثم سالَتْ أنهُرٌ ... وغدا الحسودُ بحسْرَةٍ وتَغمغُمِ[1]
والهام ابنُ الهيمِ لما أنْ رأى ... خيرَ البريةِ جاءَ كالمستَسْلِمِ
ناداهُ أحمدُ فاستجابَ ملبّياً ... وشكا المحبَّة كالكئيبِ المغْرَمِ
منْ عهدِ إبراهيمَ ضلَّ مكانَهُ ... يرجو الشفاعةَ خوفَ نارِ جهنَّمِ
منْ ذا يُقاسُ بأحمدَ بالفضْلِ مِنْ ... كلِّ البريةِ من فصيحٍ وأعجَمِ

(١) التغمغم: أن لا يبيِّن الرجل كلامه.

وبـه تـوسَّـلَ فـي الخطيَّـةِ آدمٌ فلْيعلـمِ الأخبـارَ مَـنْ لا يعْلـمِ

فلما فرغ العباس من شعره، أجابه الزبير ينشد ويقول:

يـا للَـرجـالِ ذوي البصـائـر والنظـر قوموا انظروا أمراً مهولاً قد خطرْ
هـذا بيـانٌ صـادقٌ فـي عصـرِنـا مـنْ سيِّـدٍ عـالـي المـراتـبِ مفتَخَـر
آيـاتُـه قـدْ أعجـزَتْ كـلَّ الـورَى هيهـاتِ يُحصَـى عـدُّهـا أو يُختَصَـرْ
منهـا الغمـامُ تظلِّلُـه مهمـا مَشـى فمتـى يسيـرُ تظلِّلـه وإذا حضـرْ
وكـذلـك الـوادي أتـى متـرادِفـاً بـالسيـلِ يسحـبُ للـرمـالِ وللحجَـرْ
فنجَـى الـذي قـدْ طـاع قـولَ محمـدٍ وهوى المخالِفُ مستقِرّاً في سقرْ
والبيـرُ فـاضـتْ بـالميـاهِ وأقبلَـتْ تجري على وجهِ الثّرى مثلَ النهرْ
والهـامُ فيـهِ عبـارةٌ ودلالـةٌ لـذوي العقـولِ وذوي الفِكَـرْ
كـادَ الحسـودُ يـذوبُ لمّـا عـاينَـتْ عينـاهُ مـن فضـلٍ لأحمـدَ قـدْ ظهـر
يـا لَلـرجـال ألا انْظـروا أنـوارَهُ تعلـو علـى نـورِ الغـزالـةِ والقمرْ[1]
اللهُ فضَّـلَ أحمـدَ واختـارَهُ ولقـدْ أذلَّ عـدوَّه ثـمَّ احتقـر

فلما فرغ من شعره أجابه الحمزة بن عبد المطلب:

مـا نـالـتِ الحُسَّـادُ منـكَ مُـرادَهـم طلبـوا نُقـوصَ الحـالِ فيـكَ فـزادا
كادوا وما خافوا عواقبَ كيْدِهم والكيـدُ مـرجعُـه علـى مَـنْ كـادا
مـا كـلُ مَـنْ طلـبَ السعـادةَ نـالهـا بمكيـدةٍ أو أنْ يـرومَ عِنـادا
يـا حـاسـديـنَ تمزَّقـوا فـي غَيْظِكـم حسَـداً يُقَطِّـعُ منكُـمُ الأكبـادا
فـاللهُ فضَّـل أحمـدَ واختـارَهُ وبِمكّـةَ جمـعَ الـوَرى وبِـلادا
وليمـلأنَّ الأرضَ مـن إيمـانـه وليهـديـنَّ عـنْ الغِـوَا مَـنْ حـادا

قال صاحب الحديث: فشكرهم النبي على كلامهم، وساروا حتى نزلوا بوادٍ، كانت العرب تتعاهده للنزول، وكان معدن السيل، فنزلوا فيه فلم يجدوا للماء فيه أثراً، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ؛ فقام وشمَّر عن ذراعيه، وغمس كفَّيه المباركتين في الرمل، ورمق بطرفه إلى السماء، وهو يحرك شفتيه، فنبع

---

(١) الغزالة: الشمس.

الماء من بين يديه وأصابعه، وجرى الماء على وجه الأرض أنهاراً. فقال العباس: أمسك يابن أخي فقد كاد الماء أن يغرق رحالنا! ثم إنهم شربوا وسقوا دوابهم وخيولهم، وأخذوا راحتهم. فقال النبي لعمه العباس: يا عم هل معك شيء من التمر؟ فقال: نعم يابن أخي. ثم أتاه بقليل من التمر، فأكل. وكان يأكل التمر ويبل النوى بريقه، ثم يغمسه في الأرض. فقال له العباس: لم تصنع ذلك؟ قال: يا عم إني أغرسها نخلاً. فقال العباس: يابن أخي فمتى تطعم؟ فقال النبي ﷺ: الساعة تأكل منها، وتتزود منها إن شاء الله! فقال العباس: يابن أخي إن النخلة إذا غرست وأسرعت، ما تثمر إلا بعد خمس سنين! فقال النبي: الساعة ترون آية من آيات ربي الكبرى! ثم إنهم ساروا حتى تباعدوا عن الوادي، فالتفت النبي ﷺ إلى العباس وقال: يا عم إرجع إلى موضع النخلات، واجمع لنا ما نأكل، فإنها قد كبرت وانتشرت وأثمرت! فرجع العباس، فوجد النخلات قد كبرت، وتمايلت أغصانها وأزهرت، فأوقر ناقته منها، ولحق بالنبي، وصار يأكل من الرطب ويطعم القوم، فصاروا متعجبين من ذلك، فقال أبو جهل: يا قوم لا تأكلوا مما صنعه هذا الساحر! فعند ذلك أجابه قومه وقالوا: يابن هشام أقصر عن الكلام، فما هذا ساحر! فعندها سكت ولم يرد جواباً.

ثم ساروا حتى وصلوا عقبة وائلة، وكان فيها دير وهو مملوء رهباناً، وكان فيهم راهب يعملون برأيه، ويرجعون إلى قوله، واسمه الفيلق بن اليونان بن عبد الصليب، وكان يكنى بأبي بحيرة الراهب، وكان قد قرأ كتب الأنبياء، وعنده سفر فيه صفات النبي ﷺ، من عهد عيسى بن مريم. وكان إذا قرأ الإنجيل على الرهبان ووصل إلى صفات النبي، لا يزال يبكي ويقول: يا أولادي متى تبشرونني بقدوم البشير النذير، والسراج المنير، المبعوث من تهامة، المتوّج بالكرامة، المظلَّل بالغمامة، الشفيع للعصاة في يوم القيامة! ثم يبكي. ودام على ذلك زماناً طويلاً وهو على هذا الحال، فقال له أولاده والرهبان: يا أبانا إنك قد قتلت نفسك، بالبكاء على الذي تذكره. فعسى أن يكون قرب أوانه! فقال: إي والله! لقد ظهرت بالبيت الحرام، ودينه عند الله

الإسلام، فما يبشرني بقدومه إلا أسفار تأتي من أرض الحجاز، تظلله الغمامة. وكان الراهب قد ابيضت عيناه من البكاء والنحيب، ثم أنشأ يقول:

لئنْ نظرَتْ عَيْني جمالَ أحِبَّتي ... وهبتُ بشيرَ الوصْلِ ما ملكَتْ يدي
وملَّكْتهُ روحي ومالي وغيرَها ... وهذا قليلٌ في محبّةِ أحمدِ
سألْتُ إلهي أنْ يمنّ بقربهِ ... ويجمعَ شمْلي بالنبيِّ محمَّدِ

قال صاحب الحديث: وما زال الراهب كلما ذكر الحبيب أكثر النحيب، وكثر منه البكاء إلى أن خلا منه النظر، وزاده الفكر. فعند ذلك أشرف بعض الرهبان، فرأى الركب قد أقبل من الفلاة، وقد أشرقت الأنوار من جبين النبي المختار، وقد تلألأت منه الأقطار، فنظر إلى النور قد أشرق وعلا، يقدمهم نور محمد ﷺ سيد الأُمم، وقد نشرت على رأسه الغمامة فقالوا: يا أبانا هذا ركب من الحجاز، قد أقبل! فقال: يا أولادي وكم ركب قد أتى وأنا أُعلّل نفسي ومهجتي! فلعل وعسى أن أحظى به! فقالوا: يا أبانا نرى نوراً قد علا! فقال لهم: رأيتم النور الذي في القافلة؟ قالوا: نعم. قال: الآن ذهب الشقاء وزال العناء! ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي، بحق هذا المحبوب الذي زاد فيه تفكري، إلا ما رددت عليّ بصري! قال: فما استتم كلامه ودعاءه حتى أجابه الله ورد عليه بصره! فقال الراهب للرهبان: كيف رأيتم النور نور المحبوب، عند القريب المجيب، علام الغيوب؟ ثم إنه أنشأ وجعل يقول:

بدا النورُ من وجهِ الحبيبِ فأشْرقا
وأحيا محيّاً بالصبابةِ موثَقا
وأبرى عيوناً قد عَمِينَ من البُكاءِ
وأصبحَ منْ رِقِّ الضلالةِ مُعْتَقا
فهلْ أن ترى عيناي غرَّةَ وجهِه
وأُصبحَ منْ سوءِ المكارِهِ مُطْلَقا

قال: ثم إنه صاح بأولاده وقال لهم: يا أولادي إن كان هذا النبي

المنعوت في الكتب، والمبعوث في هذا الزمان، في هذا الركب، فإنه ينزل تحت هذه الشجرة اليابسة؛ فإذا نزل تحتها فإنها تخضر وتثمر، متى يجلس تحتها. وقد جلس تحتها عدة من الأنبياء، وإنها من عهد عيسى بن مريم، يابسة لم تخضر. وهذه البئر لها عدة سنين، لم يكن فيها ماء، فإنه قد يأتي إليه ويشرب منه. قال: فما كان إلا ساعة، وإذا بالركب قد أقبل، ونزلوا حول البئر، وحطوا الأحمال عن الجمال، وكان النبي يحب الخلوة بنفسه، فأقبل حتى نزل تحت الشجرة، فاخضرت وأثمرت من وقتها وساعتها، فلما استقر بهم الجلوس، قام النبي ومشى إلى البئر، ونظر إليها واستحسن عمارتها، وتفل فيها فتفجرت منها عيون، ونبع منها ماء معين[1]. قال: فلما رأى الراهب ذلك قال: يا أولادي هذا هو المطلوب! بادروا إلى صنع الولائم من الطعام لتتشرفوا بسيّد الأنام، محمد وآله الكرام، فإنه سيد بني عدنان، لنأخذ منه الذمة لسائر الرهبان! قال: فبادر القوم لأمره طائعين، ولكلامه سامعين، وصنعوا الولائم الفاخرة، التي لا تصلح إلا للملوك والأكاسرة، فعندها قال الراهب لكبير الرهبان: انزلوا إلى أمير هذا الركب والمقدم عليهم، وقولوا له: إن أبانا يقرئك السلام ويقول لك: قد صنع لك وليمة ويسألك أن تحضرها، وتجيب دعوته وتأكل من وليمته. قال: فنزل بعض الرهبان، فما رأى أحسن من أبي جهل تجملاً، ولم ير النبي لأنه كان تحت الشجرة. فأخبر أبا جهل بمقالة الراهب، فنادى في العرب: إن هذا الراهب قد صنع وليمة لأجلي، فأُريد أن تجيبوا عزيمته وتأكلوا وليمته! فقال القوم: ومن نترك عند أموالنا ومتاعنا؟ فقال أبو جهل: والله ما فينا آمن من محمد، فسيروا إليه واسألوه أن يحفظ لكم متاعكم، فإنه الصادق الأمين. وفيه قال الشاعر:

ومناقبٌ شهدَ العدوُ بفضْلِها والفضلُ ما تشهَد بهِ الأعداءُ

فساروا إلى النبي وسألوه أن يجلس عند متاعهم، فرضي بذلك. وساروا وأمامهم أبو جهل بن هشام، وقد أُعجب بنفسه، فلما دخلوا الدير أحضر الراهب لهم الطعام، وناداهم بالرحب والإكرام، فأخذوا في الأكل والشرب،

---

(١) المعين: الظاهر الذي تراه العين جارياً على وجه الأرض.

فأخذ الراهب السفر[1] في يده، وجعل ينظر فيه ويدور عليهم، رجلاً بعد رجل، فلم يجد فيهم صفات النبي! قال: فرمى القلنسوة عن رأسه ونادى: واخيبتاه واطول تعباه. ثم إنه بعد ذلك جعل يقول:

يا أهلَ نجدٍ تقضَّى العمرُ بالأسَفِ منكُم وقلْبي لم يبلُغْ أمانِيهِ
يا ضيْعةَ العمرِ لا وَصْلَ أفوزُ بهِ منْ قربِكُم ولا مِن وغدٍ أُرَجِّيهِ

قال الراوي: فعندها قال الراهب: يا سادات العرب، هل بقي أحد منكم لم يحضر وليمتي؟ قال أبو جهل: ورب الكعبة ما تخلف منا إلا صبي صغير السن، أجير لبعض نساء أهل مكة، يرعى الجمال! قال الناقل: فما أتم كلامه إلا وهمّ به الحمزة، وضربه على وجهه ضربة ألقاه على وجه الأرض وقال: يا وغد الرجال ويا شين الفعال، ويا بادي الجهل ويا ضعيف العقل! هذا عوض ما قلت من الكلام. لم لا قلت: تأخر منا البشير النذير، والسراج المنير، وما تركناه عند متاعِنا إلا لأجل أمانته وصيانته، وما فينا أحد مثله! ثم التفت الحمزة إلى الراهب وقال له: أرني هذا السفر، وأخبرني بما فيه من صفات النبي. فقال الراهب: يا سيدي إن هذا السفر فيه صفات النبي. قال: وما صفاته؟ قال: لا بالطويل الشاهق، ولا بالقصير اللاصق، معْتدل القامة، بين كتفيه علامة، تظلله الغمامة، يبعث من تهامة، شفيع العصاة يوم القيامة. قال العباس: إذا رأيته تعرفه؟ قال: نعم. قال العباس: سر إلى تلك الشجرة، فإن صاحب هذه الصفات جالس تحتها. فخرج الراهب من الدير، يهرول في خطواته حتى وصل إلى النبي ﷺ فلما رآه النبي مقبلاً، نهض قائماً لا متكبراً ولا متجبراً. ثم قال له: مرحباً بالفيلق بن اليونان! فقال له الراهب: السلام عليك يا سيد بني عدنان! فقال له النبي: وعليك السلام يا أبا الفتيان ويا أبا الرهبان ويا بن اليونان بن عبد الصليب! فقال الراهب: من أعلمك بأبي الفيلق بن اليونان بن عبد الصليب؟ قال النبي: الذي أعلمك بأني أُبعث في آخر الزمان! قال: فانكب الراهب على رجليه ويديه وهو يقول: يا سيد البشر لعلك تجيب دعوتي وتأكل من وليمتي، لتحصل لنا بك الكرامة، ونفوز بمحبتك يوم القيامة! فقال النبي ﷺ: من

---

(١) السفر: جزء من أجزاء التوزاة.

الذي أخبرك بأني أُبعث في آخر الزمان، بالأمر العجيب؟ قال: يا سيدي عندي سفر فيه صفاتك، وما يجري عليك من جهّال قومك، وذلك من عهد عيسى بن مريم عليه السلام.

ثم انكب على قدميه يقبلهما وهو يقول: يا سيدي تفضل علينا بالمسير. فقال النبي: إعلم أن القوم قد أودعوني في أموالهم. فقال الراهب: يا سيدي فإن غدا لهم عقال بعير، فهو عليَّ ببعير من مالي! فأجابه النبي وسار معه، وسار الراهب بين يديه. قال: وكان ذلك الدير له بابان: باب طويل وباب قصير، وقد وضعوا عند الباب القصير كنيسة فيها تصاوير وتماثيل، فإذا دخل الرجل من الباب يحني رأسه، وذلك برسم السجود للتصاوير المصورة في الكنيسة. قال: فخطر في قلب الراهب أن يدخل النبي صلى الله عليه وسلم من الباب القصير، ليلتذ من معجزاته ويشاهد غرائب كراماته، فلما دخل الراهب أمامه أدخله الفزع من النبي، ووقع في قلبه الجزع، فلما دخل النبي من الباب القصير، أمر الله تعالى أعمدة الباب أن ترفع، فرفعت ومدت فامتد الباب واتسع، فدخل النبي منتصب القامة. قال: فلما أشرف على القوم، قاموا إجلالاً له، وأجلسوه في أوساطهم في أعلى مكان، ووقف الراهب بين يديه والرهبان حواليه، فمدحوه بأفصح لسان، وأثنوا عليه بالخير والإحسان، وقدموا بين يديه من طرائف الشام. ثم إن الراهب رمق بطرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي، أسألك أن تريني خاتم النبوة! فأرسل الله عز وجل جبرئيل، فكشف الثوب عن كتفي النبي حتى رآه الراهب، فلما عاينه ـ وقد سطع منه نور شعشعاني، بلغ إلى عنان السماء، وذهب بأبصار الناس ـ فلما رآه بحيرة الراهب خر ساجداً هيبة من ذلك النور. ثم رفع رأسه وقال: أنت هو حقاً وأنت المنتظر! ثم إن حمزة بن عبد المطلب جعل يقول:

أنـــتَ المظلَّـــلُ بـــالغمـــامِ وقـــدْ رَأى
الـــرهبـــانُ أنـــكَ ذاكَ وانكشـــفَ الخَبَـــرْ
ربيـــتَ فـــي بحبـــوحِ مكّـــةَ بعـــدَمـــا
وضـــعَ الخليـــلُ وفـــاقَ فخـــرُك مَـــنْ فَخـــر

ورضعْـــتَ فـــي سعـــدٍ لثـــذْي حليمـــةٍ
كـرمـاً ففـاضَ الثـديُ نحـوَك وانحـدَرْ

فشكره النبي على ذلك، وتفرق القوم إلى رحالهم، وقد كمد أبو جهل وامتلأ غيظاً. وبقي ميسرة والراهب مع النبي، فقال الراهب: يا سيد البشر أبشر، فإن الله تعالى يذلِّل لك رقاب العباد، ويملِّكك البلاد، وينزل عليك القرآن، ويدين لك الأنام، ودينك عند الله الإسلام، وتبعث بالدلائل والمعجزات والبركات، والآيات الظاهرات البينات، وتكسر الأصنام وتبطل الأوثان، وتخمد النيران وتكسر الصلبان، ويبقى ذكرك إلى آخر الزمان! وأسألك يا سيدي أن تتصدق علينا بالذمام[1] لسائر الرهبان، لتأخذ منهم الجزية في ذلك الزمان، فيا ليتني كنت معك حين يبعثك الله يا سيد بني عدنان! فأعطاه النبي ﷺ الذمام، وأكرمه غاية الإكرام. ثم إن الراهب التفت إلى ميسرة وقال له إقرىء مولاتك السلام وقل لها: إنها ظفرت بسيد الأولين والآخرين، وإنها سيكون لها شأن عظيم وفضل جسيم، وتعلو على الخاص والعام، لا يفوتها القرب من هذا النبي الكريم! فإن الله تعالى سيجعل من نسلها ساداتٍ كرام، ويبقى ذكرها إلى آخر الزمان، ويحسدها عليه كل واحد! وأعلمها أنه لا يدخل الجنة إلا من يؤمن به، ويصدق برسالته، وأنه أشرف الخلق وأفضل الأنبياء، وأصفاهم سريرة وأحسنهم سيرة، واحذر عليه يا ميسرة من أعدائه اليهودي في الشام، إلى أن يعود إلى البيت الحرام.

ثم إنه ودع الراهب وخرج النبي ولحق بالقوم. ثم ساروا من وقتهم وساعتهم إلى أن نزلوا بوادٍ من أودية الشام، فنزلوا بمدينة يقال لها برا، وحطوا رحالهم فتسامع أهل المدينة، فتبادروا إليهم واشتروا بضائعهم، وباعت قريش بأحسن بيع وأغلى ثمن ببركة رسول الله، والنبي لم يبع شيئاً من بضاعته، فقال أبو جهل: وحق اللات والعزى ما رأت خديجة بأشأم من هذه السفرة! إنه لم يبع من بضائعها شيئاً. قال: فلما أصبح الصباح، وإذا بالتجار قد أقبلوا من كل جانب ومكان يريدون البضائع، فلم يجدوا إلا بضائع النبي ﷺ التي لخديجة.

---

(١) الذمام: الحرمة والحق.

فباعها النبي بأضعاف ما باعت قريش عشر مرات، وربح في بضاعته ربحاً لم يخطر ببالهم، فاغتم لذلك أبو جهل غماً شديداً، ولم يبق من بضائع خديجة إلا حمل أديم، فجاء رجل من اليهود واشتراه بما قال النبي ﷺ. ويقال لليهودي سعد بن قطمير، وكان من أحبار اليهود وكهّانهم، وكان قد اطلع على صفات النبي ﷺ. قال: فلما نظر إليه اليهودي عرفه وقال: لا شك هذا الذي يفسد أحلامنا[1] ويبطل أديانناً ويرمل نسواننا، وإني أُريد أن أحتال على قتله! ثم دنا من النبي وقال: يا سيدي بكم هذا الحمل الأديم؟ فقال له النبي: بخمسمائة درهم لا ينقص منها شيء. قال اليهودي: اشتريت لكن بشرط أنك تسير معي إلى منزلي، وتأكل من طعامي، حتى تحصل لي بك البركة، لأنكم سكان بيت الله الحرام! فأجابه النبي ﷺ إلى ذلك.

فأخذ اليهودي ذلك الحمل الأديم، وسار به إلى منزله والنبي معه. قال: فلما قرب اليهودي من منزله، سبق إلى زوجته وقال لها: يا هذه أُريد منك أن تساعديني على قتل هذا الغلام المكي، الذي يعطل أديانناً ويقتل رجالنا، ويخرب ديارنا! قالت: وكيف أصنع به؟ قال: خذي فردة هذه الرحى، واقعدي في أعلى الدار مما يلي الباب، فإذا قبض منا ثمن حمل الأديم، فألقي عليه فردة الرحى، فعسى أن نقتله ونستريح منه. قال: فأخذت زوجته فردة الرحى، وصعدت إلى أعلى السطح، فلما خرج النبي ﷺ، همّت أن تلقي عليه الرحى، فأمسك الله على يديها، وكأن لاطماً لطمها، وأوقع الله في قلبها الرعب والرجفة، وغشي على بصرها من نور محمد ﷺ، وكان لها ولدان نائمان بفناء الدار، فسقطت الرحى عليهما فقتلتهما، وخرج النبي سالماً. قال: فلما نظر اليهودي إلى ما جرى على أولاده، لطم على وجهه ونادى بأعلى صوته: يا بني قريظة! فأجابوه من كل جانب ومكان وقالوا: ما دهاك؟ قال: اعلموا أنه قد دخل اليوم في بلادكم، الذي يعطل أديانكم ويخرب دياركم، وقد دخل منزلي وأكل طعامي وقتل أولادي. فلما سمع اليهود كلامه، ركبوا خيولهم واعتقلوا رماحهم، وحملوا على قريش قال: فلما نظر أعمام النبي ﷺ إلى اليهود قد

---

(١) أحلامنا: عقولنا.

أقبلوا، وقد لبسوا الدروع الداوودية، واعتقلوا الرماح الخطية، وتقلدوا السيوف الهندية، ولبسوا البيْض المجليّة، وركبوا الخيول العربية، وارتفع الصياح وأشهروا الصفاح[1]، هذا واليهود ثابتون، فركب الحمزة على جواد أشقر، مضمر حسن المنظر، مليح المخبر صافي الجوهر، من خيل قيصر، رجيح الكفل قليل الوجل[2]، ليس فيه فشلْ له من الظبي انطلاقه، ومن الماء اندفاقه، ومن الأسد انطباقه. حسن التحجيل، حلو الصهيل، ذو غرة كالقنديل. كأن حافره طير أبابيل، يخطف الأحداق. وفيه قال الشاعر:

جـــوادٌ كـــالظـــلام إذا تجلّـــى ... بغـــرَّتِـــه كبـــدرٍ فـــي ظـــلامِ
تـــرى أحجـــالَـــه يصعَـــدْنَ فيهـــا ... صعـــودَ البـــرقِ فـــي خلَـــلِ الغمـــامِ
يسيـــرُ مـــن العـــراقِ قُبيْـــلَ صبْـــحٍ ... ويـــأتيـــهِ المســـاءُ فـــي وسْـــطِ شـــامِ

قال الراوي: ثم إن الحمزة تقلد سيفه واعتقل رمحه[3] ولبس درعه، وحمل على اليهود حملة منكرة، فقتل منهم رجالاً وجدَّل أبطالاً، فهناك حامت عليهم ليوث الأبطال، وأخذهم الويل والوبال، ودارت عليهم الأهوال، وطحنت رحى الحرب رؤوس الرجال، وانهزم اليهود وقد علاهم الويل، وحل بهم الوبال، وصاروا في الخزي والعذاب قال: فأجمعوا رأيهم أن ينفذوا منهم سبعة عشر رجلاً من رؤسائهم بلا سلاح، فلما رأتهم قريش قالت لهم: ما شأنكم؟ قالوا: يا معاشر العرب إن هذا الرجل الذي معكم، أول ما يبدأ بخراب دياركم، ويقتل رجالكم! عدونا أن تسلمو إلينا حتى نقتله، ونستريح منه نحن وأنتم! قال: فلما سمع الحمزة كلامهم قال: يا ويلكم! هيهات هيهات حيل بينكم وبين ما تشتهون! أتظنون أن أُسلم إليكم بدرنا وسراجنا، ولو بلغت أرواحنا الحناجر، فهي وقاه وأموالنا فداه، وإن أردتم قطع الرؤوس وإتلاف النفوس هلموا! ثم صاح بهم فولوا هاربين، فلما سمع اليهود كلامه أيسوا من بلوغ مرادهم، ورجعوا على أعقابهم خائبين. قال: فلما نظر أبناء قريش اليهود

---

(١) الصفاح: السيوف.
(٢) الوجل: الخوف.
(٣) اعتقل الرمح، وضعه بين ركابه وساقه.

قد ولوا مدبرين، رأوها فرصة ورجعوا وقالوا: هذه فرصة! ورحلوا مجدّين السير إلى بلادهم، بعدما غنموا أسلاباً من قتلى اليهود، وسلاحهم وخيلهم، وقد فرحوا بالنصر والظفر قال: فلما استقاموا في الطريق قال لهم ميسرة: يا قوم ما منكم أحد إلا وقد سافر مرة أو مرتين أو أكثر، فهل رأيتم أبرك من هذه السفرة، وأكثر من ربحها؟ وما ذلك إلا ببركة محمد، وأنتم تعلمون أنه نشأ فيكم، وتربّى بين أظهركم، وتعلمون أنه قليل المال. فهل ترون أن تجمعوا له شيئاً على سبيل الهدية، تهدونه إليه حتى يستعين به على حاله؟ فقال القوم: والله لقد نصحت يا ميسرة، وأصبت فيما أشرت، وأجملت فيما نطقت! قال: فاجتمع رأيهم على ذلك.

ثم إن القوم نزلوا في منزل كثير الأشجار والأثمار والأنهار والمراعي، فلما نزلوا أخرج كل واحد من ماله شيئاً لطيفاً، وذلك بحسب الهدية، وأتوا إلى النبي ﷺ وكان يحب الهدية ويكره الصدقة. قال: فلما أحضروا ذلك بين يديه قالوا: خذها مباركة عليك! ثم إنهم دفعوها إلى ميسرة، فأخذها للنبي ولم يرد جواباً. ثم إن القوم رحلوا يجدون السير ويقطعون الفيافي والأودية والأوعار، حتى نزلوا بدير الراهب، وأتوا إلى وادي النخلة، التي تزود منها رسول الله وأكل التمر من قبل، ورحلوا يقطعون الفيافي والقفار، إلى أن نزلوا بوادٍ، قريباً من مكة، ونزلوا بجحفة الوداع، فأخذ الناس ينفذون الكتب ليبشروا أهلهم بقدومهم، وما نالوا من سفرهم، وما ربحوا من تجارتهم. فقال أبو جهل: يا قوم ما رأيت ربحاً أكثر من ربح محمد لخديجة! ثم قال: ما كنت أظن إلا أنه يجلب التجار من منازلهم إلى منزله، ليشتروا بضاعته بأغلى ثمن! ثم أخذ القوم في إنفاذ رسلهم، فأنفذ أبو جهل لربيعة وعتبة وأخيه شيبة، وأنفذ النضر بن الحارث ومطعم بن عدي، وعثمان بن مالك الفهري، وأسد بن غويلب الدارمي، كل منهم أنفذ إلى أهله يبشرهم، فأقبل ميسرة إلى النبي ﷺ وقال: يا قرة عيني هل أرشدك إلى خير يصل إليك؟ فقال رسول الله: وما ذلك يا ميسرة؟ قال: تسير معي من وقتك وساعتك إلى مولاتي خديجة، وتبشرها بسلامة أموالها، فإنها تعطي من يبشرها مالاً جزيلاً ـ ولاسيما أنت ـ وما أشتهي

أن يكون ذلك إلا لك! فقم الآن وسر إلى مكة، وادخل إلى مولاتي خديجة. فقال النبي ﷺ نعم ما أشرت به! وها أنا سائر. قال فقام النبي وشمر أذياله وقال: يا ميسرة أُوصيك بنفسك ومالك خيراً. فركب ناقته وسار مستقبل القبلة وحده يريد مكة، فغاب عن أعين الناس، فأرسل الله له ملكاً يطوى له البعيد قريباً، ويهون عليه الصعب الشديد.

فلما وصل إلى جبال مكة، أرسل الله عليه النوم فنام، فأوحى الله إلى جبرئيل وميكائيل أن اهبطا إلى الجنة، وأخرجا منها القبة التي خلقتها لحبيبي محمد، قبل أن أخلق آدم بألفي عام، وانشراها على رأسه. وكانت تلك القبة من الياقوت الأحمر، معلقة بعلائق من اللؤلؤ الأبيض، يبان باطنها من ظاهرها، وظاهرها من باطنها. لها أربعة أركان وأربعة أبواب: فالباب الأول من الزبرجد، والثاني من العقيق، والثالث من اللؤلؤ الرطب، والرابع من الياقوت الأحمر. فنزل جبرئيل ومعه سبعون ألفاً من الملائكة، واستخرج القبة من الجنة في أسرع من طرفة عين، فاستبشرت الحور العين وأشرفن من قصورهن وقلن: لك الحمد يا رب وسبحانك! في هذا الوقت يبعث صاحب هذه القبة. وقالت الحور: لا إله إلا أنت ما أكرم هذا العبد عندك يا رب! قال: وهبت ريح الرحمة وصفقت الملائكة وسبحت للعزيز الجبار، بما خص به النبي المختار، ونشر جبرئيل القبة على رأس النبي ﷺ، وأحدقت الملائكة بأركانها، ثم أعلنوا بالتسبيح والتقديس والتكبير والثناء لرب العالمين.

قال الراوي: ونشر جبرئيل بين يديه ثلاثة أعلام، وتطاولت الجبال ونادت الأشجار، وغردت الأطيار والأملاك، كل يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، هنيئاً لك من عبد ما أكرمك على الله! قال: وكانت خديجة متكئة على موضع عالٍ، وتحتها أثواب من الديباج، وعليها ثوب الحرير، وحولها جواريها وعبيدها، وعندها جماعة من قومها، وهي تطيل النظر إلى شعاب مكة، إذ كشف الله عن بصرها دون غيرها، فرأت نوراً ساطعاً وضياءً لامعاً من جهة باب المعلى، وقد لحق بعنان السماء[1]. ثم إنها حققت النظر، فرأت القبة

(١) عنان السماء: ما ارتفع منها وما بدا لك منها إذا نظرتها.

منشورة والملائكة محدقين بها، ناشرين أعلامهم فوق رأس النبي ﷺ، وهو نائم والقبة على رأسه، فحارت في أمرها وجعلت تنظر إليه. فقالت لها النسوة: ما لنا نراك باهتة[1]؟ قالت: لم أدر أنا نائمة أو يقظانة؟ فقلن لها: نعيذك بالله بل أنت يقظانة، فما بالك؟ قالت لهن: انظرن نحو الباب المعلى وحققن النظر فيه. فنظرن وقد كشف الله عن أبصارهن، فقلن: نعم. رأينا! فقالت لهن: وما الذي رأيتنّه؟ قلن: رأينا نوراً ساطعاً وضياءً لامعاً، قد بلغ عنان السماء! فقالت لهن: وما الذي ترون غير ذلك؟ قلن لها: ما نرى شيئاً! قالت: ألا ترون القبة والراكب والأطيار الخضر المحدقين بها؟ قلن لها: يا سيدتنا لم نر مما تقولين شيئاً!.

قالت خديجة: إني أرى راكباً أضاءت من نوره المشارق والمغارب، وهو في قبة خضراء لم أر أحسن منها، وهو على ناقة واسعة الخطى، وقد كسيت الهيبة والوقار، ولا شك أن الناقة ناقتي الصهباء، والراكب محمد المصطفى فقالت لها النسوة: يا سيدتنا ومن أين لمحمد ما تقولين؟ وليس يقدر على هذا قيصر الروم، ولا كسرى العرب والعجم! قالت خديجة: إن فضل محمد عظيم أعظم من ذلك، وإن الله تعالى قد خص حبيبه بالرحمة! ثم إن الناقة دخلت بين شعاب مكة، ثم دخلت باب المعلّى وعبرت منه، ثم إن الملائكة عرجت إلى السماء، وعرج جبرئيل بالقبة والأعلام، وانتبه النبي من نومه ودخل مكة، وقصد منزل خديجة فسمعها تقول: متى يصل إلي محمد أشتفي منه بالنظر؟ وهي تقوم مرة وتقعد أُخرى، وإذا بالنبي قد قرع الباب، فقالت خديجة لجاريتها: انظري من بالباب لعل خبر من الأحباب! فخرجت الجارية وقالت: من بالباب؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله قد جئت أُبشر خديجة بقدوم أموالها وسلامتها! فلما سمعت خديجة كلام النبي، انحدرت من أعلى الدار، ووقفت بالحجابة وفتحت الجارية الباب، فقال النبي: السلام عليكم يا أهل هذا المنزل! قالت خديجة: وعليك السلام يا قرة العين ورحمة الله وبركاته! فقال النبي ﷺ: نهنئكم بسلامة أموالكم! قالت خديجة: تهنى لك الخلافة يا

---

(١) باهتة: قد أخذتها الدهشة وسكتت متحيّرة.

حبيبي! فقال النبي: وأنت تهنئك سلامة أموالك وعبيدك! وإن عبديك ميسرة وناصح يسلّمان عليك. قالت خديجة: إنما تهنئني بسلامتك يا سيدي ويا قرة عيني، والله أنت حبيبي وأعز عندي من المال والأهل والأقارب، وأحب إليّ من ذلك كله! ثم إنها جعلت تنشد وتقول:

جـاءَ الحبيـبُ الـذي أهـواهُ مـن سفـرٍ
والشمـسُ قـدْ أثّـرتْ فـي وجهـهِ أثـرا
عجبْـتُ للشمـسِ مـنْ تقبيـلِ وَجْنَتِـه
والشمـسُ لا ينْبغـي أن تـدرِكَ القمَـرا

ثم قالت: يا حبيبي ومن أين تركت الركب؟ قال: في جحفة الوداع. قالت: ومتى عهدك بهم؟ قال: ساعتي هذه! فلما سمعت خديجة كلامه اقشعر جلدها وقالت: أسألك بالله إنك فارقتهم من جحفة الوداع؟ قال: نعم ورب البيت! لقد طوى الله لي الصعب الشديد! قالت خديجة: والله ما كنت أُحب أن تجيئنا هكذا، وإنما أُحب أن تكون في أول الأموال والركب، وأنا أنظر إليك، وأنت مقدم على الرجال، وأُرسل عبيدي وجواريَّ يتلقونك من على رؤوس الجبال، بأيديهم الطارات والمعازف والدفوف، وآمر عبيدي أن يذبحوا الذبائح والعقائر، ويكون لك يوم مشهود! فقال النبي ﷺ: يا خديجة إني أتيت ولم يعلم بي أحد من أهل مكة، فإن أمرتني بالرجوع رجعت من ساعتي هذه! قالت: يا سيدي أمهل قليلاً. ثم عمدت إلى خبز وسمن، فوضعته في مزودته، وكانت العرب تعرفه لنقاوته وطيب رائحته. ثم ملأت له قربة من ماء زمزم، لأنه معروف دون سائر المياه، ثم قالت له: إرجع أودعتك الله الذي طوى لك البعيد قريباً. ثم إن النبي رجع من وقته وساعته إلى الركب، ثم إن خديجة رجعت وصعدت إلى أعلى دارها، وجعلت تنظر هل تعود القبة والأعلام التي رأتها أم لا. فبينما هي كذلك، وإذا بالقبة والأعلام قد عادت، ونزل جبرئيل والملائكة قد أحدقوا بالقبة، كأول مرة. قال: ففرحت خديجة بذلك، وجعلت تنشد وتقول:

نعـــمْ لـــي منكُـــمُ ملـــزمٌ أيُّ ملـــزمِ
ووصـــلاً مـــدى الأيـــامِ لـــنْ يتصـــرَّمِ
ولـمْ يَخْـلُ طـرْفي سـاعـةً مـن خيـالِكـم
ومـنْ حبِّكـم قلبـي ومـن ذكـرِكـم فمـي
ولـوْ لـم يكُـنْ قلـبُ المتيّـمِ فيكُـمُ
جـريحـاً لمـا سـالَـتْ دمـوعـي بـالـدَّمِ
ولـــوْ جبـــلٌ حمَّلْتُمـــوه بعـــادَكـــم
لمـاد ونـادى ذابَ لحمـي وأعظُمـي[1]
أشـــدُ علـــى كبِـــدي يـــدي فـــأردُّهـــا
لمـا فيـه مـنْ جمـرٍ مـنَ الشـوقِ مُضْـرَم
كتمـــتُ الهـــوى والشـــوقَ ينشُـــر طيَّـــه
وأكتُـــم أشجـــانـــاً فلـــمْ تَتكتَّـــمِ
فيـا ربِّ قـدْ طـالَـتْ بنـا مـدةُ النّـوى
وأنـــتَ قـــديـــرٌ تنظـــمُ الشمـــلَ فـــانظـــمِ

قال: ثم إن النبي ﷺ سار قليلاً، وإذا هو عند القوم، فمنهم أيقاظ ومنهم رقود. قال: فلما أحس به يا ميسرة قال: من السائر في الليل العاكر؟ قال: أنا محمد بن عبد الله. قال ميسرة: وما الذي ردّك عن خيرٍ يصل إليك، ومن سرور وعزّ ونعمة تعمّ عليك؟ وكان عهدي بك يا سيدي أنك سائر إلى مولاتي خديجة! قال النبي ﷺ: يا ميسرة إني سافرت إلى بيت الله الحرام ثم عدت. فضحك ميسرة من كلام النبي وقال: يا مولاي ما عهدتك تستهزىء بي قط؟ قال: يا ميسرة والله ما قلت لك إلا حقاً وصدقاً فإن كان عندك شك من ذلك، فهذا خبز من مولاتك خديجة، وهذا ماء زمزم! قال: فلما نظر ميسرة إلى ذلك، نهض قائماً على قدميه وقال: يا معاشر قريش وبني زهرة ويا بني النضر ويا بني مخزوم، وهل غاب عنكم محمد ساعة أو ساعتين أو أقل من ذلك؟ قالوا: نعم. قال لهم ميسرة: إنه قد سار إلى مكة ورجع! وهذا خبز مولاتي خديجة، قد جاء

---

(١) ماد: اضطرب.

به، وهذا ماء زمزم! قال: فتعجب القوم من ذلك، ودهشوا وحاروا! قال: فصاح بهم أبو جهل وقال: ما الذي حل بكم؟ قالوا: إن محمداً سافر إلى مكة ورجع من ساعته! فقال: انصرفوا إلى رحالكم، فإنه لو كان غير محمد لكان عجباً منه، لكن الساحر لا يبعد عليه شيء في مشارق الأرض ولا في مغاربها. قال: فتفرق القوم إلى رحالهم، وباتوا تلك الليلة حتى أصبح الصباح، فرحلوا وسبقهم البشير إلى مكة يبشرهم بقدوم القوم، فخرج أهل مكة مبادرين، ووصل الخبر إلى خديجة، فخرجت وعبيدها وجواريها، وارتجت شعاب مكة وأوديتها، وزينت خديجة جواريها، وخرجت الجواري بأيديهن الدفوف والطارات، والمجامر فيها العود والبخور، وهم وقوف على السرادقات والجبال. وكان النبي لا يمر بعبد من عبيد خديجة إلا ويعقر له مطية فرحاً بقدومه. ثم تفرق الناس إلى منازلهم، ودخل النبي ﷺ إلى بيت خديجة.

ثم إن خديجة نظرت إلى جمالها، وقد أقبلت كأنها عرائس مجلية، وكانت معتادة أن يموت بعضها، وبعض يصير أجرب، وبعض يصير أعرج، وبعض أعمى وبعض ضعيف، إلا في هذه السفرة، فإنها لم تفقد منها شيئاً، وقد كسيت شحماً ولحماً. قال فوقفت قريش وهم متعجبون مما رأوا من محمد، وكان كلما مر عليهم جمل بإزائه يقولون: لمن هذا؟ فيقال هذا مما أفاده محمد لخديجة من الشام! قال: فذهلت عقول قريش من ذلك. فلما اجتمعت أموال خديجة عندها، وفكوا رحالهم وعرضوا الأموال عليها، وهي جالسة على كرسي من العاج، مصفح بالذهب الوهاج، وهي من وراء الحجاب، وكان النبي جالساً في وسط الدار، وميسرة يعرض عليها شيئاً بعد شيء. قال: فنظرت خديجة ما أدهشها، فبعثت خديجة، إلى أبيها تعرّفه ذلك، وترغّبه في محمد، فلما سمع خويلد أقبل إلى منزل خديجة، وكانت متزينة بثوب من الحرير، والنبي جالس. قال: فلما نظرت خديجة إلى أبيها مقبلاً، وهو متزين بأثوابه متقلد سيفه، فلما نظرته قامت إجلالاً له، وأجلسته إلى جانبها، وأبدته بالرحب، وجعلت تعرض عليه الأموال والبضائع وتقول: يا أبت هذا كله من بركات محمد بن عبد الله! والله يا أبت إنه مبارك الطلعة ميمون الغرة، فما ربحت ربحاً أكثر من هذه

السفرة! ثم التفتت إلى ميسرة وقالت له: ألا تحدثني كيف كان سفركم، وما الذي رأيتم؟.

فقال ميسرة: والله يا سيدتي وهل أُطيق أن أصف لك بعض ما عاينته من محمد؟ ثم إنه أخبرها بخبر السيل والبئر والثعبان والأسد والنخلات، وخبر الراهب وسلامه له ووصيته له، وخبر اليهود بالشام وما جرى منهم وما وقع عليهم. فقالت خديجة: حسبك يا ميسرة! فلقد زدتني شوقاً إلى محمد! إذهب فأنت حر لوجه الله تعالى، وزوجتك وأولادك، وأيضاً لك عندي مائة دينار وراحلتين! ثم خلعت عليه خلعة سنية، فأخذها وسار ميسرة إلى زوجته وأولاده، وقد امتلأ فرحاً وسروراً، وأخبرهم بما صنعت خديجة معه، فشكروها على ذلك. ثم إن خديجة التفتت إلى النبي ﷺ وقالت له: أُدن مني فلا حجاب بيني وبينك! ثم أمرت أن يرفع عنها الحجاب، وأمرت أن ينصب له كرسي من العاج والأبنوس، وأجلسته عليه وقالت: يا سيدي كيف كان سفركم؟ فجعل يحدثها بالأمر، وبما كان وبما باع وبما اشترى، فرأت خديجة ربحاً كثيراً وشيئاً لم يخطر ببالها، فقالت: يا سيدي فرحت بطلعتك وسعدت برؤيتك، فلا لقيت بؤساً ولا رأيت من قومك نحوساً ولا عبوساً! ثم إن خديجة جعلت تنشد وتقول:

ولـوْ أننـي أمسيْـتُ فـي كـلِّ نعمـةٍ ... ودامتْ لي الدنيا ومُلْكُ الأكاسِرهْ
لمَـا سـويَـتْ عنـدي جنـاحَ بعـوضـةٍ ... إذا لـم تكـنْ عينـي لعينِـكَ نـاظـرَهْ

قال الراوي: ثم إن خديجة قالت: يا سيدي لك عندي حق بشارتك، زيادة على ما بيني وبينك! فهل لك فيه الساعة من حاجة؟ فقال لها: إني أمضي إلى البيت وأستريح وأعود إليك. ثم خرج النبي من منزل خديجة، ودخل منزل عمه أبي طالب، فلما رآه أبو طالب كاد يطير فرحاً مما عاين من محمد، فجعل يقبل يديه ورجليه ويلثم فاه. ودارت أعمامه حواليه فقال أبو طالب: يا ولدي أعطتك خديجة؟ فقال: وعدتني خيراً على ما هو كان بيننا. فقال أبو طالب: هذه نعمة جليلة! ولكن ـ إن شاء الله ـ إني قد عزمت على أن أترك لك جملين تسافر عليهما، وراحلتين تصلح بهما شأنك، والذهب والفضة أخطب لك به فتاة

من نساء قريش من قومك، فلا أُبالي من بعد ذلك بالموت من حيث أتى. قال: يا عماه إفعل ما بدا لك! قال: فلما كان وقت الغداة، اغتسل النبي ﷺ من وعك السفر، وتطيب وسرح شعر رأسه، ولبس أفخر أثوابه، وسار إلى منزل خديجة، ودخل عليها فلم يجد عندها سوى ميسرة، فلما رأته فرحت بقدومه، واستبشرت بوصوله إليها، وأعجبها نور وجهه ثم إنها جعلت تقول:

رمى فرمى من قوسِ حاجبِهِ سهما ... فصادفَني حتّى قتلتُ بهِ ظُلْما
وأسفرَ عن وجهٍ وأسبلَ شعرَهُ ... فباتَ يُباهي البدرَ في الليلةِ الظَّلْما
ولمْ أدر حتى زارَ منْ غيرِ موعدٍ ... على رغْمِ واشٍ ما أحاطَ به عِلْما
وعلّمني من طيبِ حُسْنِ حديثِهِ ... منادية تستنطقُ الصخرةَ الصَّمّا

وقال الشاعر في هذا المعنى:

أهلاً وسهلاً بالحبيبِ الزائرِ ... ومؤنسي في خلْوةٍ وسامِري
يا مسكنَ القلبِ ومالِكَ مهْجتي ... يا بُغْيَتي يا مُنْيتي يا جابِري
إني بسطْتُ الكَفَّ طالبة لكمْ ... فعساكَ تجبُر بالعطاءِ الوافرِ
فأنا المحبُ لكُم وقلبي عندَكم ... وسواكُمُ لم يحل قطّ بخاطري
وسقيْتَني من كاسِ حبِّكَ شربةً ... فصرت حاملَ سرِّها وسرائري
فتعطرتْ ريحُ الصَّبا من عطرِها ... وشربتُ كأساً من شراب العاطرِ
وسمعتُ نغماتِ الطيورِ كأنّها ... طَرِبَتْ على نغماتِها بمزامري
ولقدْ جرى دْمعي بطيبِ حديثِها ... وصببْتُ دمعاً أصلُه في ضمائِري
ولقدْ تمايلَ كلُ غصنٍ يابسٍ ... شوقاً فأبكى كلَّ حبٍ ساهِر
لا تحْرموني وصلَكُمْ بحياتِكم ... فهواكُمُ في مُهْجتي وضمائري
وترابُ بابِكُمُ لِعيني أُثمدٌ ... وجلاءُ قلبي بالجمالِ الباهرِ[1]
ولقدْ أتيتُ بكلِ نظمٍ غريبةٍ ... منظومةٍ في لؤلؤٍ وجواهرِ

قال الراوي: ثم إن خديجة التفتت إلى النبي محمد وقالت: يا سيدي نعمت صباحاً ودامت لك الأفراح وكفيت أتراحاً! هل من حاجة فتقضى يا محمد أو مسألة فتعطى؟ قال: فاستحى النبي ﷺ من كلامها، وطأطأ برأسه وعرق

(١) الإثمد والأُثمد: حجر يكتحل به.

جبينه. فأعادت عليه الكلام ثانية، ولاطفته في الحديث فقالت: يا سيدي إذا سألتك عن شيء تخبرني عنه؟ قال: نعم. قالت خديجة: إذا أخذت الذي لك من المال والجمال، فما أنت صانع به؟ فقال النبي ﷺ: ولم ذلك؟ قالت: أُريد أن تعرّفني ما أنت صانع به. قال النبي: إن عمي ذكر أن يترك لي بعيرين أُسافر عليهما، وراحلتين يصلح بهما شأني، والذهب والفضة ذكر أنه يخطب لي بهما امرأة من قومي، تقنع مني بالقليل، ولا تكلفني ما لا أُطيق. قال: فتبسمت خديجة وقالت: يا سيدي أما ترضى أن أخطب لك زوجة من خيار قومك، تحسن بقلبي؟ فقال: نعم يا خديجة. قالت خديجة: قد وجدت لك امرأة أرضاها لك، وهي امرأة أكبر منك سناً، ودونك جمالاً وأكبر يداً، طاهرة مطهرة مصونة عفيفة، تساعدك على الأُمور، وتقنع منك باليسير، ولا ترضى بغيرك ولو بذل لها المال الجزيل! وإنها كريمة في قومها، مطاعة في عشيرتها، قريبة منك في الحسب والنسب، غير بعيدة عنك، يحمدك عليها الملوك والأكاسرة، وقد خطبها الملوك والجبابرة، غير أني أصف لك عيبها كما وصفت لك خيرها! قال ﷺ: وما ذلك؟ قالت: قد عُرفت قبلك برجلين، وهي أكبر منك سناً. فقال النبي ﷺ: سمّيها لي حتى أعرفها. قالت: هي مملوكتك خديجة بنت خويلد. فأطرق النبي رأسه حياءً منها، حتى عرق جبينه، وأمسك عن الكلام. فأعادت عليه القول مرة أُخرى وقالت: يا سيدي ما لك لا تجيب؟ والله إنك لي حبيب، وإني لا أُخالفك في أمري! ثم إن خديجة بعد ذلك جعلت تقول:

يـــا سعـــدُ إنْ جُـــزْتَ بـــوادي الأراك
فـــارحـــمْ عُبَيْـــداً ضـــاعَ مِنـــي هنـــاكْ
واستفـــتِ غـــزلانَ النـــوى ســـائـــلاً
هـــل لأسيـــرِ الحـــبِّ منكـــم فَكـــاك؟
وإنْ تـــرى ركْبـــاً بـــوادي الحِمـــى
ســـائِلْهُـــم عنـــي ومَـــنْ لـــي بِـــذاك

نعـــم ســـرّوا واستصحَبـــوا مهْجتـــي
فـــالآنَ عيْنـــي تشتهـــي أنْ تـــراك
مـــا فـــيّ مـــن عضـــوٍ ومـــنْ مفصـــلٍ
إلا وقـــدْ رُكِّـــبَ فيـــهِ هَـــوَاكْ
أوعـــدْتنـــي بـــالهجْـــرِ بعـــدَ الـــوفـــا
يـــا سيِّـــدي مـــا فـــادَ هـــذا بـــذاك
إن حجبـــوا شخصَـــك عـــن نـــاظـــري
لـــي نـــاظـــرٌ بـــالقلـــبِ رؤيـــاً يـــراك
فـاحكُـمْ بمـا شئـتَ ومَـا تـرتضـي قـالقلـبُ مـا يـرضَـى إلا رِضـاكْ

قال صاحب الحديث: ثم إن خديجة ألحت عليه بالكلام وقالت له: أنت عزيز عليّ. فقال لها: يابنة العمّ أنت امرأة ذات مال، وأنا فقير لا أجد إلا ما تجودين به عليّ، وليس مثلك من يرغب في وصلي، والراغب في القليل قليل. وأنا أطلب امرأة حالها كحالي، وما لها كمالي، أقنع منها وتقنع مني، وأنت لا يصلح لك إلا من يكون ماله كمالك وحاله كحالك! فلما سمعت كلامه قالت: والله يا محمد إن كان مالك قليلاً فمالي كثير، ومن يسمح لك بنفسه كيف لا يسمح بماله! فأنا ومالي وعبيدي وجواريَّ، وجميع ما أملكه، لك بيدك وفي حكمك، ولا أصنع به شيئاً ولا أُبعده عنك، ولا أزويه عنك[1] وحق الكعبة العليا، وحرمة الصفا وأبي قبيس وحراء، ما كان ظني فيك أن تبعدني عنك، ولا توحشني من قربك، وإني أكون لك زوجة، وأنت تكون لي بعلاً. ثم شرقت بعبرتها وجعلت تقول:

واللهِ مـــا هـــبَّ نسيـــمُ الشمـــالِ إلا تـــذكَّـــرْتُ ليـــالـــي الـــوِصـــال
ولا أضـــاءَ مـــنْ نحـــوِكـــم بـــارقٌ إلا تـــوهَّمْـــتُ لطيـــف الخيـــالِ
أحبـــابَنـــا مـــا خطـــرَتْ فـــرقـــةٌ منكـــم غـــداةَ الـــوصْـــلِ منّـــي ببـــالِ
جـــورُ الليـــالـــي خصَّنـــا بـــالجَفـــا منكـــمْ ومـــنْ يـــأمـــنُ جـــورَ الليـــالـــي
رِقّـــوا وجـــودوا وارحمـــوا واعطفـــوا لا بـــدَّ لـــي منكُـــم علـى كـــلِّ حـــالـــه

(١) أزويه عنك: أُبعده عنك.

قال الراوي: ثم إن خديجة قالت: وحقّ من احتجب عن الأبصار وعلم حقيقة الأسرار، ما قلت إلا حقاً، ولا تكلمت إلا صدقاً، وليس هو هزل ولا مزاح، وإني لم أقل لك باطلاً، ولا قلت لك قولاً أُداعبك فيه! فقم الآن إلى عمومتك، وقل لهم الساعة يسيرون إلى أبي، ويخطبونني منه، ولا تيأس، إن كان أبي طلب منك مالاً، فأنا والله أقوم لك بالهدايا والأموال. ومهما طلب أبي من المال، فأنا أقوم لك به، وهذه أموالي وذخائري وعبيدي وجواريَّ، كلها لك وبين يديك، خذ منها ما شئت وخلِّ ما شئت! فأنا لك طالبة وفيك راغبة، ولا أُريد سواك! فسر وأحسن الظن فيمن يحسن الظن فيك، ولا تخيب قصد قاصدك! فرجع من وقته وساعته فرحاً مسروراً، وسار إلى عمه أبي طالب، فقال له عمه: نهنئك ما أعطتك خديجة، وإنها أظن قد غمرتك بالعطايا! فقال النبي ﷺ: لي إليك حاجة! فقال له: وما هي يا بن أخي؟ قال: تنهض أنت وأعمامي تخطبون لي خديجة من أبيها خويلد! فلم يرد أبو طالب جواباً، ثم قال: يا حبيبي إليك نسير، وبأمرك نستشير وبفضلك نستدل، وأنت تعلم أن خديجة امرأة ميمونة كاملة فاضلة، تخشى العار وتحذر الشنار. وقد عرفت قبلك برجلين: أحدهما عتيق والآخر عمرو الكندي، وقد رزقت منه بنتاً، وقد خطبها ملوك العرب وصناديد قريش، ورؤوس بني مخزوم وسادات بني هاشم، وملوك اليمن وأكابر الطائف، وبذلوا لها من الأموال، فلم ترغب في أحد منهم، ورأت أنها أكبر منهم، وأنت يابن أخي فقير لا مال لك ولا تجارة، وخديجة مزّاحة عليك فلا تعلّل نفسك بمزاحها، ولا تسمع قريش هذا الكلام أبداً! فقال أبو لهب: يا بن أخي لا تجعلنا في أفواه الناس ومجالس العرب، وأنت لا تصلح لخديجة أن تتزوج بها! فانتهره العباس وقال: والله إنك لخسيس في الرجال، أفحش في الكلام! وما عسى أن تقول في ابن أخي؟ والله إنه أكثر منهم جمالاً وأزيد منهم مالاً، وأعلى منهم حسباً ونسباً! وبم تتكبر عليه خديجة؟ بمالها أو بجمالها؟ فأُقسم برب الكعبة، إن طلبت منه مالاً لأركبن جوادي وأطوف في الفلوات، ولأدخلن على الملوك وأجمع لخديجة ما تطلبه من الجمال والمال! فقال لهم النبي ﷺ: يا معاشر الأعمام، قد أطلتم الكلام فيما

لا فائدة فيه، فقوموا واخطبوا لي خديجة من أبيها خويلد، فما عندكم من العلم مثل ما عندي! قال: فنهضت صفية عمة النبي وقالت: أعلم أن محمداً صادق اللهجة واضح الحجة، وخديجة مزّاحة وأنا أُبين لكم باطن الحديث. ثم إنها لبست أفخر أثوابها، وسارت قاصدة إلى منزل خديجة، فلقيتها بعض جواريها في الطريق، فسبقتها إلى البيت وأعلمت خديجة بإقبال صفية، وكانت خديجة قد عزمت على النوم، ونزلت إلى الدار ولم تترك أحداً معها من الجواري، فلما نهضت تمشي عثرت فقالت: لا أفلح من عاداك يا محمد! فسمعت صفية كلام خديجة، فقالت صفية: جاء الدليل، ثم قرعت الباب ففتحته لها خديجة، ولاقتها بالرحب والسعة، وأمرت لها بالطعام، فقالت لها صفية: يا خديجة ما أتيتك لطعام ولا لشراب، ولكن يابنة العم، قد نقل إلينا من عندك كلام، وقد جئنا نسألك عنه، هل هو صحيح أم لا؟ فقالت خديجة: بل هو صحيح إن شئت تبديه وإن شئت أنا أُبديه! وأنا قد خطبت محمداً لنفسي، وتحمّلت مهري وحططت عنه أمري، فلا تكذبوه، إن كان قد نقل إليكم حديثاً، فهو حق، فإني أعلم أنه مؤيد من رب العالمين، فوحقّ الذي سطح الأرض على الماء، لا بد لي منه! فتبسمت صفية عمة النبي ﷺ وقالت: والله إنك لمعذورة فيمن أحببت غير ملامة! والله يا خديجة ما شاهدت عيني مثل جبينه تحت عمامته، ولا أعذب من كلامه ولا أحلى من لفظه! ثم إن صفية تمثلت تقول: (**أفلح من يصلي على الرسول وآله**):

اللهُ أكبـرُ كـلُ الحسـنِ فـي العـربِـي
كـمْ تحـتَ غـرّةِ هـذا البـدرِ مـن عَجَـبِ
قـوامُـه ثـم إن مـالَـتْ ذوائِبُـهُ
مـن خلفِـه فهـي تغنيـهِ عـنِ الأدب
تبَّـتْ يـدا لائِمـي فيـهِ وحـاسِـده
وليـسَ لـي فـي سـواهُ قـطُّ مـن أربِ[1]

(١) الأرب: الغاية.

ومما قيل في هذا المعنى شعراً لبعض العارفين: **(أفلح من يصلي على الرسول)**.

قـــالـــوا محمـــد وقلتُ الباهي المنظر

صلـوا علـى أحمـد قـــالـــوا وشعـــرُه وقلتُ المسكُ والعنبر
وقـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا جبينُـــه وقلت الصبحُ إذا أسفر
وقـــالـــوا محمـــد قـــالـوا الحـواجبُ وقلْت القوسُ إذا أُوتر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا عُيـــونـــه وقلت للسمـاءِ تنظر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا خُـــدوده وقلت الـوردُ لـو أزْهر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا لِسـانـــه وقلت اللؤلـؤُ إذْ يُنشَر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا وثغـــرُه وقلت الـدرُ والجـوهـر
صلـوا علـى أحمـد قـــالـــوا وريقـــه وقلت أحلى من السكر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا وعُنقـــه وقلت أبيضُ من المَرْمر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا يمينُـــه وقلت بـالكـرمِ يُـذْكَـر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا وريحـــه وقلت أشـمُّ مـن العنبر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا وصـــدره وقلت بـالعلـم يفخر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا وبطنـــه وقلت خـاتـمٌ يشهر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا وفخـــذه وقلت على البُراقِ يظهر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا أقـــدامـــه وقلت فـي الحجْـرِ أثّـر
قـــالـــوا محمـــد قـــالـــوا شفيعـــي وقلت فـي المحشـر
قـــالـــوا محمـــد صلـــوا عليـــه يـا جمـاعـةَ الحُضَّـر

صلـــو علـــى أحمـــد

قال: ثم إن صفية عزمت على الخروج من عند خديجة فقالت لها: تمهلي قليلاً. ثم إن خديجة خلعت على صفية خلعة بهية، وضمتها إلى صدرها، وقبلت ما بين عينيها وقالت لها: بالله عليك إلا ما عاونتني على ما أطلب من محمد من قربه! قالت صفية: برب الكعبة حباً وكرامة! ثم خرجت من عندها طالبة منزلها، فقال إخوتها: ما وراءك يابنة الصادقين؟ قالت لهم صفية: والله إن

خديجة راغبة في محمد، ما يزيد على الوصف، ولا له حدّ. فإن كنتم عازمين فقوموا، فوالله ما قال محمد إلا حقاً! ففرحوا بذلك جميعهم، إلا أبا لهب اللعين، فإنه زاد به الغيظ والكمد، وذلك لسبب شقاوته السابقة، حيث إن خديجة تتصل بمحمد ﷺ. فزعق بهم العباس وقال: ما قعودكم إذا حصل مرادكم؟ فانهضوا وقوموا! قال: فنهض أولاد عبد المطلب قاصدين منزل خديجة، وقد عمد أبو طالب إلى النبي ﷺ، وألبسه أفخر أثوابه، وقلده سيفاً مذهباً، وأركبه جواداً أغر، ودار حوله عمومته محدقين به، وإلى منزل خديجة قاصدين فلقيهم أبو بكر بن أبي قحافة فقال: إلى أين تريدون يا أولاد عبد المطلب، وقد كنت قاصداً إليكم في حاجة خطرت ببالي؟ فقال العباس: وما هي يابن أبي قحافة؟ فقال: رأيت في منامي كأن نجماً قد ظهر في منزل أبي طالب، وتعلّى في أُفق السماء، وقد أنار واستنار إلى أن صار كالقمر الزاهر، ثم نزل بين الجدران، فقصدت إليه لأعرف أين نزل، وإذا به قد نزل في دار خديجة بنت خويلد وقد دخل تحت ثيابها! فهذه رؤياي فقولوا لي ما تأويلها؟ فقال أبو طالب: ها نحن إليها سائرون، وفي خطبتها معولون! فما أصدق رؤياك يابن أبي قحافة! فقال: بالله عليكم خذوني معكم! فقال أبو طالب: سر معنا.

ثم ساروا حتى دخلوا منزل خديجة، فسبقتهم الجواري إليه، وأخبرن بقدومهم. وكان خويلد يشرب الخمر، وقد لعبت الخمر في رأسه، فلما نظر إليهم قام قائماً على قدميه وقال: مرحباً بكم وأهلاً وسهلاً يا أبناء أبنائنا، وأعز الخلق علينا! ثم رفع منازلهم وأعلى مراتبهم، وقدم لهم طعاماً فقال له أبو طالب: يا خويلد ما أتينا لطعام ولا لشراب! ولكن أنت تعلم أنكم لنا قرابة، وبنو عم، وليس لأحد شرف كشرفنا، ونحن وأنتم في الحال سواء، ونحب أن لا تخالفنا، ونريد أن نقرب ابنتك من سيدنا النبي محمد، فهو يزينها ولا يشينها، وقد جئناك خاطبين ولابنتك خديجة راغبين! فقال خويلد: من الخاطب؟ ومن المخطوبة؟ قال أبو طالب: أما الخاطب فهو ابن أخينا محمد، وأما المخطوبة فهي ابنتك خديجة. فلما سمع خويلد كلامه اصفر لونه وتغير

وجهه وازورت حدقته وقال: والله إن فيكم الكفاية وأنتم منا وأعز الخلق علينا، غير أن خديجة امرأة قد ملكت نفسها، ورأيها أعلى من رأيي، وأما أنا فلا يطيب لي أن يخطبها الملوك، ويكون زوجها فقيراً صعلوكاً! قال: فقام حمزة إليه وانتهره وقال: يا خويلد، ما يعادل اليوم بالأمس، ولا يشاكل القمر بالشمس، يا بادي الجهل ويا سخيف العقل! أما أنت فقد غاب رشدك وذهب عقلك، يا ويلك أتثلب[1] ابن أخينا محمد؟ أما علمت أنه لو احتاج إلى أموالنا وأرواحنا، فدينا الكل بين يديه، وأحضرنا الجميع لديه؟ ولكن سوف يبان لك عقيب قولك!.

ثم نفض ثيابه وقام، ونهض إخوته، وساروا إلى منازلهم وقلوبهم تغلي، كغلي المرجل على النار، فبلغ الخبر إلى خديجة، فزاد بها الوجد، واشتد عليها الغرام والكمد، فالتفتت إلى العبيد والجواري وقالت: يا ويلكم عليَّ بعمّي ورقة. فلم يكن إلا ساعة، وإذا قد دخل عليها عمّها ورقة، فقامت إليه ورفعت محله وأعلت منزلته وقالت: يا عم لا غابت عني طلعتك، ولا عدمت رؤيتك! ثم أطرقت إلى الأرض وقطبت حاجبيها، فنظر إليها وقال: يا خديجة كأنك راغبة في الزواج قالت: نعم. قال: يا خديجة خطبتك الملوك والقبائل وصناديد العرب، فلم ترضي أحداً منهم! قالت: ما أُريد من يخرجني من مكة، ولا أُريد إلا من سكّانها! قال: يا خديجة قد خطبك شيبة بن أبي ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، والصلت بن أبي يهاب، فأبيتِ أن تتزوجي بأحد منهم! قالت: يا عم ما أُريد من كان فيه عيب! قال لها ورقة: صفي لي عيوبهم. قالت: صفها لي أنت لأنك بهم عارف. قال: يا خديجة، أما شيبة، ففيه سوء الظن، وأما عقبة فكبير السن، وأما أبو جهل فإنه بخيل كره النفس، وأما الصلت فإنه رجل مطلاق. قالت: لعن الله من ذكرت! فهل خطبني غير هؤلاء أحد؟ قال: نعم خطبك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف! قالت: يا عم هل تعرف فيه عيباً؟ قال: وكان ورقة عنده علم من الكتب السابقة، بما يكون من أمر النبي ﷺ، فلما سمع ورقة كلامها طأطأ رأسه، ثم قالت: صف لي عيبه يا عم! قال لها: أصله أصيل وفرعه طويل، وطرفه كحيل

---

(١) تثلب: تعيب.

وخلقه جميل وخده أسيل، وفضله عميم وجوده عظيم! ثم قال: والله يا خديجة ما كذبت فيما قلتِ! قالت: يا عم صف لي عيبه. فقال ورقة: يا خديجة وجهه أقمر وجبينه أزهر، وطرفه أحور ولفظه أحلى من السكر، ورائحته أزكى من المسك والعنبر. إذا مشى تخالينه البدر إذا بدر، لا والله بل هو أنور وأزهر! قالت: يا عمّ صف لي عيبه، قال: يا خديجة مخلوق من الحسن الشامخ، والنسب الباذخ وهو أحسن العالم سيرة، وأصفاهم سريرة. لا بالطويل الشاهق ولا بالقصير اللاصق، إذا مشى تخالينه ماءً يتحدر، وشعره كالغيهب الأدجر[1]، وخده أزهى من الورد الأحمر، ورائحته أحسن من الكافور والعنبر. ثم قال: يا خديجة إني أُحبه! قالت: أراك يا عم كلما قلت لك: صف لي عيبه، مدحته! قال: يابنتي؛ وهل أنا وحدي أمدحه! ثم إن ورقة ازداد في مدح رسول الله ﷺ وجعل يقول (**أفلح من يصلي على الرسول**):

لقدْ علِمَتْ كلُ القبائلِ والمَلا
بأنَّ حبيبَ اللهِ أطهرُهُم قلْبا
وأصدقُ مَنْ في الأرضِ قولاً وموعداً
وأفضلُ خَلْقِ اللهِ كلِّهِمِ قُرْبا

ثم قال: يا خديجة إن محمداً حليم كريم رؤوف رحيم، رسول أمين عظيم وصول فهيم عطوف. قال: فلما سمعت خديجة ذلك الوصف قالت: يا عم، إنهم يثلبونه! قال: إنما يثلبه أولاد الزنا! ولكن يقولون إنه فقير الحال، لا مال له! قالت: يا عم الشاعر يقول: (**أفلح من يصلي على الرسول**).

إذا سلِمَتْ روسُ الرجالِ منَ الأذى
فما المالُ إلا مثلُ قَلْمِ الأظافِرِ

ثم قالت خديجة: إن كان ماله قليلاً فمالي كثير، وأنا يا عم أُحبه، ولكن اكتم ذلك عليَّ! قال ورقة: إذاً والله تسعدين وترشدين، وتفوزين بنبي كريم ورسول عظيم! والله يا خديجة إنه نبي هذه الأُمة وكاشف الظلمة! قالت: يا عمّ،

---

(١) الغيهب: الظلمة. والأدجر: الشديد السواد.

والله إني أُحبه وأنا التي أمرته أن يخطبني من أبي، وأبي قد أبعده! قال ورقة: ما الذي تعطينني حتى أُزوجك من محمد في هذه الساعة؟ قالت: يا عم، وهل لي شيء دونك، أو يخفى عليك أمري، أو يحجب عنك مالي، وذخائري لك وبين يديك؟ وأنا في الغرام كما قال الشاعر:

إذا تحققْتُـــم مـــا عنـــدَ صـــاحِبِكُـــم
مـــنَ الغـــرامِ فـــذاكَ العـــذرُ يكفِيـــهِ
أنتـــمْ سكنتُـــم بقلبـــي وهـــوَ منـــزِلُكـــم
وصـــاحـــبُ البيـــتِ أدرى بـــالّـــذي فيـــهِ

قال ورقة: يا خديجة ما أُريد منك شيئاً من حطام الدنيا، وإنما أُريد أن تضمني لي الشفاعة من النبي ﷺ يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة! قالت خديجة: يا عم، إني لا أعلم شيئاً مما تقول! قال: إعلمي أن بين أيدينا حساباً وعقاباً، ومناقشة وعذاباً، ولا ينجو من ذلك الهول العظيم، إلا من اتبع محمداً وصدق برسالته! فيا ويح من زحزح عن الجنة وأُدخل النار! فلما سمعت كلامه قالت: يا عم، لك مني ما طلبت. فخرج ورقة ودخل على أخيه خويلد، وقد غلب عليه السكر، فنهض إجلالاً لأخيه وأجلسه إلى جانبه، والغيظ قد ظهر في وجهه، فقال له خويلد: ما تشرب؟ قال ورقة: ومن يُقتل أخوه كيف يشرب؟ فقال: ومن يقتلني؟ قال إنك تُقتل! قال خويلد: وكيف ذلك؟ قال ورقة: لقد خالفت بني عبد المطلب، وقلوبهم تغلي عليك، كغلي المرجل على النار، وقد عزم حمزة أن يهجم عليك في دارك، ويقلع آثارك وقد حلف بذلك! قال خويلد وقد طارت الخمرة من رأسه: وأي ذنب أذنبته على بني هاشم حتى يقتلوني؟ قال ورقة: سمعت أنك تثلب ابن أخيهم محمداً؟ قال: إن كنت قد فعلت ذلك، وجب عليك القتل! فالصدق أوفى وقائله أتّى، وأعفى! والله ما وطىء الثرى مثل محمد! أنسيت ما جرى له في صغره، وما ظهر منه في كبره؟ والله ما يثلبه إلا لئيم، ولا يبعده إلا زنيم[1]، ولا يبغضه إلا رجيم! قال خويلد: والله يا أخي ما ثلبت الرجل، وإن محمداً خير مني! إنما طلب أن يتزوج بخديجة! قال ورقة:

(١) الزنيم: الدعي.

وإن طلب فما ينكر عليه؟ قال خويلد: والله ما أنكرت عليه، غير أني خشيت من وجهين: أما الأول، تسبّني العرب حيث رددت أكابر أهل مكة، وأُزوجها بفقير صعلوك لا مال له، والثاني أنها لا ترضاه يكون لها بعلاً.

قال ورقة: أما العرب فما منهم أحد إلا ويتمنى أن يكون محمداً. وأما خديجة، فإنها قد عاينت فضله ورضيت به! وأما أنت فقد جلبت لنفسك من عداوة بني هاشم ما لا تطيقه، وإنهم لا يتركونك أبداً، وإن تركوك ساعة أو بعض ساعة، وبعدها كل من لقاك منهم قتلك لا محالة، ولا سيما الأسد الهجوم حمزة، القضاء المحتوم! فوالله إن قبلت قولي ورضيت بشوري، تسير معي حتى أُدخلك على أولاد عبد المطلب، لعلهم يقبلون عذري فيك، ويرفعون عنك هذه العداوة، فإنهم لا يردون عذر من اعتذر إليهم، وتزوج خديجة من محمد، والله ما تصلح إلا له، ولا يصلح إلا لها! قال خويلد: يا أخي أخاف أن أمشي إليهم، فيكون سبب التلف حيث إنهم غضاب عليَّ قال ورقة: أنا أضمن لك هذا الأمر، فقم أنت وأنا. فمضيا حتى دخلا على بني هاشم، فلما وقفا على الباب، وكان الأمر المقدر أن أولاد عبد المطلب في ذلك الوقت مجتمعون، وبينهم النبي ﷺ، فنظر الحمزة إليه وهو مطرق إلى الأرض فقال الحمزة: يا قرة العين، فما يحزنك؟ والله إن أمرتني لآتينّك برأس خويلد! وكان خويلد على الباب يسمع الكلام، فقال لورقة: اسمع! قال ورقة: اسمع أنت لعلك تصدق! وكان ذلك تصديقاً لورقة في كلامه لأخيه خويلد. فقال خويلد: نرجع يا أخي! فقال ورقة: الآن تنظر ما يكون بيني وبينهم، وما أصنع معهم، فإن القوم صادقو اللهجة، واضحو الحجّة، لا يبعدون من قرب إليهم، ولا يهجرون من دخل عليهم.

ثم إن ورقة قرع الباب، فقال النبي ﷺ: هذا ورقة وأخوه خويلد. فقام الحمزة طالباً الباب، فوجد ورقة وأخاه قياماً، فأخبر النبي بذلك، فقال أبو طالب بعد أن وجد ورقة وخويلد: الآن انصلحت الأحوال! فدخل خويلد ويده بيد أخيه خوفاً، والحمزة يفور حنقاً وغيظاً، فنادى خويلد: نعمتم صباحاً ومساءً وكفيتم شماتة الأعداء، يا أولاد زمزم والصفا، وأبي قبيس وحرا! فناداه أبو

طالب: وأنت يا خويلد، كفيت ما تخشى، ولا شمتت بك الأعداء! قال: فانتهره الحمزة وقال له: لا أهلاً ولا سهلاً ولا قرباً لمن طلب منّا بعداً، وأرانا هجراً وصدّاً، وأراد أن يشمت بنا الأعداء! قال خويلد: لا كان ذلك أبداً مني ولا باختياري، وأنتم تعلمون أن خديجة امرأة، وافرة العقل جيدة الذهن مالكة نفسها، وقد تكلمت بهذا الكلام لأسمع ما تقول، والآن قد وجدت المرأة فيكم راغبة، وإليكم محبّة، وقد جئتكم لتقبلوا عذري، وتغفروا ذنبي، والآن أنا لكم محبّ وأنا كما قال الشاعر:

ومِـــنْ عجـــبِ الأيـــام أنَّـــكَ هـــاجِـــري
ومـــا زالَـــتِ الأيـــامُ تُبْـــدي العجـــائِبـــا
ومَـــا لـــي ذنـــبٌ أستحـــقُ بـــه الجَفـــا
وإنْ كـــانَ لـــي ذنـــبٌ أتيتُـــكَ تـــائِبـــا

والآن يا أولاد عبد المطلب، إن خديجة لكم محبة وفيكم راغبة، وأنا أيضاً موافق لها ولكم، لأجل القرابة ولا تشمتوا بنا الأعداء وأنشأ يقول:

عـــوِّدونـــا الـــوصـــالَ فـــالـــوصـــلُ عـــذبُ
وارْحَمـــوا فـــالفـــراقُ والهجـــرُ صعْـــبُ
زعَمـــوا حيـــنَ عـــاينـــوا أنَّ جُـــرْمـــي
فـــرطُ حبّـــي لهـــمْ ومـــا ذاكَ ذنـــبُ
لا وحـــقِّ الخضـــوعِ عنـــدَ التّـــلاقـــي
مـــا جـــزاءُ قلـــبٍ محـــبٍ ألاّ يُحَـــبُّ

فقال حمزة: يا خويلد أنت عندنا عزيز كريم، وما ظنّنا أن تبعدنا عن قربك فوالله يا بن العم، ما هو قولنا لك إلا كما قال الشاعر:

عليكُـمْ بحصـنٍ مـن رجـالٍ فـإننـي رأيتُ حصوناً من صخورٍ تهدَّمتْ

قال الراوي: ثم إن ورقة قال: والله إنّا لمحمد محبين، ولرأيكم غير مخالفين! وإنما نريد أن تكون هذه الخطبة في غداة غد، في منزل خديجة على

رؤوس الأشهاد، حتى يحضرها الحاضر والبادي، ليشهدوا علينا وعليكم، وليكون منا لكل واحد الحجة على صاحبه والسلطان! قال حمزة: ونحن لا نخالف لك أمراً. قال ورقة: إنما هو كلام أُعلمكم أن أخي ليس له لسان يخلصه عند العرب، وأُريد أن يوكلني في أمر ابنته خديجة، فإذا وكلني كنت أنا المندوب عنها، والمتكلم بين أيديكم، وأنتم تعلمون أني قد قرأت في سائر الكتب، وفهمت سائر الأديان. قال الحمزة: قد صدق ورقة فيما قال يا خويلد؟ هو وكيلك عن ابنتك؟ قال خويلد: نعم. قال ورقة: اسمعوا كلامه. قال خويلد: يا بني هاشم أُشهدكم عليَّ أني وكلت أخي في أمر ابنتي خديجة، وقد قبلت منه سائر الأحوال. قال ورقة: أُريد أن يكون هذا عند الكعبة بحضور أكابر مكة. فساروا حتى وصلوا إلى الكعبة، فوجدوا العرب مجتمعين بين زمزم والصفا، وهم يتحدثون مثل النضر بن الحارث، ومطعم بن عدي، والصلت بن أبي يهاب المخزومي، ولائمة بن الحجاج، وهشام بن المغيرة وأبو الجهل بن هشام، وأخوه البختري وعثمان بن مالك، وسادات قريش. فلما أشرف ورقة وخويلد نادى ورقة: نعمتم صباحاً ومساءً وكفيتم كيد الأعداء، يا أولاد زمزم والصفا، وأبي قبيس وحراء، ومن بهم تضرب الأمثال، في جميع الأقطار. فزعق العرب على بكرة أبيهم إجلالاً، وقالوا أهلاً وسهلاً بك يا أبا البيان ! قال ورقة: يا معاشر قريش يابني زهرة ويابني مخزوم، ويا بني الحارث ويابني عدي ويابني لؤي ويابني غالب، ويا جميع من حضر إني سائلكم، ماتقولون في خديجة؟ فنطقت العرب وقالوا: بخٍ بخٍ! لقد ذكرت والله الشرف الأوفى، والنسب الأعلى والرأي الأذكى، ومنْ لا يوجد لها نظير في النساء! قال ورقة: أيجوز أن تكون بلا بعل؟ قالت العرب: هذا الأمر ليس بواجب، ولقد شاهدنا الخطاب لها كثيراً، وقد أبت أن تقبل منهم أحداً قال ورقة: يا سادات العرب، ألا أُخبركم أن أخي قد وكلني في أمر ابنته خديجة، وهي قد أمرتني أن أُزوجها، وقد أخبرتني أن لها رغبة في سيد من سادات قريش، وسألتها أن تسميه لي فأبت عن ذلك، فأُريد أن تحضروا في غداة غد في منزل خديجة، لتسمعوا الوكالة، فما يسعكم غير دارها. فإذا حضرتم غداً، تنظرون أي سيد يكون طلبتها، فتشير إليه وتسمّيه.

قال الراوي: فلما سمعوا كلامه، لم يبق سيد إلا وقال في نفسه: أنا المطلوب. فقالوا: يا ورقة، أنت نعم الوكيل ونعم الكفيل! فقال ورقة: تكلم يا أخي ما دامت السادات حضور! قال خويلد: يا سادات العرب أُشهدكم أني نزعت نفسي من أمر ابنتي خديجة، وخلعته من يدي وجعلت أخي ورقة وليّاً على ذلك، وهو وكيلي وكفيلي، فلا أمر فوق أمره، ولا رأي فوق رأيه قال ورقة: اسمعوا يا جملة من حضر كلامه، وأنه غير مقهور ولا مجبور، ولا مغلوب على رأيه، ولا مخمور، وأني أُزوجها بمن شئت، وأطرد عنها من شئت! فقالت العرب: شهدنا بجوار البيت الحرام. وخرج خويلد وقد ذهب حكمه من خديجة. قال: وسار ورقة إلى منزل خديجة وهو فرح مسرور، فلما نظرته قد أقبل قالت: مرحباً وأهلاً وسهلاً بك يا عمّ! هل قضيت لي حاجة؟ قال: إني أُبشرك! فقد رجع أمرك إليّ، وقد صرت وكيلك وكفيلك! وفي غداة هذه الليلة أُزوّجك بمحمد! فلما سمعت كلامه، خلعت عليه بدلة قد اشتراها ميسرة من الشام بخمسمائة دينار، فقال ورقة: لا ترغبيني في حطام الدنيا، فما أنا راغب فيه، ولا أُريد إلا الذي كان بيننا! قالت: لك ذلك! ثم قال لها: جهّزي أمرك وأخرجي ذخائرك، وعلّقي ستورك وانشري حللك، واكمدي عدوّك وحاسدك، فما يدخر المال إلا لمثل هذا اليوم! واعملي وليمة عظيمة، ولا تدعيها تعوز شيئاً، فإن العرب في غداة غد يأتون إلى منزلك، ويجتمعون فيه، وهو يوم فرح وسرور.

فلما سمعت منه ذلك نادت عبيدها وجواريها، وأمرتهم أن يخرجوا الستور والمساند، والوسائد والبسط المختلفة الألوان، والحلل الكثيرة والعقائد والقلائد، والمصاغ الباهرة والثياب الفاخرة. ولقد روت الرواة الذين كانوا مشاهدين تلك الليلة، أن الذين كانوا برسم الخدمة من العبيد والجواري، كانوا مائتين وستين عبداً ومائتين وستين أمة، كلهم مماليك لخديجة! وكان لها من أواني الذهب مائة طشت، ومن الفضة مثلها. وكان لها ثمانون هاوناً من الذهب الخالص، لدقّ العطورات، ومائة كرسي من المرمر ومائة كرسي من العاج المصفح المرصع بالذهب الوهاج وبالدر والجوهر، وكان لها مال لا يحصى،

فذبحت الذبائح ونحرت النحائر، وعقرت العقائر، وعقدت الحلاوات من القند[1] والتمر، وجمعت من فواكه الطائف والشام، وما يناسب ذلك. وكان ورقة لما خرج من عندها، قصد منزل أبي طالب، فوجده وإخوته مجتمعين، فزعق بهم وقال لهم: ما يقعدكم عن إصلاح شأنكم وأموركم؟ انهضوا في أمر خديجة، فقد صار أمرها إليّ، وفي غداة غد أُزوجها بمحمد إن شاء الله تعالى! وما فعلت ذلك إلاّ محبة مني لابن أخيكم محمد! فعندها قال النبي ﷺ: لا أنسى الله فعالك يا ورقة! ثم نادى أبو طالب: الآن طابت لقلبي المنيّة ثم تبادر بنو هاشم في إصلاح شأنهم، وخرج ورقة منصرفاً عنهم فرحاً مسروراً، فعندها قام أبو طالب لعمل الوليمة والحمزة وإخوته عنده طرباً وعجباً، وشهدت الملائكة وسجدت للملك المنّان، وتجلى الجبار وأوحى إلى رضوان خازن الجنان، يتزين ويزين الجنان، ويخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، والحور والولدان، ويصفّ أقداح الشراب، ويزين الكواعب والأتراب. وأوحى الله تعالى ذكره إلى الأمين جبرائيل، أن ينشر لواء الحمد على الكعبة. ثم تطاولت الجبال وسبحت بحمد الملك المتعال، على ما خص به نبيه ورسوله وحبيبه، وفرحت به الأرض وأظهرت السرور، وأخرجت الزهر والألوان فرحاً بما خص الله به النبي!.

قال الراوي: وباتت مكة تغلي كغلي المرجل على النار، فلما أصبح الصباح، أقبلت الطوائف والقبائل وسادات مكة، ودخلوا على خديجة، فوجدوها قد أعدت لهم المساند والوسائد، والفرش والكراسي، ليجلس كل واحد منزلته. فدخل أبو جهل يجرّ أطماره ويسحب أذياله، وقد أرخى عذبته وراءه، ورد حمائل سيفه في عنقه، وقد أحدقت به بنو مخزوم، فنظر إلى صدر المجلس، وقد نصب فيه أحد عشر كرسياً قد صف بأعلى مكان، فلم ير أحسن منه، فتقدم إليه وزعم أنه له ولقومه، فصاح به ميسرة وقال له: يا سيدي تمهل قليلاً ولا تعجل، فقد وضعت منزلتك في بني مخزوم. فرجع وهو خجلان، وجلس عند قومه. فما كان إلا ساعة، وإذا بصيحات قد علت، وصرخات قد

---

(١) القند: عسل قصب السكر إذا جمد.

ارتفعت، والناس قد تواثبت، وإذا محمد ﷺ والحمزة إلى جانبه، وسيفه مجرد بيده، وهو ينادي: يا معاشر السادات وأرباب الأقدار ومعدن الفخار! الزموا الأدب وقلّوا الكلام، وانهضوا على الأقدام، ولا تطلبوا الملام! ودعوا الكبر فقد جاءكم الزمان الداعي إلى دار الهوان، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، سيد الأشراف ومقري الأضياف، وراقي ذروة الأحقاف، المتوّج بالأنوار صاحب السكينة والوقار، وقد قدم عليكم!.

فنظرت العرب وإذا بالنبي ﷺ قد دخل، وهو متعمم بعمامة سوداء، يلوح ضياء جبينه من تحتها، وعليه قميص عبد المطلب وبردة العباس، وفي رجليه نعلان لجدّه عبد المطلب، وفي يده قضيب إبراهيم وقوس إسماعيل، ومتختم بخاتم من العقيق الأحمر، وقد شمّر طرف بردته. وأحدق به الناس ينظرون إليه، وقد أحاطت به عشيرته والحمزة بجنبه، وقد شخصت إليه الأحداق، وتطاولت إليه الأعناق من جميع المخلوقات، يسلّمون عليه. وقد ذهلت له الأُمم، وقام كل قاعد على قدم، وقد خرست منهم الألسن، وما فيهم من يتكلم. حتى سبقهم بالسلام، وأشار إليهم بالكلام فنهضوا لهيبته قياماً على الأقدام، ولم يبق منهم جالس إلا أبو جهل، وقال في نفسه: إن كان الأمر لخديجة، لتأخذنّ محمداً فنزل به الحسد، وظهر به الكمد! فتقدم إليه الحمزة كالأسد الغضبان، وقبض على أطرافه وقال له: قم لا سلمت من النوائب، ولا نجوت من المصائب! فزاد به الغيظ، ثم وضع يده على قائم سيفه، فسبقه إليه الحمزة الهجوم، وقبض على يده حتى نبع الدم من تحت أظافره، فوكزه الحارث وقال له: ويلك يابن هشام فما أنت عديل من نهض إليك! فإن لم تفعل لأنزعن رأسك عن بدنك! فقعد مقهوراً وخاف أن تعلم خديجة بما جرى عليه، لأنه كان ممن يرجو أن يتزوج بها.

فلما استقر بالناس الجلوس، إذا هم بصرخات قد ارتفعت، والناس قد تواثبت، وإذا هم بخويلد قد أقبل، وهو يزبد ويرعد ويزعق كالبعير الهائج، وقد خرج الزبد من أشداقه، فدخل ولم يسلم على أحد، ثم دخل على خديجة. فلما صار معها خلف الحجاب، ورفع الستر قال لها: يا خديجة أين عقلك، وأين

سؤددك؟ أنا ما رضيت لك بالملوك والأكاسرة، والشجعان والأبطال من قريش، وقد بذلوا لك الجزيل من المال، فلم ترضي بهم ولم أرضهم لك! فكيف رضيت بصبيّ يتيم صعلوك فقير، بالأمس كان لك أجيراً، واليوم لك بعلاً يصير؟ لا كان ذلك أبداً ولو قتلت! ولئن ذكرته لأعلونّك بهذا السيف! فاليوم لا شك فيه تسفك الدماء، وترمل النساء، وتيتم الأطفال! ثم نهض على قدميه، وأخذ سيفه بيده، كأنه مجنون متطير، حتى وقف بالأبطح، ثم عاد إلى منزل خديجة، وهو كأنه الجمل الهائج، من شدة السكر، ووقف على رؤوس الناس وقال: يا معاشر العرب من بني زهرة ومخزوم، وبني عبد مناف وبني لؤي وبني عبد الدار، وأهل زمزم والصفا أُشهدكم عليَّ أني لم أرض محمداً لابنتي بعلاً، ولو دفع لي وزن أبي قبيس وحراء! ومن يلزمني به فما بيني وبينه إلا السيف! فما مثلي من يخدع بشرب المدام، ولا يلح عليه بالكلام!. والذي يتطاول في الزواج لا كان، ولا عمرت به الأوطان، ولا يكون ذلك أبداً! ثم إن خويلد تمثل: **(أفلح من يصلي على الرسول)**.

ولـــو أنّهـــا قـــالـــتْ نعَـــمْ لعلَـــوْتُهـــا
بحـــدِّ حســـامٍ للجمـــاجِـــمِ فـــاصِـــلِ
فمـــنْ رامَ تـــزويـــجَ ابنتـــي بمحمّـــدٍ
وإنْ رضيَـــتْ يـــا قـــوم ليـــسَ بفـــاعِـــلِ
وليـــسَ رضـــى التـــزويـــجِ بـــالشـــرْبِ نـــافـــعٌ
وهـــذا مقـــالُ الحـــقِّ هـــلْ مـــن مقـــابِـــلِ

قال: فلما سمع الحمزة كلام خويلد، التفت إلى أبي طالب وقال له: قم فما بقي للجلوس موضع، فقوموا بنا فما بقي قعود على إثارة الفتن! فبينما هو كذلك، إذ أقبلت جارية خديجة وقالت: يا أبا طالب، إن مولاتي تريدك فكلّمها. فوقف أبو طالب خلف الحجاب، فقالت له خديجة: نعمت صباحاً يا سيد الحرم، فلا تغتر بشقشقة أبي خويلد، فإنه ينصلح بأقل من شيء. ثم أخرجت له كيساً فيه ألف دينار، وقالت له: يا سيدي خذ هذا الكيس، وسر به إلى أبي، كأنك تخاطبه وتعاتبه، وصبّ المال في حجره، فإنه يرضى. فسار أبو

طالب حتى لحق به، فقال له: يا خويلد، أُدن مني. فقال: لا أدنو منك! فقال: يا خويلد إنه كلام تسمعه، وإن لم يرضك وإلا فما أحد يغضبك! فدنا من أبي طالب، ففك أبو طالب الكيس، فصب المال في حجره، وقال: يا خويلد هذا المال هدية من ابن أخينا لك، غير مهر ابنتك! فلما رأى خويلد المال، انطفت ناره وخمد شراره، وأقبل حتى وقف في الموضع الأول ونادى: يا معاشر العرب من قريش، اسمعوا كلامي وافهموا مقالي! فوالله ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء[1] بأفضل من محمد! وقد رضيته لخديجة بعلاً ورضيتها له زوجة وأهلاً، على رغم أنف الحاسدين والمعاندين، وأنتم كونوا على ذلك من الشاهدين! قال: فماج العرب فيما بينهم، وجعلوا يتعجبون من كلامه ويقولون: ساعة يذمّه وساعة يمدحه! والذي شاهد المال والحال ساكت لم يتكلم. فلما سمع العباس ذلك قام قائماً على قدميه ونادى: يا معاشر العرب، لا تنكروا الفضل والمجد لأهله، وأنتم تعرفون الشمس المضيئة، وتحيلونها عن مطلعها! فهل سقيتم الغيث إلا بمحمد؟ وهل اخضر زرعكم إلا بمحمد؟ وكم له عليكم من أيادٍ كتمتموها، وآيات ضيّعتموها؟ وبالله أُقسم ما فيكم من يعادله في صيانته وعفّته، وخلقه وأمانته، وأنتم تبغضونه! فلو رحل عنكم لساءكم رحيله، وشق عليكم بعده. واعلموا أن محمداً لم يتزوج خديجة لمالها، ولا لكثرة رجالها، واعلموا أن المال زائل والفخر لا يزول، فلا تظهروا الشر ولا تطيلوا الفكر! وكأنما ألجمهم بلجام وأسكتهم عن الكلام. قال: ثم إن خويلداً أقبل وجلس إلى جانب النبي، فأمسك الناس عن الكلام، حتى يسمعوا ما يقول خويلد. فقال: يا أبا طالب، ما الذي يؤخركم عما أنتم طالبون؟ افصلوا الأمر فلكم الحكم، وأنتم الأحبّاء ولابن أخيكم الرضا، وأنتم الرؤساء والخطباء! فليخطب خطيبكم، ويكون الفوز لنا ولكم!.

فقام أبو طالب وأشار إلى الناس أن اسكتوا، فسكتوا فقال: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعلنا من نسل إبراهيم الخليل، وأخرجنا من سلالة إسماعيل، وشرّفنا وفضّلنا على جميع الأُمم، وأنزلنا في حرمه، وأسبغ

---

(١) الخضراء: السماء. أقلت: حملت. الغبراء: الأرض.

علينا نعمه، وصرف عنّا شر نقمه، وجعلنا في البلد الحرام وساق لنا الرزق من كل فج عميق، ووادٍ سحيق. الحمد لله على ما أعطانا، وبه حبانا، وأمرنا بالمقاربة والوصل، ليكثر منا النسل. وبعد هذا يا معشر من حضر، إن ابن أخينا محمداً خاطب لكريمتكم الموصوفة، وفتاتكم المعروفة، المذكور فضلها، الشائع خبرها، خطبها من أبيها خويلد على ما يحب من المال. فنهض ورقة قائماً، وكان إلى جانب أخيه خويلد وقال: نريد مهرها المقبل دون المؤجل، أربعة آلاف دينار، ومائة ناقة حمر الوبر سود الحدق، لم يعلها فحل، وثلاثين أمة وليس ذلك بكثير عليكم، فهل تجيبوننا إلى ما طلبنا؟ فقال أبو طالب: رضينا بذلك. قال ورقة: قد زوجت خديجة بمحمد وهو كفء كريم! فنهض الحمزة وكان معه دراهم، فنثرها على رأس كل من كان حاضراً، وكذلك باقي اخوته، فقال أبو جهل: يا قوم رأينا الرجال يمهرون النساء، وما رأينا النساء يمهرن الرجال! قال: فنهض إليه أبو طالب وقال: يا لكع[1] الرجال ويا شين الفعال! مثل محمد يحمل إليه ويعطى، ومثلك لا يهدى إليه ولا يقبل منه، ولا يعطى ولا يرضى به!.

قال الراوي: ثم سمع الناس منادياً ينادي من السماء: إن الله قد زوج الطاهر بالطاهرة، والصادق بالصادقة. ثم رفع الحجاب، وقد خرج منه جوارٍ بأيديهن نثار ينثرنه على الناس، فأمر الله عز وجل جبرئيل أن يرسل على الناس الطيب، على البر والفاجر، وكان الرجل يقول لصاحبه: من أين لك هذا الطيب؟ فيقول: هذا من طيب محمد! ثم نهضوا في إصلاح شأنهم والولائم، وانصرف الناس إلى منازلهم، ومضى النبي ﷺ إلى عمه أبي طالب، وأعمامه حوله، واجتمعت نساء بني عبد المطلب وبني هاشم في دار خديجة، والفتيان يضربون الطارات والدفوف. ثم إن خديجة بعثت من يومها إلى النبي ﷺ أربعة آلاف دينار وقالت له: يا سيدي أنفذ إلى عمك العباس والحمزة هذه الدنانير، يعطيها إلى أبي خويلد. وأنفذت مع المال خلعة سنية. فسار العباس والحمزة إلى منزل خويلد، وألبساه الخلعة، ودفعا إليه المال، فنهض خويلد من

---

(١) اللكع: اللئيم.

ساعته وأتى إلى منزل خديجة وقال: يابنتي هيّأت نفسك للدخول؟ فهذا مهرك قد أنفذوه إليّ، وقد وهبوا لي هذه الخلعة. والله يا بنتي ما تزوجت النساء مثلك بمثل محمد، لا في الحسن ولا في الجمال! وقد حمل إليك هذا المال! ولم يدر أنه من عندها فسمع أبو جهل ذلك، فجعل يبوح به بين الناس، فبلغ الخبر إلى أبي طالب، فتقلد سيفه ووقف في الأبطح، والعرب مجتمعون وقال: يا معاشر العرب، قد بلغنا قول قائل وعيب عائب، فإن تكن النساء قد قمن بواجب حقّنا، فليس ذلك بعيب! ويحق لمحمد أن يعطى ويهدى إليه ويكرم! فمن ساءه ذلك، فعلى رغم أنفه، ومن تكلم في ذلك، عجّلنا حتفه! فبلغ الخبر خديجة، فصنعت طعاماً ودعت نساء المبغضين، فلما أكلن قالت لهن: يا معاشر النساء، بلغني أن بعولتكن عابوا عليّ فيما فعلت، وأنا أسألكن، هل في مكة مثله، أو في الأبطح شكله، أو من يعادله في حسنه وجماله، وكرمه، وفضله، وعقله وأخلاقه المرضية، وأحواله الملكوتية، وأمانته وصيانته، وما قد خصه الله به من المزايا الحسنة؟ وأنا أخذته لأجل ما رأيت منه وسمعت عنه، وقد رأيت منه أشياء لم أرها من أحد غيره! فلا يتكلم أحد بما لا يعنيه!.

فكفّ كل حاسد ولسان عن الكلام، وزاد بالحاسدين الحسد. ثم إن خديجة قالت لعمّها ورقة: يا عم، خذ هذه الأموال والهدايا، وسر بها إلى محمد، وقل له: إني وأموالي وجمالي وجواريَّ وعبيدي وما أملك، كلها له وبين يديه، وروحي فداه وفي ملكه، يتصرف فيها كيف شاء وأراد! وذلك بعد أن تسلم عليه سلاماً كثيراً. فوقف ورقة بين زمزم والصفا، ونادى بأعلى صوته! يا معاشر العرب، إن خديجة بنت خويلد، تشهدكم على أنها قد وهبت جمالها وأموالها وعبيدها وحالها، وما ملكت يمينها، والمواشي والصداق المؤجل والمعجل هدية لمحمد، إجلالاً وإعظاماً له ورغبة فيه، فكونوا عليها من الشاهدين. فتركهم وطلب منزل أبي طالب، وكانت خديجة قد أرسلت جاريتها، ومعها خلعة سنية، وقالت لها: ادفعيها إلى حبيبي محمد وقولي له: إذا دخل عمّي ورقة عليه، فليخلعها عليه ليزداد فيه محبة! فلما دخل عليه ورقة وقدم المال بين يديه، أفرغ النبي ﷺ عليه الخلعة، وزاده خلعة أُخرى فلما

خرج ورقة، تعجب الناس من حسن لباسه.

قال الراوي: ثم إن خديجة أخذت في جهازها وأعدت أواني الذهب والفضة، وفيها الطيب والمسك والعنبر. فلما كانت الليلة الثانية، دخلت عمات النبي، ونساء بني عبد مناف، والفتيات معهن الطارات والمزامير، ينشدن الأشعار، ويذكرن اتصال خديجة بالنبي. واجتمعت الأكابر والسادات في اليوم الثالث كعادتهم، قال: فنهض العباس وجعل يقول:

أبشري بالمواهب ... آلَ فهرٍ وغالب
شاعَ في الناس فضلكم ... وعَلا في المراتب
افخَروا يا لَقومِنا ... بالثناءِ والرغائب
قدْ فخرتُم بأحمد ... زينِ كلِّ الأطايب
فهو البدرُ نورُه ... طالعٌ غيرُ غائب
قدْ ظفِرَتْ خديجة ... بجليلِ المواهب
بفتى هاشمٍ الذي ... ما لهُ من مُناسِب
جمعَ الله شملَكم ... فهو ربُ المطالب
أحمد سيّدُ الورى ... خيرِ ماشٍ وراكب
فعليهِ الصلاةُ ما ... سار عيسٌ براكب[1]

قال الراوي: ثم إن خديجة قالت: إن محمداً له شأن عظيم وفضله عميم، وجوده جسيم لا ينكر، وشانئه[2] هو الأبتر. ثم نثرت عليهن من المال والطيب، ما أدهش الحاضرات منه، وشجرة طوبى تنثر من طرائف الجنة على الحور والولدان، فجعلن يلتقطنه في الأسفاط، ويتهادينه إلى يوم القيامة! قال: ثم إن خديجة بعثت إلى منزل أبي طالب غنماً كثيراً، وسمناً ودراهم ودنانير، وثياباً وبخوراً وطيباً، فعمل أبو طالب وليمة عظيمة. فوقف النبي ﷺ وشد وسطه، وألزم نفسه الخدمة للناس، وأقام أهل مكة ثلاثة أيام بلياليها في

---

(١) العيس: كرام الإبل.

(٢) شانئه: مبغضه.

الوليمة، وأعمام النبي يخدمونه. وأنفذت خديجة إلى الطائف وغيره، بالصنّاع، وفصّلت الثياب والحليّ، وصاغت الصيّاغ من الذهب والفضة على هيئة الشجر، وأجرت عليه الذهب، وعملت فيه التماثيل من المسك والعنبر. ولم تزل تعمل في زينة العرس ستة أشهر، حتى فرغت من جميع ما تحتاج إليه، وعلقت ستور الديباج المثقل بالوشي، وسبطت الدار بالفرش المختلفات الألوان، ووضعت الوسائد من الديباج والخز، وعملت لرسول الله مجلساً حسناً بالحرير الخالص والوشي، ونصبت فيه سريراً من العاج والأبنوس، مصفحاً بصفائح الذهب الوهاج، وألبست جواريها وخدمها ثياب الحرير والديباج المختلفات الألوان، ونظمت شعورهن باللؤلؤ الرطب، ووضعت في أرجلهن خلاخل الذهب والفضة، ووضعت في أعناقهن قلائد الذهب، وشدت في أوساط الغلمان مناطق الذهب، وأوقفت الخدام بأيديهن المجامر المذهبة، فيها العود والبخور، والند والعنبر، وبعضهن بأيديهن المراوح المنقوشة بالذهب، مضيئة بالفضة. وأوقفتهن عند المجلس الذي يجلس فيه رسول الله، ودفعت إلى بعضهن الدفوف والمزامر والشموع، ونصبت في الدار شمعاً كثيراً، كأمثال النخيل، فلما فرغت من ذلك، دعت نساء أهل مكة جميعهن، فأقبلن إليها ورفعت مجلس عمات النبي، وأرسلت إلى أبي طالب أن يحضر وقت الزفاف.

فلما كانت تلك الليلة، أقبل النبي ﷺ إلى أعمامه، وعليه ثياب من قباطي مصر، والحرير الأخضر، وعليه عمامة حمراء، وعبيد بني هاشم بأيديهم الشموع والمصابيح. وقد اختلفت الناس في شعاب مكة ينظرون إلى النبي، وقد وقفوا في السرادقات، والنور يخرج من بين ثناياه[1]، ومن تحت ثيابه ومن بين عينيه. فلما وصلوا إلى دار خديجة، دخل هو وأعمامه، وأغلقوا الباب وجلس النبي ﷺ.

قال ناقل الحديث: فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل أن ينادي في السماوات السبع، وأن يجمع الملائكة بالبيت المعمور. فجمعهم ووقفوا صفوفاً وقالوا: يا جبرئيل، لماذا جمعتنا؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى يريد أن يشرّفكم بعقد نكاح

---

(١) الثنايا: الأسنان الأمامية.

نبيّه وصفيّه وحبيبه محمد ﷺ فتحضرونه وتشاهدونه! فرفعت الملائكة أصواتها بالتسبيح والتقديس. وأوحى الله تعالى إلى رضوان خازن الجنان أن يزين الجنة والبيت المعمور، بفرش العبقري الحسان والإستبرق، وعلق فيه قناديل الدر، بسلاسل الذهب والمرجان، وصفّ حول البيت منابر الذهب الأحمر وكراسي الكرامة، ونصب منبراً من الياقوت الأحمر، وأن يزين الجنان، ويخرج الحلة التي خلقها لعرس حبيبي محمد، وأن يلبسها جبرائيل لمحمد ﷺ. ثم يخرج منطقة آدم، فيمنطقه بها جبرئيل، فعند ذلك نودي: إرق منبر العز والكرامة، فرقي جبرئيل المنبر، حتى إذا استوى على المنبر أنشأ الله على رؤوس الأشهاد من الملائكة، سحابة من نور حشوها نثار المسك والكافور، وأمرها أن تمطر على الملائكة حتى غرقتهم بالمسك والكافور. فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل أن اخطب خطبة النكاح لحبيبي محمد، وزوّجه خديجة بنت خويلد! فقام جبرئيل خطيباً وقال: الحمد لله الذي أكرم محمداً بنعمته، وانتجبه من بريّته، واصطفاه من خليقته! الذي وسعت كل شيء رحمته وعلمه، وغلب كل شيء أمره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، واشهدوا يا معاشر الملائكة المقربين، الراكعين الساجدين، المسبِّحين المقرَّبين، وحملة العرش أجمعين، أني زوجت محمداً الأمين بخديجة الأمينة الصفية، الصديقة المرضية، بأمر رب العالمين! فقالت الملائكة: سمعنا وأطعنا وشهدنا! فأوحى الله تعالى إليهم: إني قد قبلت شهادتكم، وزوّجت عبدي بأمتي! فقالت الملائكة: هنيئاً لك يا محمد! وضجّوا بالتهليل والتكبير. قال: فنثرت عليهم شجرة طوبى الدر والياقوت، وأوحى الله تعالى إلى الملائكة أن اهبطوا، ليشهدوا ملائكة الأرض كما أشهدتموهم في السماء.

فهبطت الملائكة بألوية الحمد، والثناء لرب العزة والنور، ورايات الكرامة، وأحدقوا بالكعبة. وألبس الله نبيّه ثوب البهاء، ورداء العز والوقار، وألبسه الله الحلة التي خلقها لعرسه، ومنطقه بمنطقة آدم. فنثر الغلمان والجواري ما كان في الصواني من الطيب، على رأس النبي محمد ﷺ وعلى

الحاضرين، ونصبت الموائد للناس فأكلوا وشربوا، ومكثوا في الأكل سبعة أيام بلياليها، ثم تفرقوا إلى منازلهم. وجلس النبي ﷺ في قبة البهاء، وتردى برداء السناء، وقد ألبسه الله تعالى حلة الاصطفاء، وجلس على سريره، ونوره قد علا على ما كان في بيت خديجة، من الشموع والمصابيح، فذهلت النساء مما رأين من حسنه وجماله ونوره، حتى إن كل واحدة منهن حسدت خديجة، وتمنت أن تكون له زوجة، واحتقرن بعولتهن، لما رأين النبي محمداً ﷺ، وهيأن لخديجة أشياء للجلاء، وقد كان تزويج النبي بخديجة وهي بنت أربعين سنة، فلما دخل عليها ردها الله تعالى له في حال الشباب، كما رد زليخة ليوسف وكما رد سارة لإبراهيم شابة، وكما رد على زكريا زوجته، وغيرهن ممن رددن على الأنبياء. ورد الله خديجة شابة في أحسن سن، كرامة من الله عز وجل لنبيّه محمد! قال: فخرجت خديجة أول مرة، وعليها ثياب مضمخة، منظمة بالدر والجوهر، على رأسها تاج من الذهب الوهاج، منقوش بالفيروزج الأخضر، وفي رجليها خلخالان من الذهب الوهاج، مرصع بالدر والجوهر، وعليها قلائد من الزمرد والياقوت، فلما برزت خديجة ضربن المزامر والدفوف. ثم إن عاتكة عمة النبي جعلت تنشد وتقول، **أفلح من يصلي على الرسول**):

صلّـوا عليـه وسلِّمـوا تسليمـا
فهـوَ المفضَّـلُ مـن بنـي عـدنـانِ
أضحـى الفخـارُ لنـا وعـزٌّ شـامـخٌ
ولقـدْ فخـرْنـا بـالنبـي العـدنـانِ
نلْـتَ العُلـى فينـا وتعلـو فـي الـوَرى
وتقـاصـرَتْ عـن مجـدِك الثقـلانِ
أعنـي محمّـداً الـذي لا مثلَـه
ولـدَ النسـا فـي سـائـرِ الأزمـانِ
فلـهُ المكـانُ والمفـاخـرُ والعلَـى
عـنْ مـدحِـه قـدْ كَـلَّ لِسـانـي

صلّـــوا علـــى خيـــرِ الأنـــامِ محمّـــدِ
حتـــى تنـــالـــوا جنَّـــة الـــرضْـــوانِ
إنَّ الصـــــلاةَ علـــى النبـــيِّ محمَّـــدٍ
مـــنْ أفضـــلِ الأعمـــالِ والأديـــانِ
فتطـــاوَلـــي فيـــه خـــديجـــةُ واعلمـــي
أنْ قـــدْ خُصِصْـــتِ بصفـــوةِ الـــرحمٰـــنِ
لَهِجَـــتْ بـــذكْـــرِك مهْجتـــي ولســـانـــي
وحَلَلْـــتَ مـــنْ قلبـــي بكـــلِّ مكـــانِ[1]
فـــأنـــا بـــذكْـــرِك فـــي البـــريَّـــةِ كلِّهـــا
علـــمٌ وحبُّـــكَ آخِـــذٌ بعنِـــانـــي
سلطـــانُ حبِّـــكَ فـــي الهـــوى غيـــرُ الهـــوى
وبـــهِ يَعْـــزُزُ بـــالهـــوى سُلْطـــانـــي
أنـــتَ النبـــيُّ الهـــاشمـــيُّ محمّـــدٌ
صلّـــى الإلـــهُ عليـــكَ فـــي القـــرْآنِ
فـــلأذكُـــرَنَّـــكَ مـــا بَقِيـــتُ مُعمَّـــراً
حتّـــى الممـــاتِ ولا يَمَـــلُّ لِســـانـــي
فصـــــلاةُ ربِّ مـــــاجِـــــدٍ ومهيمِـــــنٍ
تَتْـــرى عليـــكَ تعـــاقُـــبَ الأزمـــانِ[2]

قال: فلما رآها النبي تبسَّم ضاحكاً، فخرج من فيه نور لحق عنان السماء، حتى أخذ بأبصار الناس، وعلا على نور المصابيح والشموع. ثم خرجت خديجة في الجلوة الثانية على رسول الله ﷺ، وقد علا نور خديجة، وزاد حسنها وجمالها على جميع الحاضرين، وعليها يومئذٍ ثوب من سقلاط أسود، مذهب مرصع بالدر والجوهر واللؤلؤ الأبيض. قال: وكانت خديجة امرأة طويلة بيضاء سمينة، وما كان في نساء مكة أحسن منها، لأنها كانت شمسية كالشمس

(١) لهجت: ثابرت. مهجتي: روحي.
(٢) تترى: متواصلة، متتابعة.

المضيئة! وخرجت وبين يديها صفية عمة النبي ﷺ، وهي تترنم وتقول:

جـاءَ السـرورُ مـعَ الفـرحْ ... ومضـى النحـوسُ مـعَ التـرحْ
أنـوارُنـا قـدْ أشـرقـتْ ... والحـالُ فينـا قـدْ نجـحْ
بمحمّـد المـذكـورِ فـي ... كـلِّ المفـاوزِ والبِطَـحْ
لـوْ أنْ يـوازَنَ أحمـدٌ ... بـالخلـقِ كلِّهِـم رَجَـحْ
ولقـدْ بـدا مـنْ فَضْلِـهِ ... لقـرَيـش أمـرٌ قـدْ وضـحْ
تـمَّ السـرورُ لأحمـدٍ ... والسعـدُ فينـا مـا بَـرِحْ
بخـديجـةَ خُـصَّ الكـريـمُ ... وَبِبَحْـرِ نـائلِهـا طفـحْ
يـا حسنَهـا فـي حَلْيِهـا ... والحِلْـمُ منهـا متَّضِـحْ
هـذا الأميـنُ محمَّـدٌ ... مـا فـي مـدائحِـه كلَـحْ

قال الراوي: فلما رأى النبي ﷺ خديجة ازدادت فرحاً وسروراً، فلما أوقفوها بين يديه، ضربت الدفوف، وأخذت صفية التاج من على رأسها، ووضعته على رأس النبي ﷺ، وقلن: يا خديجة لقد خصصت بشيء، ما خص به أحد من نساء قريش، هنيئاً لك ما وصل إليك! ثم خرجت خديجة في الجلوة الثالثة في ثياب خضر، قد حارت فيها الصنّاع، وعليها حليٌ وجوهر، قد أضاء الموضع من لمعان ذلك الجوهر، وفي وسط الإكليل ياقوتة حمراء تضيء، وقد أشرقت الدار من الجوهر، ومن نور خديجة وحسنها، وأقبلت صفية بنت عبد المطلب، وهي تنشد وتقول:

هـبَّ النسيـمُ ورفّـت الأشجـارْ
وتبـرقعَـتْ لَيـلا بفضـلِ إزارْ
بجنـابِ عـزِّكَ تـرحَـلُ الـزُوَّار
وبنـورِ وجهِـكَ تُكْشَـفُ الأستـار
والنـوقُ لـولا وجهُـكَ مـا هـدتْ
وكـذا الحَـداةُ لـولا سَنـاكَ لَحـارْ
ولقـدْ ملكْـتَ قلـوبَ أربـاب الهـوَى
وبطيـبِ ذكـرِكَ تنطِـقُ الأحْجـار

لمّـا حـدا الحـادي بـذكْـرِ المصطفـى
مـدَّتْ إليـهِ كـأنّهـا الأطيـار
فتمـايلَـتْ أغصـانُهـا وتـراقصَـتْ
تبغـي جنـابَـكَ سيِّـد الأقمـار
يـا منـزلاً فيـه طبيـبُ قلـوبِنـا
يـا روضـةً فيهـا لنـا الأسـرارْ
يـا حجـرةً ضمَّـتْ نبيّـاً مـرسَـلاً
فـي عشقِـه تَتهتَّـكُ الأسْتـار
لـولاكَ مـا خطـبَ الحبيـبُ بمنبـرٍ
كـلاّ ولا وردَتْ لنـا الأخبـار
لـولاكَ مـا هجـرَ المتيَّـمُ أهلَـهُ
صبّـوا دمـوعَ عيـونِهـم مِـدْرَار[1]
بـاعـوا النفـوسَ علـى هـواكَ وأقبلـوا
يـرجـوا رِضـاكَ لأنَّـك السمّـار
أنـتَ الشفيـعُ إذا جهنّـمُ أقبلَـتْ
تـرمـي العُصـاةَ مقـابِـسَ الأشـرار
يـا سيِّـدَ الكـونَيْـنِ أنـتَ المصطفَـى
يـا مـنْ بـهِ تتشـرَّفُ الأمصـار
صلّـى عليـكَ اللهُ فـي السبْـعِ العُلـى
والآلِ مـا عقـبَ الظّـلام نهـارْ

قال: فلما نظر النبي ﷺ إلى حلْيها وحللها، ازداد فرحاً وسروراً ثم خرجت خديجة في الجلوة الرابعة، وعليها من الثياب والجواهر والذهب، ما تحار منه العقول، وبين يديها بَرّة بنت عبد المطلب، وهي تقول (**أفلح من يصلي على الرسول وآله**):

حَسْبُـكَ هـذا الشـرفُ العـالـي ودمْـتَ فـي عـزٍّ وإقْبـالِ

---

(١) المدرار: الكثير السيلان.

حُـزْتَ فنـونـاً مـنْ خَيـارِ النِّسـا ونلْـتَ قـدْرَ مشـرَّفٍ عـالـي

ثم أقبلت خديجة في الجلوة الخامسة. في ثياب من الوشي الممسوح بالقضبان، مرصع بفنون من الجوهر، وبين يديها آمنة وهي تقول (**صلوا على خير الورى**):

يـا هـذه ابشِـري مـا مثلُـه بشـر
كـالبـدْرِ يخطُـرُ فـي أثـوابِـه الخضـرْ
شمـسُ الضحـى فـي مقـاصيـرِ رقيـه
فيهـا عـروسٌ فمـا فـي عـودِهـا خـوَرْ
فهـيَ العـروسُ التـي سـادَتْ بطلعتِهـا
كـلَّ العبـادِ وفيهـا العطـرُ والأثـر
سبحـانَ خـالِقِهـا مـنْ لـؤلـؤٍ نظـم
تفـوقُ فـي حسنِهـا بـالبـدوِ والحضـر
فـالشكـرُ لله شكـراً دائمـاً أبـداً
تـزدادُ مـنْ فضلِـه واللهُ مقتـدِر

ثم إن خديجة خرجت في الجلوة السادسة، وعليها ثوب مرصع بالذهب، منظوم بالياقوت الملون، وبين يديها بيضاء بنت عبد المطلب وهي تقول:

جنحـتْ إليـكِ مطيَّـةُ الآمـالِ
وجـرزْت فيـه فـواضـلَ الأذْيـال
وبلغْـتِ مكـرمـةً تطـاولَ فـرْعُهـا
زادَتْ علـى الهضبـاتِ والأجبـالِ
ولقـدْ حييـتِ بسيِّـدٍ مـا مثلُـه
فيمـا مضـى مـنْ سـالِـفِ الأمثـالِ

قال: ثم أقبلت في الجلوة السابعة في ثياب من الحرير، مثل بالدر والجوهر، وبين يديها فاطمة بنت أسد، أُم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهي تقول (**أفلح من يصلي على الرسول وآله**):

لقـدْ علـوْتِ خـديجـةُ فـي ذَوي الشـرفِ
حتّـى ارتقيْـتِ مـنَ العَلْيـا مـراقيهـا
بـالسيِّـدِ الطـاهِـرِ المبعـوثِ فـي صحُـفِ
الـرهبـانِ لا شـكَّ والأنبـاءُ تُنبِيهـا

قال: ثم أوحى الله تعالى إلى جبرئيل، أن انزل إلى جنة الفردوس، واقبض منها قبضة من الطيب، وألقها في شعاب مكة. ففعل إلى أن صار كل واحد يجد الطيب من نفسه، وكل يقول: هذا من طيب محمد وخديجة، وفيه الشاعر يقول:

دخلْتُ من بابِ السلامِ الصباحْ شاهدتُ ليلى تنجَلي بالوِشاحْ
وبرقُعُ النورِ على وجهها وخالُها المسكُ مع النَدِّ فاح
فقلْتُ يا ليلى قتلَني الهوى ولذَّ لي في ذكرِكِ الانطِراح
فقلتُ يا ليلى صِلي مُغرَماً متيَّماً في حبِّك مُسْتَباح
هل ترحمي صبّاً حليفَ الكَرَى وعنْ هواكِ ما لهُ من بَرَاحْ
باللهِ أنتمْ عوِّدوني الوصالَ فوعدُكُمْ يكْفي ولو بالمُزاح
أنتمْ مُرَادي أنتم بُغْيَتي أنا محبّ الطيبِ بحمل السلاح
متى أحْظى بِلُقْيا سادَتي وأستمعُ منكُمْ نداءَ الفلاح
متى أرى تلكَ القِبابَ التي بها النبيُّ الهادي بتلْكَ البِطاحْ
أُعفِّرُ الخدَّيْنَ في بابِه وأرتجي منه النَّجا والفلاح
صلّى عليهِ خالقُ الأرضِينَ ما أومضَ البرقُ اليمانيُّ ولاح

وقال بعض العارفين في مدح سيِّد المرسلين:

نبيُّنا آياتُه ظاهِره عن بعضِها يعجِزُ مَنْ فاخَرَه
أعظمُها القرآنُ جلَّ الذي أنزلَهُ معجزةً باهِره
وفي انشقاقِ البدْرِ للمصطفى والشمسُ فيها آيةٌ ظاهره
كذاكَ نبعُ الماءِ من كفِّه يجري كغيثِ الأسحُبِ الماطره
كمْ أطعَمَ الجيشَ وأرواهم منْ نَزْرِ شيءٍ حينما باشَرَه

كـمْ بقعـةٍ يـابسـةٍ قـدْ غـدَتْ بـوطئِـهِ مخضَـرَّةً نـاضِـره
وردَّ عينـاً ذهبَـتْ كلُّهـا إلـى الحجّـاجِ انقلَبَـتْ نـاظِـره
بلمسِـه ردَّ يـداً بعـدمـا قـدْ قُطِعَـتْ مـن ضـربـةٍ بـاتِـره
للميْـتِ أحيـى غيـرَ مـا مـرَّةٍ بقـدرَةِ البـاعِـثِ لـلآخِـره
أطلَعـهُ اللهُ علـى علـمِ مـا يكـونُ فـي الـدنيـا وفـي الآخره
علـومُ كـلِّ النـاس فـي علمِـه كقطـرةٍ مـن أبحـرٍ زاخِـره
وفضلُـه أعيـى الـوَرى عـدُّه أفهـامُـه عـن حصْـرِه قـاصِـره
صلّـى عليـه ربُّنـا دائمـاً صـلاتَـه الـزاكيـةَ العـاطـره
ثـمَّ علـى العِتـرةِ أهـلِ التُّقـى أكـرِمْ بـهِ مـن عتـرةٍ طـاهـره
كـذا علـى الآل لـه قـدوةٌ للنـاسِ مثـلَ الأنجُـمِ الـزاهـره
فنسـألُ الله بِهِـمْ رحمـةً تعمُّنـا بـاطِنـةً ظـاهـره
لنقطَـع الغـمَّ بتقـوى وأنْ يختـمَ بـالخيـرِ لنـا آخـره

قال ناقل الحديث: وأقامت خديجة مع النبي في أطيب عيش، وقد ازدادت حسناً وجمالاً. ثم حملت خديجة، فلما أتمت أيامها، وضعت غلاماً فسماه النبي القاسم، وبه يلقب. حتى صار للنبي تسعة وعشرون سنة، حملت خديجة حتى إذا كملت أيامها، وضعت غلاماً فسماه النبي ﷺ الطاهر، ثم حملت بإبراهيم وزينب ورقية وأُم كلثوم، ثم انقطع حملها. فلما خلا من مبعثه خمس سنين، حملت خديجة بفاطمة الزهراء عليها السلام، التي فضّلها الله على أخواتها، وعلى جميع النساء. وكان النبي ﷺ يوم تزويجه بخديجة ابن أربعة وعشرين سنة، وبعد مبعثه بثماني سنين، قبضت خديجة رضي الله عنها.

وهذا آخر ما انتهى إلينا من خبر مولد النبي ﷺ، ورضاعه وصراعه، وسفره وتزويجه، على الوفاء والتمام. ونستغفر الله الكريم المنّان، من الزيادة والنقصان، والسهو والغلط والنسيان، ومنه التوفيق والإحسان. وصلى الله على محمد وآله الطاهرين والحمد لله رب العالمين.

في السلام على أهل البيت (ع)

سلامٌ سلامٌ سلامٌ سلام ... سلامٌ عليكُمْ فردُّوا السلام
سلامٌ على سيِّدِ المرسَلين ... نبيِّ الهدى والصِدِّيق الأمين
من الله فضلاً على العالمين ... على رأسِه قدْ سارَ الغمام
سلامٌ على قاتِل المارقين ... وسرِّ الإلهِ الإمامِ المبين
فلولاهُ ما بانَ لله دين ... فللرُكنِ منهُ تسامَى فقام
سلامٌ على الحسن المجتبى ... ورابعِ أهلِ الكِسا والعَبا
أليف الندا يا حليفَ الإبا ... أنتَ الإمامُ ليومِ القِيام
سلامٌ على المستطابِ الشهيد ... أبي السادةِ الغرِّ مأوى الطّريد
فلولاهُ ما بان غصنٌ جديد ... ولا بان غصنُ الهدى في الأنام
سلامٌ على سيِّد الساجدين ... وركنِ الإلهِ المنيعِ الحصين
أبي الباقرِ العلمِ في العالمين ... وربِّ الفخارِ الذي لا يُرَام
سلامٌ على منْ زكى مولِدا ... ومن في السّلام النبيّ الهدى
ومنْ كان أهدى ومنهُ ارتدى ... بثوبِ المعالي ليومِ القيام
سلامٌ على الصادقِ في المقال ... جلالَ حباهُ به من ذو الجلال
ومن فيهِ أهدى أزل الضلال ... ومن فيه دين فيوم استقام
سلامٌ على من به اللهُ سن ... طريقَ الهدى كاظمُ الممتَحَن
غريبُ الرزايا أليفُ المِحن ... وكعبة تلك الرزايا العِظام
سلام على السيِّد المرتضى ... عليِّ بن موسى زَكيِّ الرضا
ومؤتمن السرِّ سرِّ القضا ... ومن كان في الكونِ قِدْماً نظام
سلامٌ على ابنِ عليٍّ الجواد ... وصيِّ النبيِّ الهدى خيرِ هاد

إمـامٌ لـدى الـديـن كـانَ عمـاد ... كـذلـك للحـقِ كـانَ الـزِّمـام
وأُثنـي سـلامـي علـى ابـنِ الجـواد ... أبـي الحسـن خيـرِ مـوْلـى العِبـاد
إمـام بـه كـان خِصْـبُ البـلاد ... وفيـه علـى الخلـقِ درّ الغمـام
سـلامٌ علـى الـوالـدِ المتَظَـر ... مـن الـديـن فخـراً بـه قـدْ فخـر
إمـامـاً فـداؤك كـلُ البشـر ... لقـد تـمّ فيكـم ختـانُ الغـلام
سـلامٌ علـى الغـائـبِ المـرتجـى ... يمـزِّقُ ليـلَ الشفـا مـا دجـى
سئمنـا الحيـاةَ بـكَ المـرتجـى ... مـن الظـالميـنَ طُغـاةِ العظـام
وسلِّـم لنـا شيخنـا المحتـرَمْ ... بحـقِّ النبـيِّ شفيـعِ الأُمـم
ونجِّـه يـومَ تـزلُّ القـدَم ... فيمضـي سـلامـاً لـدارِ السـلام

قصيدة
في حب علي عليه السلام

حــبُ علــيٍّ بــنِ أبــي طــالــبِ ... أحْلى مــن الشهْـدِ إلـى الشـارِبِ
حــبُّ علــيٍّ ثــابــتٌ واجــبٌ ... فــي عُنُــقِ الحــاضــرِ والغــائِــب
لــولا علــيٌّ بــنُ أبــي طــالــبٍ ... مــا عُـرِفَ الشيعـيُّ مـنَ النـاصِبِـي
مــن لــم يحـبَّ ابـنَ أبـي طـالـب ... أُمُّــه زنَــتْ وأبــوهُ كــاذبِ
قــال تحــبُ ابـنَ أبــي طــالــبٍ ... قلــتُ نعــمْ والطــالــبِ الغــالــبِ
يلــومُنــي العــائــبُ فــي حبِّــه ... فلعنــةُ الله علــى العــائــبِ
لــو فتّشــوا قلْبــي رأوا وسْطَــهُ ... سطـريْـنِ قـد خُطّـا بـلا كـاتـبِ
العــدلُ والتــوحيــدُ فــي جــانــب ... وحــبُ أهــلِ البيــتِ فــي جــانــبِ

قصيدة في الدعاء للمعلم

الحمـــدُ للهِ الـــذي هَـــدانـــا ... ارزُقنـــا معلِّمـــاً يـــرْعـــانـــا
يضـــربُنـــا بســـوْطِـــه أحيـــانـــا ... حيـــنَ أتـــانـــا واضـــحُ القـــرآنـــا
عـــرفْنـــا الإعـــرابَ والبيـــانـــا ... مـــن بعـــدِ مـــا كنّـــا مـــن العُمْيـــانـــا
الحمـــــدُ للهِ الـــــذي تحمـــــدا ... حمداً كثيراً ليس يُحصى عددا
كلَّم مـوسـى واصطفـى محمّـدا ... وأنـــزل القـــرآن نـــوراً وهـــدى
يهـدي بـه مـن خلقِـه مـن اهتـدى ... علـــى النبـــيِّ اسمـــهُ محمـــدا
الحمـــدُ للهِ الحميـــدِ المبـــدي ... سبَّـح لـه طيـرُ السمـاء والـرعـدِ
يـأتيـك طَيْـر مـن طيـورِ الهنـد ... مخضـبُ الـريـشِ مليـحُ القـدّ
يـا أُم قـومـي وافـرشـي الحـريـرا ... وهلِّلـــــي وكبِّـــــري تكبيـــــرا
سيـروا علـى اسـم الله ثـم سيـرا ... سيـروا علـى الـديبـاج والحـريـرا
وهلِّلـوا بـالـواحـدِ القـديـرْ ... علـــى البـــرايـــا فضلُـــه كثيـــرْ
وعـــالـــمٌ وســـامـــعٌ بصيـــرْ ... ونـــاظـــرٌ لفعلِكُـــم خبيـــرْ
وسـامـع الأصـواتِ مفـرِّجُ الكُـرَبْ ... ومنـزلُ الـوحْـي علـى خيـرِ العـرب
علـى النبـيِّ الهـاشمـيِّ المنتجَـب ... هـذا غـلامٌ قـد قـرأ وقـدْ كتـب

تمّ الكتاب بعونه تعالى

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الكتاب والمؤلف	٥
الجزء الأول	
زواج هاشم بن عبد مناف بسلمى بنت عمرو النجار	٧
الجزء الثاني	
ولادة جد الرسول وخروجه مع عمه المطلب الى مكة	٢٧
الجزء الثالث	
قصة عبد المطلب مع أصحاب الفيل ونجاة مكة من الهدم	٣٩
الجزء الرابع	
نذر عبد المطلب وفداء ابنه عبد الله من الذبح	٤٧
الجزء الخامس	
تزويج آمنة بنت وهب بوالد الرسول (ص)	٦١
الجزء السادس	
إنذار الكهان بقرب ولادة الرسول الكريم وفشل مكائدهم	٧٦

الجزء السابع

ولادة النبي (ص) وظهور دلائل نبوته ١٠٩
قصيدة في السلام على أهل البيت عليهم السلام ٢٠٠
قصيدة في حب علي عليه السلام ٢٠٢
قصيدة في الدعاء للمعلم ٢٠٣
الفهرس ٢٠٥